

غوستاف لوبون

سيكولوجية الجماع

ترجمة وتقديم
هاشم صالح

دار
الساقية

مكتبة دار الساقية

سيكولوجية
الجماهير

الفكر الغربي الحديث

غوستاف لوبون

سيكولوجية الجمهير

ترجمة وتقديم
هاشم صالح



الحق

Gostave Le Bon: Psychologie des foules

الطبعة العربية :

© دار الساقى

الطبعة الأولى ١٩٩١

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 1 85516 815 4

United Kingdom: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Lebanon: P.O.Box: 113/ 5342, Beirut. ، ١١٣ / ٥٣٤٢ ب.ب. : بيروت، لبنان ص.ب.

مقدمة إلى علم النفس الاجتماعي وفكر غوستاف لوبون

بقلم: هاشم صالح

من المعروف أن علم النفس يهتم عادة بدراسة النفسية الفردية ومشاكلها في فترة الطفولة والمراهقة خصوصاً. وعلم التحليل النفسي الذي أسسه فرويد قائم على استبطان الذات الفردية لا الجماعية من أجل تشخيص عقدها النفسية التي قد تكون ابتليت بها في طفولتها الأولى تمهيداً لتحليلها ثم لعلاجها إذا أمكن ذلك. ونحن نعلم مدى تعقيد مصطلحات علم النفس والتحليل النفسي ومدى تشعب مدارسه واتجاهاته وفروعه. ولكن يوجد هناك علم آخر يستخدم مصطلحات علم النفس بطريقة أخرى: إنه علم النفس الاجتماعي. وهو غير معروف كثيراً لدينا على الرغم من أنه أصبح أحد العلوم الإنسانية الأساسية: كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الأنثروبولوجيا (أي الإنسان)، وعلم الإثنولوجيا (أي الإناسة أو الشعوب)، وعلم الألسنيات، وعلم الاقتصاد السياسي، وعلم التاريخ، إلخ. وهذا العلم متطور جداً في الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية. والواقع أن مؤسسيه الأوائل هم الفرنسيون وغوستاف لوبون بالذات، ولكنهم أهملوه فيما بعد وتأخروا عن ركب البحث في هذا المجال كثيراً. وهدفه دراسة الصراع الناشب بين الفرد والمجتمع كمرحلة أولى، أي مدى انسجام الفرد اجتماعياً أو شذوذه عن خط المجتمع. ولكن العلم يتجاوز هذه المسألة فيما بعد لكي يدرس سلوك المجموعات في المجتمع وليس الأفراد فقط. نقصد الفئات الاجتماعية، أو الطبقات، أو الأقليات، أو الطوائف الدينية. إلخ... والواقع أن هناك تكاملاً بين العلمين وليس

تناقضاً: فعلم النفس الفردي يكمله علم النفس الاجتماعي أو الجماعي . فمن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، عزل السلوك الفردي عن الوسط الاجتماعي - الثقافي المحيط به . كما أنه من غير الدقيق أن نحرم الذات الفردية من نواياها الخاصة ومشاعرها الذاتية . فكلما الجانبين في حالة تداخل وتفاعل، أو صدام وتنافر .

ولكن الشيء المعروف والمتفق عليه أيضاً من قبل كل علماء النفس - بمن فيهم فرويد - أن الفرد ما إن ينخرط في جمهور محدد حتى يتخذ سمات خاصة ما كانت موجودة فيه سابقاً . أو قل إنها كانت موجودة ولكنه لم يكن يجزئ على البوح بها أو التعبير عنها بمثل هذه الصراحة والقوة . لهذا السبب يمكن القول بأن علم النفس المطبق على الجماعات - أو على الجماهير - يختلف من حيث المنهج والنتائج عن علم النفس الفردي . وبالتالي فله خصوصيته المشروعة . ليس غريباً - والحالة هذه - أن يكون قد تشكل على هيئة علم متميز يحتل أهمية كبيرة في ساحة العلوم الإنسانية الحديثة .

بالطبع فإن لعلم النفس الاجتماعي تاريخاً طويلاً، ويمكننا أن نعود به إلى أقدم الفلاسفة والعصور كأفلاطون وأرسطو مروراً بالمفكر العربي ابن خلدون الذي درس في القرن الرابع عشر مسألة انحطاط الدولة الإسلامية في إسبانيا . ومن المعروف أنه كان تلميذاً لفلسفة أرسطو من خلال ابن رشد . وقد حاول استخلاص القوانين العامة التي تتحكم بتطور الجماعات البشرية وانحطاطها عن طريق أخذ العوامل الاقتصادية والنفسية (كمسألة العصبية) بعين الاعتبار . ولكن هذه التأملات تبقى بدائية وبعيدة جداً بطبيعة الحال عن مناهج علم النفس الاجتماعي الحديث ووسائله في العمل . ويمكن أن نذكر بالطبع كرواد بعيدون لهذا العلم أسماء العديد من الفلاسفة الأوروبيين الذين تتابعوا من عصر النهضة وحتى اليوم كهوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩)، وجان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨)، وفورييه (١٧٩٢ - ١٨٣٧)، وأوغست كونت مؤسس علم الاجتماع (١٧٩٨ - ١٨٥٧) .

ولكن كان ينبغي أن نتظر مجيء القرن العشرين لكي يتأسس علم النفس الاجتماعي على أسس علمية راسخة. وينبغي التفريق هنا قليلاً بين علم النفس الاجتماعي وعلم النفس الجماعي (Psychologie sociale, psychologie collective). فالثاني يمكن اعتباره فرعاً من فروع الأول. ذلك أن علم النفس الاجتماعي يدرس، كما قلنا سابقاً، العلاقة بين الفرد والمجتمع. ثم عمليات دمج الإنسان في المجتمع أو تحويله إلى كائن اجتماعي. إنه يقوم بالدراسة العلمية للفرد بصفته إنساناً متأثراً بأفراد آخرين وبالمجتمع ككل. وبالتالي فهو يدرس كل المشاكل المتعلقة بالتربية والثقافة والوسط الاجتماعي الثقافي والتمرين الاجتماعي وتأثيره على الدائرة العاطفية والسلوكية للفرد. وفيها نجد مشاكل البلورة الاجتماعية - الثقافية للشخصية (شخصية الفرد) مع كل المفاهيم التي تتضمنها: كمفهوم الدور الذي يلعبه الفرد، ومكانته، ومعايير السلوك الطبيعية أو الشاذة ثم علاقات الأشخاص ببعضهم البعض مع كل عمليات التفاعل والتواصل.

ووسائل العمل التي يستخدمها علم النفس الاجتماعي هي: الروايز الخاصة بعلم المقاييس النفسية (دراسة درجة الذكاء مثلاً)، والاستفتاء، والمقابلات، والتحريرات الميدانية، والتجارب المخبرية. وفي حوالي عام (١٩٤٠) كانت تتنازع ثلاثة تيارات أساسية هي التيار السلوكي (behavioriste) أو التجريبي من حيث المنهج، التيار التحليلي النفسي (أو العيادي الطبي)، والتيار الثقافي المعتمد على علم الإناسة (الإثنولوجيا).

ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم كثرت الدراسات الميدانية والمخبرية في مجال علم النفس الاجتماعي واتخذت أهمية قصوى، نظرية وتطبيقية، في العالم الأنغلوساكسوني. ثم حاولت فرنسا مؤخراً اللحاق بالركب وتدارك ما فات من خلال بعض البحوث الموفقة التي جرت طيلة العشرين سنة الماضية في بعض مراكز البحوث. وتوزعت الاهتمامات بشكل أساسي على المحورين التاليين:

١ - مجموعة البحوث المتمحورة حول مسألة تكوين الشخصية ودمجها في الوسط الاجتماعي . وقد استخدمت مكتسبات علم الإنسان والتحليل النفسي ونظريات التدريب أو التمرين . وهذه المدرسة وريثة عالمة الأنثربولوجيا الأمريكية مرغريت ميد (Margaret Mead) إلى حد كبير .

٢ - مجموعة بحوث متمحورة حول دراسة الخلافات والتمييزات الموجودة بين الشعوب والأجناس المختلفة . ومنها بحوث أوتو كلينبيرج الخاصة بدراسة الطبقات الاجتماعية والفئات العرقية والقومية . وقد ابتدأت هذه البحوث في الولايات المتحدة ، وهي متواصلة في فرنسا حالياً في رحاب المدرسة التطبيقية للدراسات العليا . وأوتو كلينبيرج هو الذي كتب مقدمة الكتاب الذي ترجمناه هنا «سيكولوجية الجماهير» . أو «نفسية الجماهير» .

أما علم النفس الجماعي (La psychologie collective) فهو ليس إلا الفرع الأخير من فروع علم النفس الاجتماعي ، وكثيراً ما يدرس كآخر فصل من فصوله ، وكأنه شيء مهمل أو ثانوي . ولكن يبدو من الصعب في عصرنا هذا إهمال مثل هذا العلم الخطير حيث نجد أن كل شيء يعبر عن نفسه بواسطة الكمية والعدد (كالاقتصاد ، والدعاية ، والإعلان ، والأيديولوجيات السياسية أو الحزبية أو النقابية أو الدينية ، ثم الاضطرابات الاجتماعية التي تقوم بها الجماهير ، والاضطرابات العمالية أو الطلابية ، والثورات ، إلخ . . .) . كل هذه الظواهر تدرج تحت إطار علم النفس الجماعي ، أو علم نفسية الجماهير وبالتالي فمن الصعب إهمالها أو استبعادها من ساحة الدراسة العلمية . نقول ذلك وخصوصاً أن علم النفس الجماعي سابق من حيث المنشأ الزمني على علم النفس الاجتماعي ، فهو قد نشأ في القرن التاسع عشر على يد بعض الباحثين الإيطاليين قبل أن يتبلور بشكل علمي على يد غوستاف لوبون . يضاف إلى ذلك أن علم النفس الجماعي أو الجماهيري كان أول من اهتم بمسألة هامة جداً : هي مسألة تلك الجاذبية الساحرة التي يمارسها بعض القادة أو الديكتاتوريين على الجماهير والشعوب . وعلم النفس الجماعي

يفيدنا ويضيء عقولنا عندما يشرح لنا جذور تصرفاتنا العمياء والأسباب التي تدفعنا للإنخراط في جمهور ما والتحمس أشد الحماسة للزعيم، فلا نعي ما فعلناه إلا بعد أن نستفيق من الغيبوبة. وربما جعلنا ذلك أكثر حيلة وحذراً في «الإنبطاح» أمام زعيم جديد قد يظهر.

دور فرويد في تطوير علم نفسية الجماهير

قبل أن نتحدث عن دور غوستاف لوبون في هذا المجال، فإننا سنكرس فقرة قصيرة للدور الذي لعبه مؤسس التحليل النفسي: سيغموند فرويد. كنا قد ذكرنا سابقاً بأن التحليل النفسي يهتم بتحليل الشخصية الفردية لا الجماعية. ليس غريباً والحالة هذه أن تكون الكتب التي خصصها فرويد لدراسة علم النفس الجماعي قد جاءت في المرحلة الأخيرة من حياته. ولهذا السبب اعتبرها تلامذته بمثابة اللاعلمية لأنها متأثرة بالشيخوخة والمرض. والواقع أنهم كانوا يأنفون من أن يهتم التحليل النفسي بشيء آخر غير الشخصية الفردية. من هنا إهمالهم لأعمال فرويد الأخيرة أو تغاضيهم عنها وكأنها تخرجهم أو تسيء إلى سمعة الأعمال الأولى الموصوفة وحدها بالعلمية والجدية، ولكن التاريخ أثبت صحة نبوءات فرويد وتحليلاته المتضمنة في هذه الكتب أكثر مما نتوقع. ففرويد الذي شهد الحرب العالمية الأولى وتصادد الحملات المضادة للسامية في أوروبا الغربية واضطرت الأحداث فيما بعد للهجرة إلى انكلترا ما كان بإمكانه إلا أن يطرح بعض التساؤلات على ظاهرة الجماهير وكيف تتحرك وتهتاج وتلعب دوراً كبيراً في حركة التاريخ. فقد كانت جماهير النازية والفاشية أمامه في طور التحضير والتهيئة. ومن أهم كتبه في هذا المجال «علم النفس الجماعي وتحليل الأنا» و «مستقبل وهم».

وفيهما يبين فرويد أوجه التشابه بين بعض الطقوس الشعائرية والممارسات الهوسية، ويوضح مدى الأهمية والضخامة التي يمكن أن تتخذها أوهام الفكر السحري أو العقائد اللاعقلانية. وأما كتاباه الآخران اللذان صدرا فيما بعد فيشكلان استمرارية لما سبق ومداً للتحليلات

السابقة لكي تشمل المؤسسات الاجتماعية والسياسية أيضاً. وهما «توعك في الحضارة» و «موسى والديانة التوحيدية».

والواقع أن علم النفس الجماعي بالنسبة لفرويد ليس إلا نقلاً لمصطلحات التحليل النفسي وتطبيقها على العلم المذكور مع إجراء بعض التعديلات عليها بالطبع لكي تتناسب مع الجماعة أو الجمهور. فرويد يرى أن لب المشكلة يكمن في الأعماق في كلتا الجهتين: جهة الفرد وجهة الجماعة. وعندما يقول في الأعماق فإنه يقصد اللاوعي بالطبع. هذا على الرغم من أنه يرفض فكرة اللاوعي الجماعي التي يستخدمها كل من يونغ وغوستاف لوبون. فالتحليل النفسي الذي أسسه هو وحده العلمي وليس ذلك الذي أسسه يونغ. وبالتالي فنفس المفاهيم والآليات التي وجدها في اللاوعي الفردي سوف يطبقها على اللاوعي الخاص بالجماعة. وهكذا نجد مصطلح الليبدو، أي الطاقة الشبقية الحيوية التي تتمثل فيها غريزة الحياة، في صلب الموضوع. وكذلك الغرائز الجنسية والعدوانية، ومفهوم الأنا والأنا العليا، إلخ...

ويرى روبير ماندرو، أحد رواد علم النفس التاريخي أو تاريخ العقلية في فرنسا، أن فرويد كان يريد اكتشاف المنهجية التي تمكنه من «ردم الهوة التي تفصل علم النفس الفردي عن علم النفس الجماعي». ولكن بعض الاتباع الذين جاؤوا على أثره حاولوا دراسة الجماهير والشعوب على هواهم: أي عن طريق المبالغة في استخدام مصطلحات التسميم (تسميم النفوس عن طريق الإشاعات)، والتلاعب بالناس، ووسائل الدعاية. ويرى ماندرو ضرورة الحذر والأناة فيما يخص هذه النقطة ويذكرنا بالبدهية التالية: إن النفسية الجماعية لفئة ما ليست هي مجموع النفسيات الفردية لأعضائها. كما أن الجماعة ليست محصلة لمجموع الأفراد. وهذا يشبه ما يقوله لوبون عن اختلاف الفرد المعزول أو الواحد، عن الجمهور. فما أن ينخرط الفرد في الجمهور حتى يتغير وينصهر.

وبالتالي فإن مناهج التحليل النفسي الخاصة بالأفراد لا يمكن نقلها إلى ساحة الجماعات وتطبيقها عليها إلا في حدود ضيقة جداً، وبعد التعديل الكثير. ولكن الرأي العام الشائع يطبق هذه الأشياء على طريقة الأحكام المسبقة كما هو معلوم. وهي أحكام عنصرية في جوهرها لأنها تقول مثلاً بأن المسلم متعصب لأنه مسلم، أو أن العربي متخلف بجوهره وعاجز عن صنع الحضارة لمجرد أنه عربي (وهي أحكام عنصرية منتشرة جداً في أوساط اليمين المتطرف الأوروبي منذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم. انظر بعض تصريحات جان ماري لوبان زعيم اليمين المتطرف في فرنسا مثلاً).

وهنا يمكن أن نفتح قوساً ونقول بأن تركيز غوستاف لوبون على مسألة العرق وأنه هو العامل الحاسم في تحديد سلوك الشعوب والأفراد قد أصبح بالياً ومدحوضاً من الناحية العلمية. ولا يمكن فهم مثل هذا الإلحاح على مسألة العرق إلا إذا موضعناها ضمن سياقها التاريخي في القرن التاسع عشر حيث ازدهرت النظريات العنصرية وتطورت جداً وارتبطت بالفلسفة الوضعية أو بصيغة مبتذلة من صيغ الوضعية والعلموية لا العلمية (Scientisme) فحتى فرويد نفسه لم ينج منها لأنها كانت تشكل الايديولوجيا المنبثة لعصر بأكمله، فهو يكتب مثلاً: «كل فرد ينتمي إلى عدة أرواح جماعية: روح عرقه، وروح طبقته، وروح طائفته...»^(١).

مهما يكن من أمر، فإنه من المباح استخدام مناهج علم النفس والتحليل النفسي في دراسة الجماهير بشرط التروي في ذلك وعدم التهور. وبشرط عدم استخدامها لترسيخ الأحكام العنصرية كما يفعل لوبون أحياناً. فالجماهير هي الجماهير أينما كانت، ولا معنى للتفريق بين جمهور لاتيني وجمهور أنغلوساكسوني وجمهور إسلامي أو عربي، إلخ... فإذا ما وجدت في ظروف تاريخية معينة انفجرت الجماهير ودمرت، أو أفادت وضحت بنفسها بكل سخاء وكرم من أجل القضايا الكبرى. ويمكننا إذا ما استخدمنا مصطلحات التحليل النفسي بذكاء واعتدال أن نفسر الظواهر الخاصة بالجماهير كظاهرة «العدوى» أو

«التحريض» مثلاً. وهذا ما فعله المؤرخ الفرنسي الكبير جورج لوفيفر في دراساته عن الثورة الفرنسية. فقد استخدمها واستفاد من بحوث لوبون بشكل إيجابي ومعقول من أجل فهم ظاهرة الجماهير الثورية (انظر كتابه: دراسات حول الثورة الفرنسية، عام ١٩٥٤، المطبوعات الجامعية الفرنسية).

علم الجماهير بين الايديولوجيات الدينية والايديولوجيات السياسية

في الماضي كان الدين، أو بالأحرى كانت الايديولوجيا الدينية هي التي تهيج الجماهير وتجيئها لكي تنخرط في الحركات الكبرى (كالحروب الصليبية مثلاً، أو كالدعاية العباسية التي قلبت الدولة الأموية، إلخ...). ولكن بعد أن تعلمت أوروبا في العصور الحديثة حلت الايديولوجيات السياسية محل الايديولوجيات الدينية في القيام بهذه المهمة. وأصبحت الأحزاب السياسية والنقابات العمالية هي التي تعبىء الجماهير وتجعلها تنزل إلى الشارع. وبدلاً من حروب الأديان السابقة بين البروتستانت والكاثوليك، حلت الحروب العلمانية بين الأحزاب الاشتراكية والأحزاب الليبرالية. يقول الباحث ب. أدلمان بهذا الصدد ما يلي: «لقد حلت السياسة محل الدين، ولكنها استعارت منه نفس الخصائص النفسية. بمعنى آخر أصبحت السياسة ديناً معلماً، وكما في الدين فقد أصبح البشر عبيداً لتصوراتهم الخاصة بالذات»^(٢). ولكننا شهدنا في السنوات الأخيرة تجميعاً كبيراً للجماهير بواسطة الدين أو بالأحرى الايديولوجيات الدينية في البلدان غير الأوروبية وغير المعلمنة.

ولم يكن علم الجماهير قد اهتم حتى ذلك التاريخ إلا بالحركات الاجتماعية بشكل عام (كالفتنة، والهيّاج الشعبي، والاضرابات والتنظيمات النقابية والعمالية). هذا بالإضافة إلى اهتمامه بالحروب الصليبية التي جرت في الماضي.

ولكن بدءاً من عصرنا الحاضر - وفي العشرين سنة الأخيرة

بشكل خاص - راح بعض الباحثين يهتمون بظاهرة جديدة هي الجماهير السياسية المؤطرة. وعلى أثر أعمال غوستاف لوبون وفرويد وتارد ظهر باحثون جدد اهتموا بدراسة الظاهرة من أمثال عالم الاجتماع الفرنسي المعروف جان بودريار وكتابه «في ظل الأغليات الصامتة»، ثم بول أديلمان المذكور آنفاً و «إنسان الجماهير»، ثم سيرج موسكوفتشي و «عصر الجماهير».

وكل هؤلاء الباحثين يطرحون، وإن بأساليب مختلفة، سؤالاً واحداً يتعلق بمسألة هذه الظاهر الجديدة التي تدعى: الجماهير. ثم يتساءلون عن مسألة صعودها القوي على مسرح التاريخ المعاصر. كما أن القادة المحركين للجماهير من أمثال: هتلر، موسوليني، ستالين، ماوتسي تونغ، غاندي، قد أصبحوا موضع تساؤل (بغض النظر عن حكم القيمة الإيجابي الذي يمكن أن نطلقه على هذا الأخير تمييزاً له عن البقية، فهو على طرفي نقيض من هتلر مثلاً. فالمسألة تخص القدرة على التجيش وحجم هذا التجيش أساساً).

والسؤال الذي يطرحه علم الجماهير، أو علم النفس الجماعي، هو التالي: كيف أمكن لهؤلاء القادة أن يجيشوا الجماهير بمثل هذا الحجم؟

بالطبع لم يعد الباحثون اليوم يهدفون من وراء القيام بهذه البحوث إلى اكتشاف طريقة لمعرفة كيفية السيطرة على الجماهير والتحكم بها كما كان يفعل غوستاف لوبون، وإنما يهدفون بالدرجة الأولى إلى دراسة الشروط التي تجعل انبثاق ظاهرة الجماهير ممكنة في هذا البلد أو ذاك، في هذا الظرف الزمني المحدد أو ذاك والتي قد تؤدي إلى توليد أشكال من الحكم ديمقراطية، أو أشكال أخرى ديكتاتورية واستبدادية.

من هو غوستاف لوبون؟

إنه أولاً وقبل كل شيء مؤسس «علم نفسية الجماهير». وقد ولد

في منطقة النورماندي عام (١٨٤١) ومات في باريس عن عمر طويل عام (١٩٣١). وكان ذا روح موسوعية من حيث البحث عن المعرفة، وقد كتب في العديد من المجالات والفروع العلمية. فمن علم الطب في البداية إلى علم الفيزياء النظرية إلى علم الأنثروبولوجيا والآثار في الهند كان مسار لوبون طويلاً ومتشعباً. وقد انتهى به أخيراً إلى ساحة علم الاجتماع والنفس أو بالأحرى علم النفس الاجتماعي حيث أعطى خيرة ما عنده ونال شهرة كبيرة. ويكفي أن نذكر هنا بعض أسماء كتبه التي لاقت رواجاً منقطع النظير في وقتها لكي نعطي فكرة عن مدى اتساع معرفته وتشعب همومه واهتماماته:

١ - حضارة العرب (١٨٨٤).

لحسن الحظ أن الشركة الوطنية للطباعة والتوزيع في الجزائر قد أعادت طبع هذا الكتاب عام ١٩٦٩، أي بعد حوالي المائة عام على صدوره! (٤٩٤ صفحة).

٢ - حضارات الهند (١٨٨٧).

٣ - الحضارات الأولى (١٨٨٩).

٤ - القوانين النفسية لتطور الشعوب (١٨٩٤).

٥ - سيكولوجية الجماهير (أي علم نفسية الجماهير) (١٨٩٥).

وهو الذي نقدم ترجمته الآن إلى القارئ العربي.

٦ - سيكولوجية الاشتراكية (أي تحليل الاشتراكية من وجهة نظر نفسية).

٧ - الآراء والعقائد (١٩١١).

٨ - الثورة الفرنسية وسيكولوجية الثورات.

هذه هي بعض عناوين كتبه الأساسية التي تزيد عن الخمسين كتاباً ما عدا المقالات. وهناك أيضاً كتاب آخر له بعنوان ممتع وجميل جداً هو: حياة الحقائق (١٩١٤).

وقد أعيد طبعه مؤخراً في باريس من قبل جمعية أصدقاء غوستاف لوبون. وفيه يستعرض أبستمولوجيته، أي نظريته في فلسفة المعرفة. فالحقائق ليست مطلقة ولا أبدية، وإنما لها تاريخ محدد بدقة، وعمرها قد لا يتجاوز عمر الزهور، أو قد يتجاوز عمر القرون. إن لها لحظة ولادة ونمو وازدهار مثلها مثل الكائنات الحية، ثم لحظة ذبول فشيخوخة وموت. وتعتقد الباحثة كاترين روفيه أن أبستمولوجية لوبون تشبه إلى حد كبير من حيث نسبتها وارتباطيتها أبستمولوجية كارل بوبر (Karl Popper) (وهو أكبر عالم أبستمولوجيا في عصرنا الحاضر).

ولكن باعتراف معظم الاختصاصيين فإن كتاب «سيكولوجية الجماهير» هو أشهر كتبه على الإطلاق، وهو الذي بوأه مكانة رفيعة في عالم الفكر والمعرفة. وهو الوحيد الذي قرره الجامعة في برامجها كمرجع بعد أن رفضت صاحبه كأستاذ طيلة كل حياته على الرغم من كل محاولاته. ولكن كم بقي من أسماء أساتذة الجامعة الفرنسية آنذاك في عصرنا الحاضر؟ وما عدا اسم دوركهيم من يعرف اسماً آخر معاصراً لغوستاف لوبون؟ هكذا تذهب المناصب الرسمية وتبقى العبقريات شامخة فوق المناصب والمراكز.

وعلى هذا الكتاب اعتمد معظم الباحثين العالميين فيما بعد من أجل دراسة ظاهرة الجماهير. وهو إنجاز لرائد عبقرى وساذج في آن معاً، كما يقول سيرج موسكوفيتشي. وأما الرائدان الآخران فهما غابرييل تارد وفرويد. وكان تارد معاصراً للوبون ويقوم بأبحاثه بشكل مواز له. وقد حظي بأكبر المناصب الجامعية إذ عين أستاذاً للفلسفة في الكوليج دو فرانس التي تعتبر أعلى مرتبة من السوربون. وقد انتقد تارد كتاب لوبون هذا وكرس لذلك كتاباً كاملاً بعنوان: الرأي والجمهور. وصدر عام (١٩٠١) أي بعد ست سنوات من صدور كتاب لوبون. أما فرويد فقد أشاد في كتابه المذكور سابقاً بإسهام لوبون في هذا المجال على الرغم من تحفظاته وانتقاداته وذلك عندما قال: «بتركيزه على دور اللاوعي في الحياة النفسية فإن سيكولوجية السيد لوبون تقترب كثيراً

من سيكولوجيتنا (أو علم نفسه من علم نفسنا)»^(٣).

السياق التاريخي والظروف المحيطة بتأليف الكتاب

لكي نفهم فكر لوبون ينبغي أن نعلم أن حياته الطويلة قد أتاحت له أن يشهد انتصار العلم في أواخر القرن التاسع عشر وأزمات الأنظمة الديمقراطية البرلمانية وبزوغ نجم الاشتراكية وصعودها، ثم ظهور تلك القوى الشعبية التي رافقتها وأقلقتة كثيراً.

وأما فيما يخص السياق التاريخي السياسي فينبغي أن نعرف أن فرنسا قد خرجت مهزومة وذليلة من حربها مع ألمانيا عام (١٨٧٠) لتعيش حالة التمرد الشعبي المتجسد بكمونة باريس.

وفي مواجهة كل ذلك كان المنطق يقتضي وجود حكومة قوية قادرة على ضبط الأوضاع وإعادة الهيبة والسيادة. ولكن ما هو موجود كان ضعف الحكومات وانقسام الأحزاب السياسية على بعضها البعض وعجزها عن مواجهة المتمردين.

وكانت الدولة الفرنسية تشعر بوجود خطرين، الأول خارجي ويتمثل بألمانيا، والثاني داخلي ويتمثل بالثورة الفرنسية التي لا تعرف كيف تنتهي منذ أكثر من قرن. فقد كان شبحها يخيم على نفوس الحكام.

يقول أحد كبار مؤرخي الثورة الفرنسية المعاصرين فرانسوا فورييه ما يلي: «إن تاريخ القرن التاسع عشر كله كان تاريخ الصراع بين الثورة والارتداد عليها، وذلك عبر حلقات من مثل ١٨١٥، ١٨٣٠، ١٨٤٨، ١٨٥١، ١٨٧٠، كومونة باريس. إلخ...»^(٤).

ويكفي أن نقرأ تين أورينان أو حتى روايات إميل زولا، على الرغم من اختلاف هؤلاء فيما بينهم من حيث التوجه المحافظ أو التقدمي، لكي نتيقن من وجود ذلك الخوف من الطبقات الشعبية. ومن أجل مواجهة هذا الخطر كان على المفكرين إيجاد تفسير للأحداث،

أي إيجاد مفتاح يفتح أبواب العصر الحديث ويحل لغزه. فقد كانت أنظار كل الناس في فرنسا آنذاك مركزة على النظام الاجتماعي وتراقب عدم ثبات السلطة السياسية أو استقرارها. فمحاولة الارتداد على الثورة وإعادة النظام القديم بكل ملكيته وكنيسته وكهنته لم تؤد إلى النتيجة المرغوبة، بالرغم من ازدهار العقائد التي تدين أفكار العالم الحديث وتلعن من ينشرونها (كمزاعم العلم، وحق التصويت العام، والمبدأ الأعلى للمساواة بين البشر، إلخ . . .).

وفي هذا الوقت بالذات جاء المنظر غوستاف لوبون. وعلى الرغم من أن الجامعة قد رفضت دخوله إلى صفوفها وكذلك أكاديمية العلوم فإن همته لم تثبط، وإنما راح يفهم العلم فهماً من الفيزياء النظرية إلى الأنثروبولوجيا إلى علم النفس . . . ومن خارج الدائرة الرسمية لكبار الجامعيين والأساتذة راح يؤثر على الساحة الثقافية ويصدر الكتاب تلو الكتاب في مختلف المجالات النظرية. وخلال عدة سنوات ألف أكثر من عشرة كتب طبخ فيها كل النظريات البيولوجية والأنثروبولوجية والسيكولوجية. وراح يبلور شيئاً فشيئاً نظريته المتعلقة بـ"سيكولوجية الشعوب" - أو نفسية الشعوب - والأعراق البشرية. وقد استلهم خطوطها العريضة من المؤرخ الاجتماعي هيبوليت تين (Taine) ومن أكبر منظر للعنصرية في فرنسا وأوروبا كلها: غوبينو. وبحسب رأي المؤرخين فإن إسهامه في بلورة تلك النظرية كان حاسماً وكافياً لكي يجعله يحتل مكانة مرموقة يحسد عليها: ألا وهي رائد الفلسفة العنصرية في أوروبا! ولكن هناك رأي آخر في عنصريته أو عدم عنصريته سوف نستعرضه فيما بعد.

وفي أثناء دراسته لمسائل علم النفس هذه اصطدم لوبون بطبيعة الحال بظاهرة الجماهير وهاله أمرها وخصوصاً الجماهير المتمثلة بالحركات الشعبية والإرهاب. وكان الباحثون الإيطاليون قد ألفوا عدة كتب عن هذه الظاهرة واعتبروا هجوماً على مسرح الأحداث بمثابة عودة أوروبا الحضارية إلى مرحلة البربرية والهمجية. وكان ذكاء لوبون يكمن فيما يلي: لقد عرف كيف يركز انتباهه على هذا الموضوع

ويتناوله من وجهة نظر أخرى غير السائدة ويبني عليه نظرية متكاملة ومتماسكة. وكان الجمهور بأشد الحاجة إليها كما ذكرنا سابقاً.

فقد ابتدأ لوبون بتشخيص أوضاع الديمقراطية البرلمانية التي تولدت عن الثورة الفرنسية كما هو معروف، وحلت محل النظام الملكي والإطلاقي القديم. ولم يقل بأن الحل يكمن في العودة إلى الماضي كما يفعل الذين يحنون راجعين إلى الوراء، ولا في الاشتراكية بطبيعة الحال وإنما في إصلاح النظام البرلماني بشكل يتناسب مع الأوضاع المستجدة. ورأى أن العلة الأساسية لهذا النظام تكمن في عدم التصميم ونقص الإرادة. فقوة الحكم والحاكم تؤدي كما هو معروف إلى استقرار النظام الاجتماعي، وانعدام هذه القوة يؤدي إلى الفوضى واختلال الأوضاع.

صحيح أن غوستاف لوبون يشعر نحو الجماهير الشعبية بالاحتقار. ولكن الجماهير أصبحت حقيقة واقعة، وكل عالم وضعي فإنه لا يمكن أن يحتقر الوقائع المادية القائمة، وإنما ينبغي عليه أن يدرسها ويفهمها ويأخذها بعين الاعتبار. وهكذا يتبدى بدراسة ظاهرة الجماهير بطريقة علمية. وهو لا يجد منهجيته التحليلية أو التشخيصية لا في علم التاريخ ولا في علم الاقتصاد، وإنما في علم النفس. فعلم النفس يعلمنا أن هناك «روحاً للجماهير»، وهذه الروح مكونة من الانفعالات البدائية، ومكرسة بواسطة العقائد الإيمانية القوية. وهي أبعد ما تكون عن التفكير العقلاني والمنطقي. وكما أن «روح الفرد» تخضع لتحريضات المنوم المغناطيسي (أو الطبيب) الذي يجعل شخصاً ما يغطس في النوم، فإن «روح الجماهير» تخضع لتحريضات وإيعازات أحد المحركين أو القادة الذي يعرف كيف يفرض إرادته عليها. وفي مثل هذه الحالة من الارتعاد والذعر فإن كل شخص منخرط في الجمهور يتبدى بتنفيذ الأعمال الاستثنائية التي ما كان مستعداً إطلاقاً لتنفيذها لو كان في حالته الفردية الواعية والمتعقلة. فالقائد الزعيم إذ يستخدم الصور الموحية والشعارات البهيجة بدلاً من الأفكار المنطقية والواقعية يستملك روح الجماهير ويسيطر عليها.

هكذا نجد أن الفكرة الأساسية في نظرية غوستاف لوبون بسيطة وواضحة جداً. فهو يريد أن يقول بأن كل كوارث الماضي القريب التي منيت بها فرنسا وكل هزائمها والصعوبات التي تواجهها تعود إلى هجوم الجماهير على مسرح التاريخ وعدم معرفة مواجهته. وهكذا يمكننا أن نفسر سبب ضعف النظام البرلماني الديمقراطي بأنه عائد إلى الجهل بقوانين علم النفس وطرائق تسيير الجماهير. وبعضهم يقول بأن لوبون كان يحلم بنظام برلماني على الطريقة الإنكليزية. وبعضهم الآخر يقول بأنه استبق الجمهورية الخامسة التي أسسها ديغول فيما بعد ووفر لرئيس الدولة أغلبية قوية في البرلمان تمكنه من حكم فرنسا بشكل قوي وحازم، لا متردد ولا ضعيف كما كان حاصلاً أثناء الجمهورية الثالثة وخصوصاً أثناء الجمهورية الرابعة (حيث كانت تنقلب الحكومة كل شهرين أو ثلاثة).

وبعد أن عبّر لوبون عن هذه الأفكار بشكل سهل ومبسط، وبعد أن عرضها على هيئة نظرية علمية متكاملة ومتماسكة، فإنه قد أصبح مشهوراً ونال المكانة الرفيعة التي كان يحلم بها عن طريق الدخول إلى الجامعة أو إلى أكاديمية العلوم. يقول سيرج موسكوفتشي، أحد كبار علماء النفسي الاجتماعي في فرنسا اليوم، بهذا الصدد ما يلي:

«وبين عشية وضحاها أصبح لوبون الأستاذ الفكري لمرحلة كاملة بأسرها. وقد حافظ على هذه المكانة حتى نهاية حياته المديدة (...). ولما كان مقيماً في منزله لا يبرحه فقد راحت تتعاقب على زيارته كبريات شخصيات العصر من علمية وفكرية وسياسية كعالم الرياضيات هنري بوانكاريه والفيلسوف بيرغسون والشاعر بول فاليري ثم من رجال السياسة رئيس الجمهورية ريمون بوانكاريه والرئيس الأمريكي تيودور روزفلت. وكانوا يتلقون بكل جدية نصائحه في مجال السياسة والمجتمع. والواقع أن انتشار نظريته قد بلغ أوجه في العشرينات من هذا القرن. ففي ذلك الوقت راح العلم الجديد (علم نفسية الجماهير) يجذب بقوة النخبة الديمقراطية التي تجد فيه الآلة المفهومية أو العلمية التي تؤكد لها خوفها العميق من الجماهير. ولكنها في ذات الوقت تقدم

لها مجموعة من القواعد التي تساعدنا على التحكم بعنف الجماهير والسيطرة عليها».

ثم يردف بعد ذلك بقليل :

«الجميع متفقون على أن كتاب «سيكولوجية الجماهير» ومجمل أعمال غوستاف لوبون تشكل نجاحاً منقطع النظير في المكتبات، وأنها إحدى أكبر النجاحات العلمية في كل العصور. وهذا الكتاب هو المانيفست الذي دشن ما يدعى اليوم بعلم النفس الاجتماعي أو الجماعي»^(٥).

وحتى مؤسسو مدرسة فرانكفورت الشهيرة لم يأنفوا من ذكر اسم لوبون على الرغم من تقديمتهم بل والثناء عليه وعلى أعماله على الرغم من يمينيته وعنصريته، وعلى الرغم من أفكارهم التقدمية المعادية للفاشية والنازية. فقد كتب أدورنو وهوركهايمر يقولان: «بعد تجارب العقود الماضية (أي الحرب العالمية الثانية ومجازرها) ينبغي أن نعترف بأن أطروحات غوستاف لوبون قد تحققت إلى درجة مدهشة، على الأقل بطريقة سطحية، حتى ضمن إطار الحضارة التكنولوجية الحديثة التي كنا نتوقع أن نجد فيها جماهير أكثر استنارة»^(٦).

ومن المعروف أن الشيء الذي صعد فلاسفة مدرسة فرانكفورت هو كيف أن الجماهير قد ثارت باسم الفاشية والنازية في أكثر دول أوروبا تحضراً ورقياً: أي ألمانيا. وكان سؤالهم الأساسي: لماذا لم يستطيع عصر التنوير أن يمنع ذلك؟ بمعنى كيف أن البربرية تعود للانبثاق من جديد حتى بعد التنوير والتحديث وانتصار العلم والتكنولوجيا.

لقد اهتم علم الاجتماع الألماني بكتاب لوبون واعتبره نموذجاً وقدوة حتى مجيء هتلر إلى السلطة وتعبئة الجماهير بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في تاريخ البشرية. فقد تأكدت معظم أطروحات لوبون في هذا المجال. وقد انتشرت أفكار لوبون كثيراً وتغلغلت حتى إلى أعماق الناس العاديين وانصهرت في الثقافة العامة إلى درجة أنه يمكن

القول بأن أحد اتجاهات هذا القرن «متأثر بعلم الأحياء الدارويني، وعلم جمال فاغنر وعنصرية غوبينو وعلم نفس لوبون ولعنات بودلير، والنبوءات السوداء لنيتشه وديستوفسكي، ثم أخيراً بفلسفة بيرغسون وعلم التحليل النفسي لفرويد»^(٧).

ليس غريباً والحالة هذه أن يجد لوبون في نفسه ماكيافيلي جديداً. إنه ماكيافيلي العصر الجديد، عصر الجماهير. فهو يريد تجديد الفكر السياسي الذي دشنته سلفه الأكبر.

يقول في كتابه علم النفس السياسي: «إن معظم القواعد والقوانين الخاصة بحكم البشر وقيادتهم والتي استخلصها ماكيافيلي لم تعد صالحة منذ زمن طويل. وعلى الرغم من مرور أربعة قرون على هذا الرجل العظيم فإن أحداً لم يحاول إكمال عمله»^(٨).

وهنا تكمن رسالته فيما يعتقد، وقد قام بها خير قيام عندما ألف كل هذه الكتب الشهيرة التي انتشرت في الجمهور انتشار النار في الهشيم. وهكذا راح يتوجه إلى رجالات الدول وقادة الأحزاب السياسية وحكام العصور الحديثة وكأنه يتوجه إلى تلامذته المباشرين.

موقف التيارات الإشتراكية الصاعدة آنذاك من أفكار غوستاف لوبون

كانت الحركات الإشتراكية والأحزاب العمالية هي المعنية الأولى بأطروحات لوبون الجديدة الخاصة بالجماهير. وكانت سياستها قائمة على التسليم بوجود العقلانية فيما يخص تحريك الجماهير والعمل السياسي ككل، مثلهم في ذلك مثل الحركات الليبرالية والأحزاب البورجوازية. فالفكرة الفلسفية التي كانت سائدة ومسيطرة على كلتا الجهتين هي أن الناس يتحركون بشكل عقلائي ويفكرون بمصالحهم بشكل منطقي عندما ينخرطون في العمل السياسي ويتجهون ويتظاهرون...

ثم جاءت أطروحات لوبون لكي تقلب الأمور رأساً على عقب.

فقد صدمت المفكرين الإشتراكيين لأنها مضادة تماماً لأطروحاتهم. هذا بالإضافة إلى هجوم لوبون في أكثر من موضع على الإشتراكية وجماهيرها وتخوفه من صعودها. والشيء الآخر الذي صدمهم لدى لوبون هو تركيزه على العوامل اللاعقلانية في تسيير الجماهير وقوله بالسمة المحافظة جداً للجماهير. فعلى الرغم من غرائزها الثورية الظاهرية يرى لوبون أن الجماهير تظل محافظة جداً. ذلك أنها تعيد دائماً ما كانت قد دمرته.

وكان رد الفعل الأقوى على أطروحات لوبون قد جاء من جهة المفكر الإشتراكي جورج سوريل، مؤلف الكتاب المعروف «تأملات حول العنف». نقول ذلك على الرغم من أن التعليق النقدي الذي خصصه لكتاب لوبون كان إيجابياً جداً في مجمله. ولكنه رفض وصف الجماهير بالمحافظة كما فعل لوبون، وخصوصاً في المجتمعات التي شهدت التمايز الطبقي. وقد ركز سوريل على انعدام الأطر السوسيولوجية المحسوسة لتحليلات لوبون. ولكن كل هذه الانتقادات لم تمنعه من الاقتراب من مواقع لوبون بمرور السنوات. والدليل على ذلك اكتشافه لضرورة وجود أسطورة جبارة، وبالتالي لا عقلانية، من أجل تحريك الطبقة العمالية وجعلها ثورية. فلولا الحلم والوهم لما ثارت الجماهير الجائعة لا في الماضي ولا في الحاضر تحت قيادة الزعماء والمحرّكين. ولولا الوهم الطوباوي بتحقيق الجنة على الأرض لما ثارت الجماهير العمالية في أوروبا تحت قيادة الأحزاب الشيوعية. ولما كان تأثير سوريل في النصف الأول من هذا القرن كبيراً على سياسة عصره فإن أفكار لوبون قد دخلت عن طريقه إلى عقول الناس في كل مكان.

وحتى المنظر الإشتراكي الألماني كارل كاوتسكي اعترف بأهمية المشكلة، مشكلة الجماهير، وقال:

«لقد أصبح واضحاً كضوء النهار أن الصراعات السياسية والاقتصادية في زمننا قد أصبحت بدرجات متزايدة من فعل الجماهير». ولكنه راح يدحض فكرة لوبون الخاصة بالتحريض والعدوى والقول

بأن تحريك الجماهير يتم لأسباب نفسية بشكل عام. فهناك أسباب اجتماعية واقتصادية أيضاً. ولكن ذلك لم يمنعه من القبول بفحوى نظرية لوبون، وإن على الرغم منه تقريباً. فالجماهير هي الجماهير في كل مكان أياً تكن الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها. إن تصرفاتها تظل غير متوقعة، وهدامة، وميالة للمحافظة جزئياً على الأقل. وقد ضرب كاوتسكي على ذلك مثلاً المذابح التي جرت ضد اليهود في أوروبا، وكذلك ذبح السود في أمريكا من قبل البيض. واستخلص قائلاً:

«هكذا نجد أن عمل الجماهير لا يخدم قضية التقدم دائماً. فما يدمره ليس دائماً تلك العقبات الأكثر عرقلة للتنمية. فالجماهير تجيش العناصر الرجعية مثلما تجيش العناصر الثورية»^(٩).

سبب إهمال لوبون من قبل علماء الاجتماع المعاصرين

كنا قد أثرنا هذه النقطة بشكل سريع من قبل. ولكن ينبغي أن نفصل فيها القول أكثر. فمعظم علماء الاجتماع والنفس في فرنسا يأنفون من ذكر اسمه أو الاستشهاد علناً بكتبه وآرائه. في الواقع ينبغي ربط ذلك بالمنبت الاجتماعي والطبقي للرجل. فهو ينتمي إلى التراث الليبرالي والبورجوازي. وبالتالي فهو ضد الثورة والفكرة الاشتراكية الصاعدة آنذاك. وهو يفعل ذلك (كما هو واضح في الكتاب) بشكل مباشر وفج.

وهناك سبب آخر لإهمال اسم لوبون هو أن كل الأحزاب السياسية من يمينية ويسارية تستخدم وصفاته في دعاياتها وإعلاناتها وطريقة مخاطبتها للجمهور ولكنها لا تريد أن تعترف بذلك لكيلا تفشل خططها في التأثير. فكل هذه الوسائل المستخدمة من قبل الأجهزة الحزبية والقادة السياسيين الذين يظهرون على شاشة التلفزيون تركز على استراتيجية واحدة هي: الإيمان بلا عقلانية الجماهير ضمناً ثم التظاهر في نفس الوقت بأنها عقلانية ومنطقية! لهذا السبب يقال بأن كل زعيم سياسي يظهر على شاشة التلفزيون يضع مسبقاً قناعاً على وجهه لكي يقول ما يدغدغ عواطف الجماهير لا ما يعتقد عميقاً بالفعل.

فهم يحاولون الفصل بين علم النفس وعلم السياسة. فالسياسة سياسة وعلم النفس والمشاكل النفسية شيء آخر فيما يقولون. أما لوبون فيصل بينهما بشكل وثيق عندما يفرق بين الحقيقة الحقيقية «والحقيقة» السوسيولوجية (أي الأفكار الشائعة لدى الجمهور والتي هي خاطئة في الواقع ولكنه يؤمن بها فتصبح حقيقة. بالطبع لوبون لا يستخدم نفس المصطلح التمييزي الذي ذكرناه ولكنه يعني نفس الشيء. لكأنه يقول: ليس بالحقائق وحدها يعيش الناس وتجري حركة التاريخ. وهذا مبدأ أبستمولوجي حديث ومؤكد).

يقول عالم الإقتصاد الألماني الكبير شومبتر بهذا الصدد ما يلي :

«إن أهمية اللاعقلانية في السياسة والتركيز عليها يعزى دائماً لغوستاف لوبون. فهو مؤسس علم نفسية الجماهير أو على الأقل منظره الأول. وذلك عندما استخلص وإن بنوع من التضخيم والمبالغة قوانين السلوك البشري المتأثر بالجمهور أو المنخرط فيه. فقد كشف لنا هذا المفكر أشياء مشؤومة أو مخيفة، ولكن أحداً لا يريد مواجهتها وجهاً لوجه. وقد وجّه في ذات الوقت ضربة موجعة لذلك التصور عن الطبيعة البشرية الذي تركز عليه النظرية الكلاسيكية للديمقراطية والأسطورة الديمقراطية للثورات»^(١٠).

وهناك سبب آخر لإهمال لوبون واحتقاره من قبل التراث الجامعي الفرنسي المعاصر هو تبني أفكاره وتحليلاته من قبل الحركة الفاشية في أوروبا. ولعل ذلك هو السبب الأهم. فعلى الرغم من أن أفكاره قد دخلت إلى إيطاليا عن طريق الاشتراكيين الثوريين إلا أن جماعة موسوليني قد استولت عليها بسرعة واستخدمتها في شعاراتها ودعاياتها. وكذلك الأمر فيما يخص الحركة النازية في ألمانيا فقد استخدمته أيضاً لصالحها. ويرى بعض الباحثين أن تأثير كتاب لوبون على كتاب «كفاحي» لهتلر أوضح من أن يشار إليه. صحيح أن أفكاره قد استخدمت في كل البلدان الأخرى تقريباً من أجل السيطرة على الجمهور والتوصل إلى سدة السلطة، ولكن فقط النظام النازي في

ألمانيا والفاشي في إيطاليا هما اللذان اعترفاً بذلك صراحة. وهذا ما لوّثه كثيراً وأساء إلى سمعته.

وهكذا إذا ما سألتهم: لماذا تتجاهلون لوبون؟ أجابوك: لأنه فاشي!

ولكن إذا ما أردنا أن نشمّل بنفس الحكم مفكرين آخرين شملنا ماكس فيبر وفرويد نفسه. فقد عبرا عن أفكار مشابهة لأفكاره ولم ينعتهما أحد بالفاشية. والواقع أن سوء حظ لوبون يعود إلى أن هتلر وموسوليني كانا من قرائه! وبالتالي فقد أصبحت إدانة صاحب «سيكولوجية الجماهير» سهلة حتى ولو كنا نعرف عن طريق كتاباته أنه يفضل النظام الديمقراطي بكل عيوبه ونواقصه على الديكتاتورية بكل قوتها وصرامتها. فهو يدين كل أنواع الديكتاتوريات بما فيها الديكتاتورية التي يحسبونها عليه: أي الفاشية. وهذا يعني أنهم قد ألصقوا به تهمة لا يستحقها، ومع ذلك فقد مشت وشاعت. فالإشاعة أقوى من الحقيقة كما يقول لوبون نفسه. ويمكن القول، بمعنى من المعاني، أنه قد راح ضحية الحقائق التي اكتشفها. ويعترف الباحث سيرج موسكوفتشي بأنه ما كان سيجرؤ على إعادة الاعتبار لغوستاف لوبون لولا أن كبار المفكرين الأجانب قد سبقوه إلى ذلك. فالأحكام المسبقة المتعلقة به والشبهات التي تحوم حوله هي من القوة والجبروت في فرنسا بحيث أنها تردع أي باحث عن مجرد التحدث عنه أو حتى ذكر اسمه. يقول موسكوفتشي:

«لقد سبقني إلى الاعتراف به مفكرون ألمان من الدرجة الأولى هم بروخ، شومبيتر، أدورنو. فقد لجأوا إليه من أجل فهم الظاهرة التوتاليتارية (الفاشية) ومن أجل محاربتها. وقد وصل الأمر بأدورنو إلى حد إدانة الربط الكلي بين كتاب «سيكولوجية الجماهير» وبين الفاشية. واعتبر ذلك بمثابة الذريعة السهلة جداً. وراح أدورنو يتساءل: لماذا تكون سيكولوجية الجماعات البشرية التي ندرسها هنا شيئاً خاصاً بالفاشية دون غيرها من الحركات السياسية الأخرى التي تبحث أيضاً

عن دعم الجماهير وتحاول تجيش الجماهير؟ فلا فرويد ولا غوستاف لوبون أقاما مثل هذا التمييز. فهما قد تحدثا عن الجمهور «بصفته تلك» دون أي تمييز بين جمهور وجمهور بحسب الأهداف السياسية للجماعات التي تشكله»^(١١).

المسألة العنصرية ومفهوم «العرق التاريخي»

مما لا ريب فيه أن التمايز المبني على لون البشرة أو الشعر ذو حقيقة واقعة في بلدان أوروبا، فالعرق الأبيض أو الأشقر الفاتح أفضل، وفقاً للشعور السائد، من العرق الأسمر أو البني الغامق، ناهيك عن الأسود... وهذا التمايز العنصري تأسس في أوروبا القرن التاسع عشر على هيئة نظرية متكاملة حشدت كل «المبادئ العلمية» من أجل تدعيم أركانها. لقد كان القرن التاسع عشر هو قرن العرقية أو العنصرية بامتياز ولم ينج منه أي مفكر تقريباً. فقد راح تصنيف الشعوب إلى أعراق متفوقة أو عليا وأعراق متخلفة أو دنيا يشكل بدهية بالنسبة لأناس القرن التاسع عشر. وحتى شخصية سياسية تقدمية وإنسانية مثل جول فيري صاحب فكرة العلمنة والمدرسة العامة والشعبية في فرنسا لم يتردد عن التصريح أمام البرلمان بما يلي:

«أيها السادة، ينبغي أن نتكلم بصوت أعلى وأقوى! ينبغي أن نقول بكل صراحة أن للأعراق العليا حقاً على الأعراق الدنيا، قلت إن لها حقاً بمعنى أن عليها واجباً. أن عليها واجب إدخال الأعراق الدنيا في الحضارة»^(١٢).

(خطاب ألقى بتاريخ ٢٨ يوليو ١٨٨٥).

ولكن هناك فرق بين عنصرية وعنصرية بالطبع. فاستخدام مفهوم العرق هنا في خطاب جول فيري ليس سلبياً ولا ينطوي على فكرة السوء كما يفعل غوبينو مثلاً. فهو فقط يريد التنبيه إلى وجود «شعوب» أكثر تحضراً من شعوب أخرى وهذه حقيقة واقعة، ويريد مساعدة هذه الأخيرة على اللحاق بالأولى. انه لا يقصد القول بوجود تفوق جوهري أو أزلي للشعوب الأولى على الثانية، بمعنى أن هذه الأخيرة لا يمكن أن

تساوي الأولى لنقص في عرقها، أي لنقص بيولوجي تكويني . في حين أن هذا ما يفعله منظر العنصرية الأكبر: غوبينو وكل النظرية النازية والفاشية التي استلهمته فيما بعد. ولا يمكن القول بأن غوستاف لوبون عنصري بالمعنى الذي يقصده غوبينو. فهو يؤكد مثلاً بكل قوة على أنه «لا توجد أعراق صافية في البلدان المتحضرة». وهذا عكس أطروحات غوبينو. لكن لديه مفهوماً للعرق هو «العرق التاريخي»، أي الذي يتشكل عبر التاريخ من خلال انصهار عناصر شعب ما ببعضها البعض تدريجياً. فيما أنه لا يؤسس فكرة العرق على العوامل الشكلية أو الفيزيولوجية، فإنه راح يؤسسها على عوامل الثقافة والتراث المشترك لشعب ما. وهي لا تستبعد «التراكمات الوراثية» من ساحتها. لماذا؟ لأن مفهوم «اللاوعي الجماعي» الذي يركز عليه لوبون والذي يستمد منه شعب ما الأسباب اللاواعية لأعماله مشكل بالضبط من هذه التراكمات الوراثية. انه مركب منها كما تتركب الأرض من الطبقات الجيولوجية المتراسة فوق بعضها البعض. وأحياناً يدعو لوبون بنية اللاوعي الجماعي بالتكوين العقلي للشعوب. والشيء الذي يتحكم بهذا اللاوعي أو بذلك التكوين العقلي هو ما يدعوه «بالعرق التاريخي». ويعرفه على الشكل التالي :

«عندما تخضع شعوب من نفس الأصل أو تنتمي إلى أصول مختلفة ولكن غير متباعدة جداً لنفس العقائد والمؤسسات والقوانين طيلة قرون عديدة فإنها تشكل عندئذٍ ما كنت قد دعوته في مكان آخر «بالعرق التاريخي». وعندئذٍ يمتلك هذا العرق نظاماً أخلاقياً وحتى دينياً وسياسياً مركباً من مجموعة من المواضيع والأفكار والعواطف المشتركة التي هي منغرسه في النفوس إلى الحد الذي تقبل فيه دون نقاش»^(١٣).

هكذا نجد أن مفهوم العرق التاريخي لدى غوستاف لوبون أقرب إلى مفهوم الأمة أو الشعب منه إلى مفهوم العرق بالمعنى العنصري للكلمة، أي بالمعنى البيولوجي والفيزيولوجي. إنه يختلف مثلاً عن مفهوم العرق السائد في القرن الثامن عشر والذي كان يعني «جماعة

عرقية تتمايز عن الجماعات الأخرى بواسطة جملة من الخصائص الجسدية الموروثة والتي تمثل فرادة وخصوصية داخل النوع البشري».

والدليل على عدم عنصريته بالمعنى النازي للكلمة هو أنه لا يعتقد بدوام الحضارة في شعب ما أو عنصر ما. فالتاريخ يعلمنا أن مسار الحضارة دائري، فهي تنتقل من منطقة إلى منطقة، ومن شعب إلى شعب. هذا في حين أن العنصريين الحقيقيين يعتقدون بأن هناك شعوباً خلقت أزلياً لصنع الحضارة، وشعوباً أخرى خلقت للبربرية والهمجية إلى أبد الدهر. فغوستاف لوبون مثلاً لا يستبعد ظهور حضارة «للزئوج» في المستقبل، وربما حلت محل الحضارة الأوروبية يوماً ما بعد أن أصابت هذه الأخيرة عوامل الوهن والشيخوخة. وفي كتابه عن حضارة العرب يكتب قائلاً:

«هل يعني ذلك أن الشعوب نصف المتحضرة أو البربرية لا تحب هي الأخرى أيضاً أن ترتفع إلى مستوى الحضارة الأوروبية؟ هذه ليست عقيدتي على الإطلاق. بل إنني أعتقد على العكس إنها سوف تتوصل إلى ذلك يوماً ما. ولكنها لن تتوصل إليه إلا بعد أن تكون قد عبرت الدرجات المتتالية التي تفصلها عنها واحدة بعد الأخرى وليس بقفزة واحدة»^(١٤).

نخلص من ذلك إلى القول بأن لوبون ليس عنصرياً بالمعنى المتطرف للكلمة، ولكنه «عنصري» بالمعنى الثقافي والتاريخي، أي بالمعنى الوضعي والعلمي الذي ساد القرن التاسع عشر كله.

اكتشاف ظاهرة الجماهير

عندما ظهرت الجماهير على سطح المسرح الأوروبي كحقيقة واقعة وضخمة وهددت النظام الاجتماعي القائم حاول الباحثون والمفكرون أن يفهموها ويدرسوها. وقد تبلورت ثلاثة أجوبة أساسية على ذلك:

أولاً: الجماهير هي عبارة عن تراكم من الأفراد المتجمعين بشكل مؤقت على هامش المؤسسات وضد المؤسسات القائمة. بمعنى آخر

فإن الجماهير مؤلفة من أشخاص هامشين وشاذين عن المجتمع. وهكذا نجد أن الجمهور يتطابق، بحسب هذه النظرة، مع «الرعا» و«السوقة» و«الأوباش». إنهم رجال ونساء بدون عمل محدد ومستبعدون من ساحة المجتمع الفعلية.

ثانياً: الجماهير مجنونة بطبيعتها. فالجماهير التي تصفق بحماسة شديدة لمطربها المفضل أو لفريق كرة القدم الذي تؤيده تعيش لحظة هلوسة وجنون. والجماهير التي تصطف على جانبي الطريق ساعات وساعات لكي تشهد من بعيد مرور شخصية مشهورة أو زعيم كبير للحظات خاطفة هي مجنونة. والجماهير المهتاجة التي تهجم على شخص لكي تذبحه دون أن تتأكد من أنه هو المذنب هي مجنونة أيضاً، فإذا ما أحبت الجماهير ديناً ما أو رجلاً ما تبعته حتى الموت كما يفعل اليهود مع نبيهم والمسيحيون المتعصبون وراء رهبانهم والمسلمون وراء شيوخهم. والجماهير تحرق اليوم ما كانت قد عبدته بالأمس، وتغير أفكارها كما تغير قمصانها.

وهذه الأعمال المتطرفة التي تقوم بها الجماهير ما هي إلا ضرب من أعمال الجنون التي تغذي المشاعر الغامضة وتكشف عن الجانب السري والمظلم من الطبيعة البشرية.

ثالثاً: وأما الجواب الثالث فيزيد على الجوابين السابقين ويمشي خطوة أخرى في اتجاه التهجم على الجماهير ويقول بأنها مجرمة. فهي بما أنها مؤلفة من «الرعا والأوغاد»، أي من الرجال الغاضبين والحاquدين فإنها تهجم وتقتل وتسلب كل شيء. إنها تجسد العنف الهائج دون أي سبب أو مبرر واضح. وهي تعصى السلطات القائمة وتخرج على القانون. وفي نهاية القرن التاسع عشر تزايد عدد الجماهير في أوروبا، وراحت أعمالها المباغلة تخيف السلطات. وعندئذ راح المفكرون الفرنسيون والإيطاليون يتحدثون عن ظاهرة «الجماهير المجرمة»، أي أولئك المجرمين الجماعيين الذين يهددون أمن الدولة وطمأنينة المواطنين وسلامتهم. وكان الباحثون الإيطاليون هم أول من تحدث

عن وجود ظاهرة «الجماهير المجرمة». وهكذا أصبحت الدراسة العلمية للجماهير تمر من خلال «علم القانون الجرائمي». وكان الإيطالي سيجهيل (Sighele) أول من بلور هذه النظرية، وأول من خلع معنى تقنياً واصطلاحياً على مفهوم «الجماهير المجرمة». فهي تضم بحسب رأيه كل الحركات الاجتماعية والمجموعات السياسية من الفوضويين إلى الإشتراكيين. كما وتضم بالطبع العمال وهم في حالة الإضراب عن العمل، أو التجمعات الحاصلة في الشوارع.

لوبون يقترح خطأً جديداً لتفسير ظاهرة الجماهير

تكمن أهمية لوبون في أنه رفض هذه الأجوبة الثلاثة كلها واقترح خطأً جديداً لتفسير ظاهرة الجماهير وللدرد على هذا السؤال: ما هو الجمهور؟ وكان جوابه يتلخص عموماً على النحو التالي: الميزة الأساسية للجمهور هي انصهار أفراد في روح واحدة وعاطفة مشتركة تقضي على التمايزات الشخصية وتخفف من مستوى الملكات العقلية. وهو يشبه ذلك بالمركب الكيماوي الناتج عن صهر عدة عناصر مختلفة. فهي تذوب وتفقد خصائصها الأولى نتيجة التفاعل ومن أجل تركيب المركب الجديد. وهذا التشبيه دليل على مدى علمية لوبون أو قل «علمويته». فقد كان غاطساً في مناخ القرن التاسع عشر كما قلنا سابقاً. وهذا القرن الوضعي المؤمن إيماناً مطلقاً بالعلم كان يخضع العلوم الإنسانية للعلوم الدقيقة. وهذا ما فعله أيضاً دوركهايم في ساحة علم الاجتماع مثلاً. ففي الجمهور يتبع كل شخص شبيهه المجاور له. والحشد الكبير يجرف الفرد معه مثلما يجرف السيل الحجارة المفردة التي تعترض طريقه. وذلك أياً تكن الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها عالية أم منخفضة، وأياً تكن ثقافته أمية أم عالمة جداً. فهذا لا يغير في حقيقة الأمر شيئاً.

وينهض لوبون بشدة ضد آراء الباحثين الإيطاليين والفرنسيين من أمثال منافسه تارد (Tarde) والقائلين بأن الجماهير مجرمة بطبيعتها. ويقول بأنها ليست مجرمة وليست فاضلة سلفاً. وإنما هي قد تكون

مجرمة ومدمرة أحياناً، وقد تكون أحياناً أخرى كريمة وبطلة تضحي بدون مصلحة. وأحياناً تكون هذا وذاك في نفس الوقت. وبالتالي فالفكرة الشائعة عن الجماهير بأنها فقط مدمرة وتحب السلب والنهب والشغب من أجل الشغب هي فكرة خاطئة.

الإكتشاف الثاني لغوستاف لوبون:

الجمهور والتنويم المغناطيسي

اعتبر لوبون أن المتغيرات التي تطرأ على الفرد المنخرط في الجمهور مشابهة تماماً لتلك التي يتعرض لها الإنسان أثناء التنويم المغناطيسي. وفي الواقع أن لوبون قد استعار هذا التشبيه من علم الطب والطب النفسي على وجه الخصوص. وكان التنويم المغناطيسي قد دخل ساحة العلاج بكل قوة على يد الطبيب شاركو (Charcot) وآخرين. ومارس التنويم المغناطيسي آنذاك سحراً كبيراً على النفوس، ولم نعد نستطيع، نحن المعاصرين، فهم مثل هذا التأثير الكبير بعد أن سقط في ساحة البلى والإستهلاك. إنه يشبه السحر الذي مارسته الكهرباء أثناء اكتشفها للمرة الأولى. يقول الباحث سيرج موسكوفتشي عن السبب في ولادة علم النفس الجماهيري في فرنسا وليس في غيرها: «إذا كان علم نفسية الجماهير قد ولد في فرنسا وليس في إيطاليا أو ألمانيا فإن ذلك عائد إلى التقاطع الحاصل بين الثورات الشعبية ومدارس التنويم المغناطيسي، ما بين انعكاسات ثورة كومونة باريس، والنتائج الطبية للمشافي الفرنسية في نانسي وسالترير. فقد كانت هذه الثورات تطرح مشكلة، وكانت تلك المشافي تقترح لها حلاً»^(١٥).

هكذا نجد أن لوبون كان يفكر بشكل علمي ويحاول أن ينقل إلى ساحة العلوم الإنسانية (ومنها علم نفسية الجماهير) وسائل العلوم التجريبية الدقيقة وأدواتها. وهذا الافتتان بالعلوم الدقيقة كان الصفة المشتركة للمرحلة الوضعية بأسرها كما أسلفنا. وكانت الثقة بالعلم ومقدرته لا تحدها حدود. ويمكن أن نلاحظ هذه التبعية على مدار كتاب لوبون، ومن خلال الأمثلة التي يضربها. فهو يقارن الإنسان

بالحيوان من حيث الغريزة أو القابلية للتحريض والعدوى مثلاً. فالإنسان مأخوذ هنا كمادة للدراسة العلمية والمختبرية مثله في ذلك مثل أي كائن آخر.

وفي الختام، يمكن تلخيص نظرية لوبون حول نفسية الجماهير بالإكتشافات الثلاثة التالية:

١ - الجماهير ظاهرة اجتماعية؛ ٢ - عملية التحريض هي التي تفسر انحلال الأفراد في الجمهور وذوبانهم فيه؛ ٣ - القائد المحرك يمارس عملية تنويم مغناطيسي على الجماهير تماماً كما يمارسه الطبيب على المريض.

ويترتب على هذه الإكتشافات الثلاثة المبادئ العلمية التالية:

١ - إن «الجمهور النفسي» (Le foule Psychologique) يختلف عن التجمع العادي أو العفوي للبشر في ساحة عامة مثلاً، أو على موقف باص. فالجمهور النفسي يمتلك وحدة ذهنية على عكس هذه التجمعات غير المقصودة.

٢ - الفرد يتحرك بشكل واع ومقصود أما الجمهور فيتحرك بشكل لاواعٍ. ذلك أن الوعي فردي تحديداً، أما اللاوعي فهو جماعي.

٣ - الجماهير محافظة بطبيعتها على الرغم من تظاهراتها الثورية. فهي تعيد في نهاية المطاف ما كانت قد قلبته أو دمرته. ذلك أن الماضي أقوى لديها من الحاضر بكثير، تماماً كأى شخص منوم مغناطيسياً.

٤ - إن الجماهير، أياً تكن ثقافتها أو عقيدتها أو مكانتها الاجتماعية، بحاجة لأن تخضع لقيادة محرك. وهو لا يقنعها بالمحاجات العقلانية والمنطقية، وإنما يفرض نفسه عليها بواسطة القوة. كما أنه يجذبها ويسحرها بواسطة هيئته الشخصية تماماً كما يفعل الطبيب الذي ينوم المريض مغناطيسياً.

٥ - إن الدعاية ذات أساس لا عقلائي يتمثل بالعقائد الإيمانية الجماعية. ولها أداة للعمل تتمثل بالتحريض من قريب أو بعيد (أي

بالعدوى). ومعظم أعمالنا ناتجة عن العقائد الإيمانية. أما التفكير النقدي وانعدام المشاعر اللاهبة فيشكلان عقبتين في وجه الإنخراط والممارسة. ويمكن تجاوزها عن طريق التحريض والدعاية. ولهذا السبب ينبغي أن تستخدم الدعاية لغة الصور الموحية والمجازية، أو لغة الشعارات البسيطة والقاطعة التي تفرض نفسها فرضاً دون مناقشة.

ونخلص من كل تحليلات لوبون إلى القول بأن هناك نمطين من الفكر فقط: الأول يستخدم الفكرة المفهومية والثاني يستخدم الفكرة المجازية أو الصورية. والأول يعتمد على قوانين العقل والبرهان والمحااجة المنطقية، وأما الثاني فيعتمد على قوانين الذاكرة والخيال والتحريض. وأكبر خطأ يرتكبه القائد السياسي هو أن يحاول إقناع الجماهير بالوسائل العقلانية الموجهة إلى أذهان الأفراد المعزولين. فالجماهير لا تقتنع إلا بالصور الإيحائية والشعارات الحماسية والأوامر المفروضة من فوق. فمثلاً لكي يهيج السياسي اليميني موريس باريس الشعب الفرنسي فإنه يدين «البورجوازية السامية الكبرى» (أي اليهودية ضمناً) لأنه يعرف أن في أعماق الشعب الفرنسي عاطفة عدااء موروثة ضد اليهود. وأما السياسي اليساري موريس توريي، زعيم الحزب الشيوعي سابقاً، فهو يدين في خطباته حكم «المائتي عائلة» المتحالفة ضد الشعب. فسواء أكانت هناك مائتا عائلة تحكم فرنسا بالفعل أم لا، فإن المسألة ليست هنا ولا تهم في الأمر شيئاً. المهم أن الشعب حساس لهذه اللغة ويتفهمها جيداً ويثور لدى سماعها، مثلما إنه حساس للغة المضادة لليهود.

هذا لا يعني بالطبع أن لوبون يقترح علينا طريقة للتلاعب بعقول الجماهير من أجل تذليلها وقيادتها كما نشاء ونشتهي. فهذا مناقض لمقصده ولمعطيات العلم. والواقع أنه لا يمكن إقناع الجمهور بفكرة ما أو بعقيدة ما إذا لم تكن مقتنعين بها سلفاً، بل ومقتنعين بها حتى درجة الهوس. ولكنه يعتقد أنه لا يمكن التوجه إلى الجماهير بشكل مختلف. فلا يمكن القيام بعمل فردي. فهما من نوعيتين مختلفتين تماماً. ومن يفعل ذلك يكون جاهلاً بقوانين علم النفس. وتكون معاملته مع الجماهير

وكانها ليست جماهيراً. وهذا ما يؤدي إلى إحباط همتها بدلاً من تجييشها. وقوانين علم النفس هذه هي بالنسبة لغوستاف لوبون بنفس حتمية قوانين علم الإقتصاد أو الفيزياء. وإذا ما استوعبنا هذه القوانين عرفنا كيف نحكم الجماهير ونقود مخيلتها.

ويرى لوبون أنه على هذه المخيلة تم تأثير رجالات التاريخ الكبار، وعن طريق هذا التأثير أنجزت الأديان الكبرى والأعمال التاريخية العظيمة كالمرسحية والبوذية والإسلام وحركة الإصلاح الديني (لوثر) ثم الثورة الفرنسية لاحقاً. ولم يستطع أحد في العالم ولا في التاريخ أن يحكم ضد مخيلة الجماهير هذه بمن فيهم الطغاة الأكثر استبداداً. فحتى هؤلاء كانوا حريصين على إثارة مخيلة الجماهير وإلهاب حماسها عن طريق خطبهم القوية وأسطورتهم الذاتية ومعاركهم الحامية. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: نابليون، أو ماوتسي تونغ أو غيرهما.

هاشم صالح

باريس، ١٣/٩/١٩٩٠

توطئة

بقلم: أوتو كلينبيرج

لماذا نقدم طبعة جديدة لكتاب «سيكولوجيا الجماهير» أو علم نفسية الجماهير؟ أليس صحيحاً أن أفكار غوستاف لوبون قد أصبحت لاغية، وأن علم النفس الذي كان يعتنقه مؤسس على نزعة التصوف العرقي والعنصري، وأن النتائج التي توصل إليها متأثرة بالأحكام المسبقة، وأن ملاحظاته وتحليلاته محصورة ببعض النوادر الصغيرة والآراء الشخصية؟ وهل ينبغي لهذا الكتاب أن يقرأ أو تعاد قراءته من قبل جيل جديد من الباحثين الاجتماعيين أو الاجتماعيين - النفسانيين الذين يحرصون على الموضوعية وعلى المقاربة العلمية لفهم سلوك الجماعات وطريقة تصرف الجماهير؟

لا ريب في أن هناك انتقادات عديدة يمكن توجيهها لهذا الكتاب الصغير. وربما كان أهمها يتعلق بطريقة توظيفه لمفهوم الجنس (أو العرق)، هذا المفهوم الذي استخدمه مرات عديدة لكي يفسر سبب السلوك المتنوع لمختلف أنواع الجماهير. فهو يتحدث مثلاً عن «المستودع الثابت والمهيمن للعرق» بصفته العامل الذي «ينبغي أن يحظى بالمرتبة الأولى» من اهتمام الباحث. وهو يعتقد بأن «روح العرق - أي عرق بشري كان - تهيمن كلياً على روح الجمهور». كما أنه يعود باستمرار إلى «مفهوم العرق الأساسي» هذا. وهو يعترف بدور اللاوعي في حسم سلوك الجماهير، ولكنه لا ينسى أن يربطه «بالبنية العقلية لعرقنا». وحتى عظمة الحضارات وانحطاطها مرتبطان بحسب رأيه بالمتغيرات الكائنة في الطبيعة، أو في «روح» العرق الذي نتمي إليه. وليس ذلك

عائداً إلى أنه يطابق بين العرق والثقافة أو التراث، وإنما لأنه يؤمن بوجود «تراكمات موروثية». وفيما يخص هذه النقطة قلة هم علماء الاجتماع المعاصرون الذين يقبلونها.

وهناك عدة أشياء أخرى يمكننا أن نلومه عليها ونختلف معه فيها. فهو من جهة يولّد الانطباع بأن هناك تطابقاً بين «الجمهور» والأعمال المتطرفة التي تصحب الثورة أو ترافقها. وهو من جهة أخرى يدمج في سيكولوجية الجماهير مداولات هيئة المحلفين في محكمة الجنايات وكذلك أنواع السلوك التي تتميز بها المجالس البرلمانية. ونحن نعلم أن سيكولوجيا واحدة لا تكفي إطلاقاً لتفسير طبيعة هذه الفئات المختلفة جداً. يضاف إلى ذلك أن معرفته بعلم الإناسة (أي الإتنولوجيا) تظل تبسيطية ومسطحة إلى حد ما. فهو يتحدث عن شيوعية بدائية لم يستطع أحد حتى الآن أن يبرهن على وجودها. وهو يشبه سيكولوجيا الجماهير بسيكولوجيا الإنسان «البدائي». كما أنه يقوم بتنبؤات تدعو للسخرية عندما يصرح مثلاً بأن النقد المسرحي سوف يلغى «خلال عشرين سنة» لأن كل رأي شخصي سوف يصبح بدون قيمة. وهو يعتبر أن التعصب واللاتسامح «يشكلان الصفة الملازمة بشكل طبيعي لكل عاطفة دينية»، وأن تربيتنا الحالية «تجند الكثير من الأتباع المتحمسين لأبشع أنواع الإشتراكية». حقاً أن الكتاب يحتوي على الكثير من الآراء التي ينبغي أن تخضع للمناقشة من جديد.

ولكن على الرغم من كل شيء فإن هذا الكتاب يستحق النشر ثانية! وأنا أتذكر أنني عندما قمت بدراساتي الجامعية الأولى عن علم النفس الاجتماعي، فإن المشكلة الأساسية لهذا العلم كانت في نظر معظم الطلاب وحتى في نظر رجل الشارع هي كتاب «سيكولوجيا الجماهير». لقد أثار كتاب غوستاف لوبون هذا الكثير من المناقشات الكبرى والاعتراضات، ولكنه حرّض أيضاً على ولادة عدد كبير من البحوث والكتب الجديدة. كان علم سيكولوجيا الشكل (الجيشتالت باللغة الألمانية) قد عودنا على الاعتراف بأن الكلّ هو أكثر من العناصر التي تشكّله، وبالتالي فإن الجماعة (أو الجمهور) هو أكثر من كمية من

توطئة

الأفراد التي يقل عددها أو يكثر. إن ديناميكية الجماعات البشرية والتجارب التي أجريت على التحريض الاجتماعي لا تتفق مع الكثير من الملاحظات التي أوردها غوستاف لوبون دون برهان. ولكن المشاكل المطروحة حالياً ليست مختلفة جداً عن تلك التي تحدث عنها لأول مرة. وعلى الرغم من كل نواقصه، فإنه قد مارس تأثيراً كبيراً على نشأة هذا العلم وتطوره.

لذلك أقول في النهاية: اقرأوا هذا الكتاب بروح نقدية، ولكن اقرأوه..

أوتو كلينبيرج

أستاذ مشارك في كلية الآداب

والعلوم الإنسانية بجامعة باريس

أستاذ شرف في جامعة كولومبيا

الإهداء

إلى تيوفيل ريبو
مدير «المجلة الفلسفية»
أستاذ علم النفس في الكوليج دو فرانس
عضو معهد فرنسا
تحية محبة

تمهيد (١)

إن مجمل الخصائص المشتركة المفروضة من قبل الوسط المحيط والوراثة على كل أفراد شعب ما تشكل روح هذا الشعب.

وبما أن هذه الخصائص ذات أصل عائد إلى الأسلاف فإنها ثابتة جداً. ولكن عندما يحدث أن يتجمهر مؤقتاً عدد كبير من الأفراد بتأثير من عوامل عديدة، فإن الملاحظة العيانية تبين لنا بأنه تنضاف إلى خصائصهم السلفية الموروثة مجموعة أخرى من الخصائص الجديدة مختلفة أحياناً إلى حد كبير عن خصائص العرق الذي يتسبون إليه.

وتجمهرهم يشكل روحاً جماعية جبارة، ولكن مؤقتة.

لقد لعبت الجماهير في التاريخ دائماً دوراً مهماً، ولكنها لم تلعب هذا الدور بنفس حجم الأهمية الذي تلعبه اليوم. فالعمل اللاواعي للجماهير يمثل (بعد أن يحل محل الفعالية الواعية للأفراد) إحدى خصائص العصر الحالي.

(١) لم أغير شيئاً في هذا الكتاب الذي كان قد صدر للمرة الأولى عام (١٨٩٥). والأفكار المعروضة فيه والتي كانت تبدو آنذاك غريبة لا معقولة أصبحت اليوم كلاسيكية (أي مقبولة من قبل الرأي العام). وقد ترجم كتاب «سيكولوجيا الجماهير» إلى العديد من اللغات: الإنكليزية، والإسبانية، والروسية، والسويدية، والتشيكية، والبولونية، والتركية، واليابانية، إلخ...

المقدمة

عصير الجماهير

إن الانقلابات الكبرى التي تسبق عادة تبديل الحضارات تبدو للوهلة الأولى وكأنها محسومة من قبل تحولات سياسية ضخمة. نذكر من بينها الغزو الذي تتعرض له الشعوب، أو قلب السلالات المالكة. ولكن الدراسة المتفحصة عن كتب لهذه الأحداث تكشف لنا غالباً أن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء هذه الأسباب الظاهرية هو التغير العميق الذي يصيب أفكار الشعوب. والانقلابات التاريخية الحقيقية ليست هي تلك التي تدهشنا بضخامتها وعنفها. ذلك أن المتغيرات الوحيدة المهمة (أي تلك التي ينتج عنها تجدد الحضارات) هي تلك التي تصيب الآراء العامة والتصورات والعقائد. وأما الأحداث الضخمة الماثورة التي تتناولها كتب التاريخ فهي ليست إلا الآثار المروثة للمتغيرات اللامرئية التي تصيب عواطف البشر. وإذا كانت لا تظهر إلى السطح إلا نادراً، فذلك لأن المخزون الوراثي لعواطف عرق بشري ما هو عنصره الأكثر ثباتاً.

إن الفترة الحالية تشكل إحدى اللحظات الحرجة التي نشهد فيها الفكر البشري وهو في طور التحول والتبدل.

وهناك عاملان أساسيان يشكلان الأساس الجذري لهذا التحول هما: أولاً تدمير العقائد الدينية والسياسية والاجتماعية التي اشتقت منها كل عناصر حضارتنا. وأما الثاني فهو خلق الشروط الجديدة كلياً بالنسبة للوجود والفكر. وقد تولدت عن الاكتشافات الحديثة للعلوم والصناعة.

وبما أن أفكار الماضي لا تزال رازحة وجبارة حتى الآن على الرغم من أنها قد زعزعت، وبما أن الأفكار الجديدة المدعوة للحلول محلها لا تزال في طور التبلور، فإن العصر الحديث يمثل فترة انتقالية وفوضوية.

وبما أن فترة كهذه هي بالضرورة مشوشة وفوضوية، فإنه ليس من السهل أن نتنبأ اليوم بما سيتولد عنها مستقبلاً. فالسؤال المطروح هو: على أية أفكار أساسية سوف تنهض المجتمعات المقبلة التي ستخلف مجتمعنا؟ إننا لا نزال نجهل ذلك حتى الآن. ولكننا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن بأنه ينبغي عليها أن تحسب الحساب فيما يخص بنيتها وتنظيمها لقوة جديدة تمثل آخر سيادة تظهر في العصر الحديث: إنها قوة الجماهير وجبروتها. فعلى أنقاض أفكار كثيرة كانت معتبرة صحيحة سابقاً وميتة اليوم، وعلى أنقاض تلك السلطات العديدة التي سحقتها الثورات، نجد أن هذه القوة الجديدة هي وحدها التي نهضت وترسخت. ويبدو أنها سوف تمتص كل الأخريات قريباً. وفي الوقت الذي راحت فيه عقائدنا القديمة تترنح وتتهاوى، وفي الوقت الذي أخذت فيه الأعمدة القديمة للمجتمعات تتساقط الواحد بعد الآخر، فإننا نجد أن نضال الجماهير هو القوة الوحيدة التي لا يستطيع أن يهددها أي شيء. وهي القوة الوحيدة التي تتزايد هيبتها وجاذبيتها باستمرار. إن العصر الذي ندخل فيه الآن هو بالفعل عصر الجماهير.

ومنذ قرن فقط، كانت السياسة التقليدية للدول والمنافسات الجارية بين الحكام هي التي تشكل العوامل الأساسية لتحريك الأحداث. ولم يكن لرأي الجماهير في الغالب الأعم أي قيمة. وأما اليوم فنلاحظ أن التقاليد السياسية والتوجهات الفردية للملوك والحكام والمنافسات الكائنة بينهم لا تؤثر على مسار الأحداث إلا قليلاً. وقد أصبح صوت الجماهير راجحاً وغالباً. فهو الذي يملئ على الملوك تصرفاتهم. ولم تعد مقادير الأمم تحسم في مجالس الحكام، وإنما في روح الجماهير.

إن دخول الطبقات الشعبية في الحياة السياسية وتحولها التدريجي إلى طبقات قائمة يمثل أحد الخصائص الأكثر بروزاً لعصرنا، عصر التحول. وهذا الحدث الجديد لم يكن، في الواقع، متأثراً بحق التصويت العام الذي بقي ضعيفاً طيلة فترة طويلة والذي كان ذا توجه سهل جداً في البداية. وإنما لاحظنا أن ولادة قوة الجماهير قد نشأت أولاً عن طريق نشر بعض الأفكار التي زُرعت في النفوس بشكل بطيء، ثم بواسطة التجميع المتدرج للأفراد من خلال الروابط والجمعيات. وقد أدى هذا التجمع إلى تجسيد بعض المفاهيم التي كانت قد بقيت نظرية حتى ذلك الوقت. وقد أتاح هذا التجمع للجماهير أن تبلور الأفكار التي إن لم تكن عادلة جداً، فعلى الأقل كانت واعية جداً بمصالحها وقوتها. وراحت الجماهير تشكل النقابات التي تنحني أمامها كل السلطات وتستسلم. كما وشكلت بورصات للعمل تحاول، على الرغم من القوانين الإقتصادية السائدة، أن تتحكم بشروط العمل والأجور (أو الرواتب). كما وراحت ترسل مندوبين عنها إلى المجالس الحكومية التي تتخذ القرار. وهؤلاء الممثلون مجردون من روح المبادرة والإستقلالية الشخصية، وهم في الغالب الأعم ليسوا إلا الناطقين باسم اللجان التي اختارتهم.

واليوم نلاحظ أن مطالب الجماهير قد أصبحت واضحة أكثر فأكثر وتميل إلى تدمير المجتمع الحالي وقلبه عاليه سافله، لكي تعود به إلى تلك الشيوعية البدائية التي كانت تمثل الحالة الطبيعية لكل الجماعات البشرية قبل فجر الحضارة. وتتمثل هذه المطالب بالأشياء التالية: تحديد ساعات العمل، تأمين المناخ وسكك الحديد والمعامل والأرض، ثم التوزيع المتساوي للسلع والمنتجات، ثم تصفية الطبقات العليا لمصلحة الطبقات الشعبية، إلخ...

إن الجماهير غير مبالغة كثيراً للتأمل، وغير مؤهلة للمحاكمة العقلية. ولكنها مؤهلة جداً للإنخراط في الممارسة والعمل. والتنظيم الحالي يجعل قوتها ضخمة جداً. والعقائد الجديدة التي نشهد ولادتها أمام أعيننا اليوم سوف تكتسب قريباً نفس قوة العقائد القديمة: أي القوة

الطغيانية والتمسطة التي لا تقبل أي مناقشة أو اعتراض. وهكذا نجد أن الحقوق الإلهية للجماهير قد أخذت محل القانون الإلهي للملوك.

إن الكتاب المقربين من بورجوازييتنا الحاكمة والذين يعتبرون أفضل ممثلين لأفكارها الضيقة ووجهات نظرها المحدودة وشكوكيتها المختزلة وأنانيتها المفرطة أحياناً قد أخذوا يشعرون بالهلع والخوف أمام هذه السلطة الجديدة التي يرونها تبزغ وتكبر أمام أعينهم. وهم لكي يحاربوا هذا الإضطراب الذي يصيب النفوس راحوا يوجهون النداءات اليائسة للقوى الأخلاقية للكنيسة، هذه الكنيسة التي طالما احتقروها في الماضي. وقد أخذوا يتحدثون عن إفلاس العلم ويذكروننا بتعاليم الوحي وحقائقه. ولكن هؤلاء المعتنقين الجدد للإيمان ينسون أنه إذا كانت العناية الإلهية قد مستهم أخيراً، فإنها لا تمارس نفس التأثير على الآخرين غير المكترئين بمشاكل الدار الآخرة. والجماهير لم تعد تريد اليوم آلهة كان أسياها السابقون قد تنكروا لها بالأمس وحطموها. فالأنهار لا تعود أبداً إلى منابعها.

يضاف إلى ذلك أن العلم لم يفلس أبداً وليس مسؤولاً عن الفوضى الحالية التي تصيب النفوس، ولا عن القوة الجديدة التي تنمو وتكبر وسط هذه الفوضى. فهو قد وعدنا باكتشاف الحقيقة، أو على الأقل معرفة العلاقات التي هي في متناول قدراتنا العقلية. ولكنه لم يعدنا أبداً بتحقيق السلام ولا السعادة. فهو لا يبالي إطلاقاً بعواطفنا، ولا يسمع نواحننا وتأوهاتنا، ولا شيء قادر على إعادة الأوهام التي أزالها وطردها.

وهناك أعراض كونية عديدة موجودة لدى مختلف الأمم وتشهد على النمو السريع لقوة الجماهير. ومهما حمل لنا ذلك من أشياء جيدة أو سيئة، فإننا مضطرون لأن نشهد الظاهرة ونتعرض لها. ولن تؤدي الشتائم والانتهاكات إلى أي نتيجة. وربما كان مجيء عصر الجماهير يمثل إحدى آخر مراحل حضارة الغرب. ربما كان يمثل العودة إلى

فترات الفوضى المضطربة التي تسبق عادة ولادة المجتمعات الجديدة .
ولكن كيف نمنع مجيء ذلك العصر؟

كان تدمير الحضارات العتيقة قد مثل حتى هذه اللحظة الدور الأكبر الذي تلعبه الجماهير . والتاريخ يعلمنا أنه عندما تفقد القوى الأخلاقية التي تشكل هيكل المجتمع زمام المبادرة من يدها، فإن الانحلال النهائي يتم عادة على يد هذه الكثرة اللاواعية والعنيفة التي تدعى، عن حق، بالبرابرة . وقد كانت الحضارات قد بنيت ووجهت حتى الآن من قبل أرستقراطية مثقفة قليلة العدد، ولم تبْنَ أبداً من قبل الجماهير . فهذه الأخيرة لا تستخدم قوتها إلا في الهدم والتدمير . كما أن هيمنتها تمثل دائماً مرحلة من مراحل الفوضى . فالحضارة - أية حضارة - تتطلب قواعد ثابتة، ونظاماً محدداً، والمرور من مرحلة الفطرة إلى مرحلة العقل، والقدرة على استشراف المستقبل، ومستوى عالياً من الثقافة . وكل هذه العوامل غير متوافرة لدى الجماهير المتروكة لذاتها . فالجماهير بواسطة قوتها التدميرية فقط تمارس فعلها كالجراثيم التي تساعد على انحلال الأجسام الضعيفة أو الجثث . وعندما تنخر أسس الحضارة، فإن الجماهير تجيء لكي تقوضها . وفي تلك اللحظة بالذات يتجلى دورها . وعندئذ تصبح القوة العمياء للكثرة هي الفلسفة الوحيدة للتاريخ .

فهل سيحصل ذلك لحضارتنا؟ إننا نجهل النتيجة حتى الآن،
ولكننا نخشاها .

لنستسلم إذن لحكم الجماهير، ذلك أن الأيدي الجاهلة قد حطمت
كل الحواجز التي كان بإمكانها أن توقفها عند حدها .

وهذه الجماهير التي ابتدأ الناس يتحدثون عنها بكثرة لا تزال
معرفتنا بها ضعيفة جداً . فيما أن علماء النفس المحترفين قد عاشوا بعيداً
عنها فإنهم تجاهلوا باستمرار . ولم يهتموا بها إلا من خلال الجرائم التي
قد ترتكبها . وهناك جماهير مجرمة بدون شك، ولكن هناك أيضاً جماهير
فاضلة، وجماهير بطلة، وجماهير أخرى عديدة أيضاً . وجرائم الجماهير

لا تشكل إلا حالة خاصة من نفسياتها، ولا يمكننا التعرف عليها فقط من خلالها إلا إذا كان بإمكاننا معرفة الفرد من خلال عيوبه وحدها.

في الواقع أن أسياذ العالم ومؤسسي الأديان أو الامبراطوريات ورسل كل العقائد ورجالات الدول العظام وعلى مستوى أقل زعماء الفئات البشرية الصغيرة، كلهم كانوا علماء نفس على غير وعي منهم. وكانوا يعرفون روح الجماهير بشكل فطري، وفي الغالب بشكل دقيق وموثوق جداً. وبما أنهم يعرفونها جيداً ويعرفون كيف يتعاملون معها فإنهم قد أصبحوا أسيادها. فنبليون بونابرت مثلاً كان ينفذ بشكل رائع إلى أعماق نفسية الجماهير الفرنسية، ولكنه كان يجهل بشكل كلي أحياناً نفسية الجماهير التي تنتمي إلى أجناس أو أعراق مختلفة^(١).

وهذا الجهل قاده إلى خوض الحروب في إسبانيا وروسيا خصوصاً، هذه الحروب التي أدت فيما بعد إلى سقوطه.

إن معرفة نفسية الجماهير تشكل المصدر الأساسي لرجل الدولة الذي يريد ألا يُحكم كلياً من قبلها، ولا أقول يحكمها لأن ذلك قد أصبح اليوم صعباً جداً.

إن نفسية الجماهير تبين لنا إلى أي مدى يكون تأثير القوانين والمؤسسات ضعيفاً على طبيعتها الغرائزية العنيفة. كما وتبين لنا إلى أي مدى تبدو عاجزة عن تشكيل أي رأي شخصي ما عدا الآراء التي لقنت لها أو أوحيت إليها من قبل الآخرين. ولا يمكن للقواعد المشتقة من العدالة النظرية الصرفة أن تقودها. وحدها الانطباعات التي يمكن توليدها في روحها يمكنها أن تجذبها. نضرب على ذلك المثل التالي: إذا ما أراد مشرّع ما أن يفرض ضريبة جديدة، فهل ينبغي عليه أن يختار الضريبة الأكثر عدالة نظرياً؟ بالتأكيد لا. فالضريبة الأكثر ظلماً يمكنها أن تكون الأفضل عملياً بالنسبة للجماهير إذا كانت الأقل مرئية والأقل ثقلاً من حيث المظهر. وهكذا يمكن للضريبة غير المباشرة أن تصبح دائماً مقبولة من قبل الجماهير حتى لو كانت باهظة. فيما أنها موزعة يومياً على مواد الاستهلاك بمبالغ زهيدة جداً، فإنها لا تززع عادات الجماهير

ولا تخيفها. ولكن إذا ما بدلناها بضرية تتناسب طردأً مع الرواتب أو الموارد الأخرى وطلب من الجماهير أن تؤديها دفعة واحدة فإنها ستثير الاحتجاجات الهائجة حتى ولو كانت أقل من السابقة بعشر مرات. ذلك أنه محل القروش اللامرئية التي تدفع كل يوم، قد حل مبلغ كلي مرتفع نسبياً، وبالتالي فيشير الانتباه والاعتراض. وهو لا يمر بسهولة إلا إذا دفع يومياً شيئاً فشيئاً. وهذه الحيلة الاقتصادية تحتاج من أجل اكتشافها إلى قدر من الذكاء والفطنة، وهذا ما تعجز عنه الجماهير.

إن هذا المثل يضيء لنا عقلية الجماهير بأوضح ما تكون. وهذا ما لم يخف على خبير نفساني يدعى نابليون. ولكن المشرعين الذين يجهلون روح الجماهير لا يمكنهم أن يفهموها. فالتجربة لم تعلمهم بالشكل الكافي حتى الآن أن البشر لا يتصرفون أبداً انطلاقاً من مبادئ العقل النظري المحض.

وهناك تطبيقات أخرى عديدة يمكننا أن نجريها على نفسية الجماهير. ومعرفة هذه النفسية تلقي أضواء باهرة على العديد من الظواهر التاريخية والاقتصادية التي تبدو غير مفهومة انطلاقاً بدونها.

إن نفسية الجماهير تستحق الدراسة إذن، حتى ولو لم يكن ذلك إلا بغرض الفضول المحض. ذلك أنه من الممتع أن نحلل الدوافع التي تحرك البشر من أجل الإنخراط والممارسة، مثلما هو ممتع أن نحلل معدناً ما أو نبتة ما.

ودرستنا لروح الجماهير لا يمكنها أن تكون إلا توليفة مختصرة، أو مجرد تلخيص لأبحاثنا. وبالتالي فلا ينبغي أن يطلب منها القارئ أكثر من بعض الآراء ووجهات النظر الموحية. ذلك أنه سيأتي باحثون آخرون ويعمقون الخط أكثر. فنحن لا نفعل اليوم إلا مجرد رسمه على أرضية لا تزال مجهولة جداً حتى الآن^(٢).

الكتاب الأول

روح البصائر

الفصل الأول

الخصائص العامة للجماهير القانون النفسي لوحدها الذهنية

إن كلمة جمهور تعني في معناها العادي تجمعاً لمجموعة لا على التعيين من الأفراد، أيّاً تكن هويتهم القومية أو مهنتهم أو جنسهم، وأياً تكن المصادفة التي جمعتهم.

ولكن مصطلح الجمهور يتخذ معنى آخر مختلفاً تماماً من وجهة النظر النفسية. ففي بعض الظروف المعينة، وفي هذه الظروف فقط، يمكن لتكتل ما من البشر أن يمتلك خصائص جديدة مختلفة جداً عن خصائص كل فرد يشكله. فعندئذٍ تنطمس الشخصية الواعية للفرد، وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه. وعندئذٍ تتشكل روح جماعية، عابرة ومؤقتة بدون شك، ولكنها تتمتع بخصائص محددة ومتبلورة تماماً. وعندئذٍ تصبح هذه الجماعة ما سادعوه بالجمهور المنظم نظراً لعدم امتلاكها مصطلحاً آخر. أو قل إنها تصبح جمهوراً نفسياً (سيكولوجياً). إنها تشكل عندئذٍ كينونة واحدة وتصبح خاضعة لقانون الوحدة العقلية للجماهير.

وظاهرة أن الكثيرين من الأفراد يجدون أنفسهم متجمعين إلى جانب بعضهم البعض عن طريق المصادفة لا تخلع عليهم خصائص الجمهور المنظم. فألف فرد مجتمعون بالمصادفة على الساحة العامة بدون أي هدف محدد لا يشكلون اطلاقاً جمهوراً نفسياً. ولكي يكتسبوا خصائصه المحددة ينبغي أن يحصل تأثير بعض المحرضات التي سنتحدث عنها لاحقاً ونكشف عن طبيعتها.

إن ذوبان الشخصية الواعية للأفراد وتوجيه المشاعر والأفكار في اتجاه واحد يشكل الخصيصة الأولى للجمهور الذي هو في طور التشكل. ولكن ذلك لا يتطلب بالضرورة الحضور المتزامن للعديد من الأفراد في نقطة واحدة. ذلك أنه يمكن لآلاف الأفراد المنفصلين عن بعضهم البعض أن يكتسبوا صفة الجمهور النفسي في لحظة ما وذلك تحت تأثير بعض الإنفعالات العنيفة أو تحت تأثير حدث قومي عظيم مثلاً. وإذا ما جمعتهم صدفة ما كانت كافية لكي يتخذ سلوكهم فوراً الهيئة الخاصة بأعمال الجماهير. ويمكن لنصف دزينة من البشر أن يشكلوا، في ساعات معينة من التاريخ، جمهوراً نفسياً، هذا في حين أن المئات من البشر المجتمعين بطريق الصدفة في مكان ما يمكنهم ألا يشكلوه. من جهة أخرى نلاحظ أن شعباً بأكمله يمكنه أن يصبح جمهوراً بتأثير من هذا العامل أو ذاك بدون أن يكون هناك تجمع مرئي.

ذلك أنه ما إن يتشكل الجمهور النفسي حتى يكتسب خصائص عامة ومؤقتة، ولكنها قابلة للفرز والتحديد. وتنضاف إلى هذه الخصائص العامة خصائص خاصة متغيرة بحسب العناصر التي يتألف منها الجمهور، والتي يمكنها أن تعدل من بنيته العقلية.

وبالتالي فإن ذلك يعني إمكانية تصنيف الجماهير النفسية. ودراسة هذا التصنيف سوف تبين لنا بأن الجمهور غير المتجانس والمؤلف من عناصر متباعدة يتميز بنفس الخصائص المشتركة التي تتصف بها الجماهير المتجانسة. والمؤلفة من عناصر متشابهة قليلاً أو كثيراً (نقصد بالعناصر هنا الطوائف، أو الفئات أو الطبقات). ولكن توجد بالإضافة إلى هذه الخصائص المشتركة خصوصيات تتيح لنا إقامة التمايز بينها.

قبل أن نهتم بدراسة الفئات المختلفة من الجماهير، دعونا نتفحص أولاً الخصائص المشتركة لدى الجميع. ونحن نفعل ذلك على طريقة عالم الطبيعيات والنباتات فنبتدىء بتحديد الخصائص العامة

الفصل الأول : الخصائص العامة للجماهير

لأفراد عائلة واحدة ثم الخصائص الخاصة التي تقيم التفريق والتمايز بين الأنواع والأصناف التي تنطوي عليها هذه العائلة بالذات .

وليس من السهل دراسة روح الجماهير، وذلك لأن تركيبها تختلف ليس فقط بحسب العرق البشري وتشكيلة الجماعات، وإنما بحسب طبيعة المحرضات التي تتعرض لها ودرجة قوتها. ونصطدم بنفس الصعوبة في الواقع إذا ما أردنا القيام بدراسة نفسية لكائن ما. ففي الروايات نجد أن الأفراد يتحلون بخصائص ثابتة ومستمرة، ولكن ليس في الحياة الواقعية. وحدها تماثلية البيئة تخلق التماثلية الظاهرية للخصائص والسمات. كنت قد بينت في مكان آخر أن كل التشكيلات العقلية أو الذهنية تحتوي على إمكانيات خصائص يمكنها أن تبرز إلى السطح تحت تأثير التغيير المفاجيء للبيئة. وهكذا يمكننا تفسير وجود بورجوازيين وديعين في صفوف الثوار الفرنسيين الهائجين. وكان يمكن لهؤلاء البورجوازيين أن يكونوا في الحالات العادية كتاب عدل مسالمين أو رجال قضاء فاضلين. وما إن تمر العاصفة (عاصفة الثورة) حتى يستعيدوا خصائصهم النفسية الطبيعية. وقد عثر نابليون في صفوفهم على أفضل خدمه وأكثرهم طاعة.

ولما كنا لا نستطيع أن ندرس هنا كل مراحل تشكل الجماهير، فإننا سوف ندرسها بشكل خاص في المرحلة الأخيرة والمكتملة من تنظيمها. وعندئذ يمكننا أن نرى ماذا يمكن أن تصبح، ولكن ليس ماهيتها الدائمة. ذلك أنه في مثل هذه المرحلة المتقدمة من التنظيم فقط، وعلى الخلفية الثابتة والمهيمنة للعرق، يمكن لبعض الخصائص الجديدة والخصوصية أن تجيء وتتموضع على السابقة. وتؤدي بذلك إلى توجيه كل مشاعر الجماعة وأفكارها في اتجاه واحد. وعندئذ يتجلى ما كنت قد دعوته سابقاً بالقانون النفسي للوحدة الذهنية للجماهير.

والكثير من الخصائص النفسية للجماهير موجودة لدى بعض الأفراد المعزولين، ولكن هناك خصائص أخرى لا يمكن أن نجدها إلا

لدى الجماعات أو التجمعات. وسوف نحاول أن ندرس أولاً هذه الخصائص الخصوصية لكي نبين مدى أهميتها.

والظاهرة التي تدهشنا أكثر في الجمهور النفسي هي التالية: أياً تكن نوعية الأفراد الذين يشكلونه، وأياً يكن نمط حياتهم متشابهاً أو مختلفاً وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم أو ذكاؤهم، فإن مجرد تحولهم إلى جمهور يزودهم بنوع من الروح الجماعية. وهذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولاً. وبعض الأفكار والعواطف لا تنبثق أو لا تتحول إلى فعل إلا لدى الأفراد المنطوين في صفوف الجمهور. إن الجمهور النفسي هو عبارة عن كائن مؤقت مؤلف من عناصر متنافرة ولكنهم متراصو الصفوف للحظة من الزمن. إنهم يشبهون بالضبط خلايا الجسد الحي التي تشكل عن طريق تجمعها وتوحيدها كائناً جديداً يتحلى بخصائص جديدة مختلفة جداً عن الخصائص التي تمتلكها كل خلية.

وعلى عكس الرأي الشائع الذي يدهشنا أن يتبناه فيلسوف في حجم وألمعية هيربيرت سبنسر فإنه لا يوجد في التجمع الذي يشكله جمهور ما حاصل ومتوسط للعناصر، وإنما يوجد فقط تركيب وخلق للخصائص. وهذا يشبه ما يحصل في مجال الكيمياء. فبعض العناصر المستخدمة في التركيب كالقواعد والحوامض مثلاً تتداخل في بعضها البعض وتتركب من أجل تشكيل مادة جديدة مزودة بخصائص مختلفة عن تلك الخصائص التي كانت تتحلى بها العناصر المفردة قبل تركيبها.

هكذا نلاحظ بكل سهولة إلى أي مدى يكون الفرد المنخرط في الجمهور مختلفاً عن الفرد المعزول. ولكن الشيء الأقل سهولة هو اكتشاف أسباب مثل هذا الاختلاف.

ولكي نتوصل إلى اكتشافها ينبغي أن نتذكر أولاً هذه الملاحظة الخاصة بعلم النفس الحديث: إن الظواهر اللاواعية تلعب دوراً حاسماً ليس فقط في الحياة العضوية أو الفيزيولوجية، وإنما أيضاً في طريقة

اشتغال الذهن أو آليّة العقل . والحياة الواعية للروح البشرية لا تشكل إلا جزءاً ضعيفاً جداً بالقياس إلى حياتها اللاواعية . والمحلل الأكثر فطنة والمراقب الأكثر ذكاء ونفاذاً لا يستطيع التوصل إلا إلى اكتشاف عدد ضئيل جداً من البواعث اللاواعية التي تحركه . فأفعالنا الواعية متفرعة عن جوهر لا واع مشكّل من التأثيرات الوراثية بشكل خاص . وهذا الجوهر ينطوي على البقايا اللانهائية الموروثة عن الأسلاف، وهي التي تشكل روح عرق بشري ما . ذلك أنه وراء الأسباب الظاهرية لأعمالنا تربض أسباب سرية مجهولة من قبلنا . ومعظم أعمالنا اليومية ناتجة عن دوافع مخبوءة تتجاوزنا .

إن أفراد عرق ما يتشابهون خصوصاً بواسطة العناصر اللاواعية التي تشكل روح هذا العرق . وهم يختلفون عن بعضهم البعض بواسطة العناصر الواعية الناتجة عن التربية ثم بشكل أخص عن الوراثة الاستثنائية . والبشر الأكثر اختلافاً وتمائزاً من حيث الذكاء لهم غرائز وانفعالات وعواطف متماثلة أحياناً . والرجال الأكثر عظمة وتفوقاً لا يتجاوزون إلا نادراً مستوى الناس العاديين في كل ما يخص مسائل العاطفة: من دين وسياسة وأخلاق وتعاطف وتباغض، إلخ . . . فمثلاً يمكن أن توجد هوة سحيقة بين عالم رياضيات شهير وصانع أحذيته على المستوى الفكري، ولكن من وجهة نظر المزاج والعقائد الايمانية فإن الاختلاف معدوم غالباً، أو قل إنه ضعيف جداً .

وهذه الصفات العامة للطبع التي يتحكم بها اللاوعي والتي يمتلكها معظم الأفراد الطبيعيين لعرق ما بنفس الدرجة تقريباً هي بالضبط تلك التي نجدها مستنفرة لدى الجماهير . فالكفاءات العقلية للبشر وبالتالي فرادتهم الذاتي تمّحي وتذوب في الروح الجماعية . وهكذا يذوب المختلف في المؤتلف وتسيطر الصفات اللاواعية .

وهذا الإستنفار المشترك للصفات العادية هو الذي يفسر لنا السبب في أن الجماهير لا تستطيع إنجاز الأعمال التي تتطلب ذكاء عالياً . فالقرارات ذات المصلحة العامة التي تتخذها جمعية متميزة من

البشر ولكن من اختصاصات مختلفة ليست متفوقة كثيراً على القرارات التي يتخذها تجمع من البلهاء. ذلك أنه يمكنهم أن يجمعوا هذه الصفات المتدنية التي يمتلكها الجميع. فالجماهير لا تجمع الذكاء في المحصلة وإنما التفاهة. فليس المجتمع يمتلك ذكاء أكثر من فولتير كما يرددون غالباً. وإنما فولتير يمتلك ذكاء أكثر من المجموع إذا كان «المجموع» يعني الجماهير.

ولكن إذا كان الأفراد المنضوون في صفوف الجمهور يقبلون بذوبان خصوصيتهم وصفاتهم العادية، فإننا نتوصل إلى معدل وسطي وليس إلى خلق صفات جديدة كما ذكرنا سابقاً. فبأي طريقة تتشكل هذه الصفات؟ لنبحث عنها دفعة واحدة.

هناك أسباب عديدة تتحكم بظهور الصفات الخاصة بالجماهير. وأولها هو أن الفرد المنضوي في الجمهور يكتسب بواسطة العدد المتجمع فقط شعوراً عارماً بالقوة. وهذا ما يتيح له الإنصياع إلى بعض الغرائز، ولولا هذا الشعور لما انصاع. وهو ينصاع لها عن طوع واختيار لأن الجمهور مُغفل بطبيعته وبالتالي فغير مسؤول. وبما أن الحس بالمسؤولية هو الذي يردع الأفراد فإنه يختفي في مثل هذه الحالة كلياً.

وأما السبب الثاني فهو العدوى العقلية أو الذهنية. فهي تتدخل أيضاً لكي ترصد لدى الجماهير تجليات الصفات الخاصة، ثم لكي توجهها في نفس الوقت. والعدوى ظاهرة تسهل ملاحظتها، ولكنها غير مفسرة حتى الآن. وينبغي أن نربطها بالظواهر ذات التنويم المغناطيسي التي سندرسها بعد قليل. فلدى الجمهور نجد أن كل عاطفة وكل فعل هما معديان بطبيعتهما، وهما معديان إلى حد أن الفرد يضحى بسهولة كبيرة بمصلحته الشخصية من أجل المصلحة الجماعية. وهذه قابلية معاكسة لطبيعته، ولا يمكن للمرء أن يمتلكها إلا إذا أصبح جزءاً من الجمهور.

وهناك سبب ثالث أكثر أهمية وحسماً بكثير لأنه يوجد في الأفراد

الفصل الأول: الخصائص العامة للجماهير

المنخرطين في الجمهور صفات خصوصية تكون أحياناً معاكسة لصفات الفرد مأخوذاً على حدة. أقصد بذلك هنا صفة التحريضية التي لا تشكل عدواها المذكورة آنفاً إلا أثراً من آثارها.

ولكي نفهم هذه الظاهرة ينبغي أن تكون لدينا بعض المعلومات عن آخر الاكتشافات الحديثة لعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا). فنحن نعلم اليوم أنه يمكن وضع الفرد في حالة معينة يفقد فيها شخصيته الواعية، وبالتالي فهو يخضع لكل اقتراحات الجراح الذي جعله يفقدها. وعندئذٍ يقترب أكبر الأعمال مخالفة لطبعه الحقيقي وعاداته. وعلى نفس الشاكلة نجد أن المراقبة اليقظة قد برهنت على أن الفرد المنضوي منذ بعض الوقت في وسط جمهور هائج سرعان ما يسقط في حالة خاصة تشبه كثيراً حالة الإنجذاب الشديد الذي يشعر به المنوم مغناطيسياً تجاه منومه. وبما أن حياة الدماغ تصبح مشلولة لدى الإنسان المنوم مغناطيسياً، فإنه يصبح عبداً لكل فعاليات اللاواعية. ويصبح منومه قادراً على توجيهه الوجهة التي يشاء. وهكذا تصبح الشخصية الواعية مغمياً عليها، وتصبح إرادة التمييز والفهم ملغاة. وعندئذٍ تصبح عواطف المنوم وأفكاره موجهة في الإتجاه الذي يحدده المنوم.

هذه هي حالة الفرد المنخرط في الجمهور. وقد قدمنا لها وصفاً متكاملًا تقريباً. فهذا الفرد لا يعود واعياً بأعماله. فحالته تشبه حالة المنوم مغناطيسياً، بمعنى أن بعض ملكاته تصبح مدمرة، في حين أن بعضها الآخر يستثار ويستنفذ إلى الحد الأقصى. وتأثير كل اقتراح يملأ عليه أو كل تحريض يمثل قوة طائشة لا يمكن ردها من أجل تنفيذ بعض الأعمال. وهذه القوة الهائلة تكون عادة أقوى لدى الجماهير منها لدى الإنسان المنوم مغناطيسياً. فيما أن المحرض هو واحد بالنسبة لكل أفراد الجمهور، فإنه يتضخم ويكبر عن طريق التبادل. وأفراد الجمهور الذين يمتلكون شخصية قوية جداً تمكنهم من مقاومة المحرض هم ذوو عدد ضئيل وبالتالي فإن التيار يجرفهم معه. وكل ما يستطيعونه هو محاولة تحويل الأنظار باتجاه آخر عن طريق تقديم اقتراح مختلف. وأحياناً تجيء كلمة في الوقت المناسب أو تثار

صورة معينة فتحول الجماهير عن اقتراف أبشع الأعمال الدموية.

إذن إليكم الآن مجموع الخصائص الأساسية للفرد المنخرط في الجمهور: تلاشي الشخصية الواعية، هيمنة الشخصية اللاواعية، توجه الجميع ضمن نفس الخط بواسطة التحريض والعدوى للعواطف والأفكار، الميل لتحويل الأفكار المحرّض عليها إلى فعل وممارسة مباشرة. وهكذا لا يعود الفرد هو نفسه، وإنما يصبح عبارة عن إنسان آلي ما عادت إرادته بقادرة على أن تقوده.

هذا يعني أنه بمجرد أن ينضوي الفرد داخل صفوف الجمهور فإنه ينزل درجات عديدة في سلم الحضارة. فهو عندما يكون فرداً معزولاً ربما يكون إنساناً مثقفاً متعقلاً، ولكنه ما إن ينضم إلى الجمهور حتى يصبح مقوداً بغريزته وبالتالي همجياً. وهو عندئذٍ يتصف بعفوية الكائنات البدائية وعنفها وضراوتها وحماستها وبطولاتها أيضاً. ويقترّب منها أكثر بالسهولة التي يترك نفسه فيها عرضة للتأثر بالكلمات والصور التي تقوده إلى اقتراف أعمال مخالفة لمصالحه الشخصية بشكل واضح وصريح. إن الفرد المنخرط في الجمهور هو عبارة عن حبة رمل وسط الحبات الرملية الأخرى التي تذرّوها الرياح على هواها.

على هذا النحو يمكننا أن نفهم كيف أن هيئات التحكيم الجماعية تصدر أحكاماً كان يمكن أن يدينها كل عضو مأخوذاً على حدة. وهكذا نفهم كيف أن المجالس البرلمانية تتبنى القوانين والمراسيم التي كان سيخالفها كل عضو مؤخوذاً على حدة. وإذا ما نظرنا إلى أعضاء الجمعية التأسيسية بعد الثورة الفرنسية وجدنا أنهم كانوا بورجوازيين هادئين ذوي عادات مسالمة. ولكنهم ما إن اندمجوا بالجمهور حتى أصبحوا هائجين متحمسين. ولم يترددوا تحت تأثير بعض المشاغبيين في أن يرسلوا إلى المقصلة الأشخاص الأكثر براءة. وقد ساروا بذلك عكس مصالحهم الخاصة وتخلّوا عن حصانتهم البرلمانية وأبادوا أنفسهم بأنفسهم.

إن الفرد المنخرط في الجمهور لا يختلف فقط بالأعمال

الفصل الأول: الخصائص العامة للجماهير

والتصرفات عن نفسه وهو في الحالة العادية، وإنما نلاحظ أنه حتى قبل أن يفقد كل استقلالية فإن أفكاره وعواطفه قد تحولت وتغيرت إلى درجة القدرة على تحويل البخيل إلى كريم، والشكّاك إلى مؤمن، والرجل الشريف إلى مجرم، والجبان إلى بطل. إن تخلي النبلاء الفرنسيين عن كل امتيازاتهم وتصويتهم على قرار التخلي هذا في لحظة حماسة واندفاع في تلك الليلة الشهيرة لأربعة أغسطس/آب من عام (١٧٨٩) ما كان ممكناً أن يحصل أو يقبل من قبل كل واحد منهم مأخوذاً على حدة.

لنلخص كل الملاحظات السابقة قائلين بأن الجمهور هو دائماً أدنى مرتبة من الإنسان المفرد فيما يخص الناحية العقلية والفكرية. ولكن من وجهة نظر العواطف والأعمال التي تثيرها هذه العواطف فإنه يمكن لهذا الجمهور أن يسير نحو الأفضل أو نحو الأسوأ. وكل شيء يعتمد على الطريقة التي يتم تحريضه أو تحريكه بها. وهذه هي النقطة التي جهلها الكتاب الذين لم يدرسوا الجماهير من وجهة النظر الجرائمية. صحيح أن الجماهير غالباً ما تكون مجرمة، ولكنها غالباً ما تكون أيضاً بطلة. فمن السهل اقتيادهم إلى المذبحة والقتل باسم النضال من أجل انتصار عقيدة إيمانية أو فكرة ما. ومن السهل تحريكهم وبث الحماسة في مفاصلهم من أجل الدفاع عن المجد والشرف. وبالإمكان تجيشهم واقتيادهم بدون خبز وبدون سلاح تقريباً كما حصل أثناء الحروب الصليبية من أجل تخليص قبر المسيح من أيدي الكفار، أو من أجل الدفاع عن تراب الوطن كما حصل عام (١٧٩٣) أي بعد قيام الثورة الفرنسية بأربع سنوات فقط. صحيح أنها بطولة لا واعية إلى حد ما، ولكن التاريخ لا يصنع إلا من قبل بطولات هذه. وعلى فرض إننا لم نتذكر من فضائل الشعوب إلا الأعمال التي أنجزتها بكل برودة أعصاب وعقلانية هادئة، فإن حوليات العالم لن تسجل إلا العدد القليل جداً منها.

الفصل الثاني

عواطف الجماهير وأخلاقيتها

بعد أن تحدثنا بشكل عام جداً عن الخصائص الأساسية للجماهير، سوف نتحدث الآن عنها بالتفصيل.

إن العديد من خصائص الجماهير الخصوصية من مثل سرعة الإنفعال والنزق والعجز عن المحاكمة العقلية وانعدام الرأي الشخصي والروح النقدية والمبالغة في العواطف والمشاعر، وغيرها،

كل ذلك نلاحظه لدى الكائنات التي تنتمي إلى الأشكال الدنيا من التطور كالشخص المتوحش أو الطفل مثلاً. وهذه المقارنة التشبيهية لا أثيرها هنا إلا عرضاً. فالبرهنة عليها تتجاوز حدود هذا الكتاب وإطاره. وسوف تكون بلا جدوى بالنسبة للمطلعين على علم نفس الأشخاص البدائيين، وسوف يكون اقناعها ضعيفاً بالنسبة لأولئك الذين يجهلون.

سوف أتناول الآن الخصائص الأساسية الواحدة بعد الأخرى، هذه الخصائص التي تسهل ملاحظتها لدى معظم أنواع الجماهير.

١ - سرعة انفعال الجماهير وخفتها ونزقها

كنا قد قلنا سابقاً عندما درسنا الخصائص الأساسية للجمهور بأنه مقود كلياً تقريباً من قبل اللاوعي. فأعماله واقعة تحت تأثير النخاع الشوكي أكثر مما هي واقعة تحت تأثير المخ أو العقل. ويمكنها أن تنجز هذه الأعمال بكل دقة وتمام من حيث التنفيذ. ولكن بما أنها غير

موجهة من قبل المخ فإن الفرد يتصرف على هوى صدف التحريض والإثارة. إن الجمهور، الذي يمثل لعبة واقعة تحت تأثير كل المحرضات الخارجية، يعكس متغيراتها التي لا تتوقف. وبالتالي فهو عبد للتحريضات التي يتلقاها. والفرد المعزول يمكنه أن يخضع لنفس المحرضات المثيرة كالإنسان المنخرط في الجمهور. ولكن عقله يتدخل ويبين له مساوئ الانصياع لها، وبالتالي فلا ينصاع. ويمكننا أن نحدد فيزيولوجيا هذه الظاهرة عن طريق القول بأن الفرد المعزول يمتلك الأهلية والكفاءة للسيطرة على ردود فعله، هذا في حين أن الجمهور لا يمتلكها.

إن الإنفعالات التحريضية المختلفة التي تخضع لها الجماهير يمكنها أن تكون كريمة أو مجرمة، بطولية أو جبانة وذلك بحسب نوعية هذه المحرضات. ولكنها سوف تكون دائماً قوية ومهيمنة على نفوس الجماهير إلى درجة أن غريزة حب البقاء نفسها تزول أمامها. (بمعنى أنها مستعدة للموت من أجلها).

وبما أن المحرضات القادرة على تهيج الجماهير متنوعة ومتعددة، وبما أن الجماهير تنقاد لها دائماً، فإننا نجد لها حيوية ومتحركة إلى أبعد حد. فنحن نجد أنها تنتقل في لحظة واحدة من مرحلة الضراوة الأكثر دموية إلى مرحلة البطولة المطلقة. إن الجمهور يمكنه بسهولة أن يصبح جلاداً، ولكن يمكنه بنفس السهولة أن يصبح ضحية وشهيداً. فمن أعماقه سالت جداول الدم الغزيرة الضرورية لانتصار أي عقيدة أو إيمان جديد. ولا داعي للعودة إلى العصور البطولية لكي نعرف مدى إمكانيات الجماهير وقدراتها. فهي لا تبخل أبداً بحياتها عندما يحدث الهياج الشعبي. والدليل على ذلك أن جنراً في الجيش أصبح شعبياً فيما بعد واستطاع أن يسوق معه مائة ألف شخص مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل قضيته. (المقصود نابليون).

وإذن فلا شيء متعمد أو مدروس لدى الجماهير. فهي تستطيع أن تعيش كل أنواع العواطف وتنتقل من النقيض إلى النقيض بسرعة البرق وذلك تحت تأثير المحرض السائد في اللحظة التي تعيشها. إن

الفصل الثاني : عواطف الجماهير وأخلاقيتها

الجماهير تشبه الأوراق التي يلعب بها الإعصار ويبعثها في كل اتجاه قبل أن تتساقط على الأرض. إن دراسة بعض الجماهير الثورية تقدم لنا بعض الأمثلة عن تغير عواطفها وتنوعها وتقلبها.

وهذه الصفة الحركية المتغيرة التي تتميز بها الجماهير تجعل من الصعب حكمها، وخصوصاً عندما يسقط جزء من السلطات العامة في يدها. ولو أن ضرورات الحياة اليومية لا تشكل نوعاً من الميزان الناظم غير المرئي للأحداث لما استطاعت الأنظمة الديمقراطية أن تستمر. ولكن الجماهير التي ترغب في الوصول إلى الأشياء بنوع من السعار المجنون لا تثبت عليها لفترة طويلة. فهي عاجزة عن الإرادة الدائمة مثلما هي عاجزة عن التفكير الدائم والمستقر.

ولكن الجمهور ليس فقط انفعالياً ومتقلباً. وإنما هو أيضاً كالإنسان الهمجي لا يعبأ بأي عقبة تقف بين رغبته وبين تحقيق هذه الرغبة. نقول ذلك وخصوصاً أن عدده الكبير يشعره بامتلاك قوة لا تقاوم. فمهوم المستحيل لا معنى له بالنسبة للفرد المنخرط في الجمهور. فالإنسان المعزول يعرف جيداً أنه لا يستطيع أن يحرق قصراً أو ينهب مخزناً، وبالتالي فإن مجرد التفكير بذلك لا يخطر على باله. ولكنه ما إن ينخرط في الجمهور حتى يحس بالقوة الناتجة عن العدد والكثرة. وفي أي فرصة تسنح للقتل أو النهب فإنه ينصاع فوراً ولا يتردد في اقتراف ذلك. وكل عقبة مفاجئة تعترض طريقه يكسرها بجنون مسعور. وإذا كان الجسم البشري يسمح بتأبيد الهيجان فإنه يمكننا القول بأن الحالة الطبيعية للجمهور المغيظ هي الهيجان.

وفي نزق الجماهير وانفعالياتها وتقلبها وفي كل العواطف الشعبية التي سندرسها لاحقاً تتدخل دائماً الخصائص الأساسية للعرق. فهذه الخصائص تشكل الأرضية الثابتة التي تنبت عليها عواطفنا أو مشاعرنا. لا ريب في أن الجماهير - كل الجماهير - تتسم بالنزق والانفعالية، ولكن بدرجات متفاوتة ومتغيرة. فالفرق بين الجمهور اللاتيني والجمهور الانغلو ساكسوني مثلاً يثير الدهشة حقاً. والأحداث القريبة التي شهدناها

تاريخنا تلقي أضواء ساطعة على ما نقول. ففي عام (١٨٧٠) كان مجرد نشر برقية تتضمن شتيمة مزورة كافياً لإنفجار الغضب الذي أدى مباشرة إلى إشعال حرب رهيبة. وبعد بضع سنوات من ذلك التاريخ كان الإعلان برقاً عن حصول فشل لا أهمية له في لانغسون قد ولد انفجاراً جديداً أيضاً أدى إلى القلب الفوري للحكومة الفرنسية. ولكن تعرضت حملة إنكليزية أمام الخرطوم في نفس اللحظة لفشل آخر (أو لهزيمة أخرى) أكثر أهمية بكثير ولم ينتج عنها في إنكلترا إلا انزعاج خفيف، ولم يستقل أي عضو من أعضاء الحكومة. إن الجماهير أنثوية في كل مكان، ولكن أكثرها أنثوية هي الجماهير اللاتينية. والقائد الذي يعتمد عليها يمكنه أن يصعد عالياً وبسرعة شديدة ولكنه يحاذي الخطر باستمرار ويعرف يقيناً أنه سوف يسقط يوماً ما لا محالة.

٢ - سرعة تأثير الجماهير وسذاجتها وتصديقها لأي شيء

قلنا سابقاً بأن إحدى الخصائص العامة للجماهير هي سرعة تأثيرها بأي اقتراح، وبينما حجم عدوى وانتشار أي اقتراح يطلق في تجمع بشري معين. وهذا ما يفسر لنا القدرة على التوجيه السريع لعواطف الجمهور باتجاه محدد.

وأياً تكن حيادية الجمهور، فإنه يجد نفسه في غالب الأحيان في حالة من الترقب المهيأة لتلقي أي اقتراح. وأول اقتراح يظهر يفرض نفسه مباشرة عن طريق العدوى والانتشار لدى كل الأذهان، ثم يحدد الاتجاه الذي ينبغي اتباعه حالاً. ولدى الأشخاص المستشارين تميل الفكرة الثابتة إلى أن تتحول إلى فعل. وسواء أكان هذا الفعل هو حرق قصر أم القيام بعمل خيري جليل فإن الجمهور ينخرط من أجله مباشرة وبنفس السهولة. وكل شيء يعتمد على طبيعة المحرض، وليس على العلاقات الكائنة بين العمل المحرض عليه وبين حجم السبب الذي قد يعاكس تحقيقه كما هو عليه الحال لدى الفرد المعزول.

إن الجمهور يشرد باستمرار على حدود اللاشعور ويتلقى بطيئة خاطر كل الاقتراحات والأوامر. كما أنه مليء بالمشاعر الخاصة

الفصل الثاني : عواطف الجماهير وأخلاقيتها

بالكائنات غير القادرة على الاحتكام للعقل ومحروم من كل روح نقدية. وبالتالي فهو لا يستطيع إلا أن يبدي سذاجة وسرعة تصديق منقطعة النظير. والمستحيل غير موجود بالنسبة له، وينبغي التذكير بذلك من أجل أن نفهم كيف تخلق الأساطير والحكايات الأكثر غرابة وشذوذاً، وكيف تشيع وتنتشر بسهولة^(١).

إن خلق الأساطير التي تنتشر بمثل هذه السهولة في أوساط الجماهير ليس فقط ناتجاً عن سرعة كاملة في التصديق، وإنما عن تشويه هائل أو تضخيم هائل للأحداث في مخيلة الأفراد المحتشدين (أي الجمهور). فالحدث الأكثر بساطة يتحول إلى حدث آخر مشوه بمجرد أن يراه الجمهور. فالجمهور يفكر عن طريق الصور، والصور المتشكلة في ذهنه تثير بدورها سلسلة من الصور الأخرى بدون أي علاقة منطقية مع الأولى. ويمكننا أن نتصور بسهولة هذه الحالة عن طريق التفكير بالتتابع الغريب للأفكار الذي يقودنا إليه تذكر حدث معين. والعقل يبين لنا عدم تماسك مثل هذه الصور، ولكن الجمهور لا يرى ذلك. فالواقع إنه يخلط بين التضخيم الذي يلحقه بالحدث وبين الحدث ذاته. وبما أنه غير قادر على التمييز بين الذاتي والموضوعي فإنه يعتبر الصورة المشارية في خياله بمثابة الواقعية والحقيقية، هذا على الرغم من أنها ذات علاقة بعيدة جداً مع الواقعة المرئية.

ومن المتوقع أن تكون التضخيمات والتشويهات التي يلحقها جمهور ما بحدث ما يشهده شخصياً، كثيرة جداً وذات معان متعددة، وذلك لأن الأشخاص الذين يشكلون الجمهور ذوو طباع شديدة الاختلاف والتنوع. ولكن الواقع غير ذلك أبداً. ذلك أنه بسبب العدوى، فإن هذه التشويهات هي ذات طبيعة واحدة ومعنى واحد بالنسبة لكل أفراد الجماعة. فأول تشويه يلحظه أحدهم يشكل نواة التحريض المُعدي. نضرب على ذلك مثلاً القديس جورج. فقبل أن يظهر على جدران القدس بالنسبة لكل الصليبيين، كان قد ظهر فقط لأحد الحاضرين أولاً. وعن طريق التحريض والعدوى فإن المعجزة التي شاهدها هذا الشخص قد أصبحت مقبولة من قبل الجميع.

هذه هي الآلية التي تحرك تلك الهلوسات الجماعية المتكررة كثيراً جداً في التاريخ، والتي تبدو وكأنها تمتلك كل الخصائص الكلاسيكية للصحة والموثوقية لأنها تخص ظواهر ملاحظة من قبل آلاف الأشخاص.

والقيمة العقلية للأفراد الذين يشكلون الجمهور لا تنقض هذا المبدأ. فهي غير ذات أهمية. ذلك أنه بمجرد أن يجتمع هؤلاء على هيئة جمهور فإن الجاهل والعالم يصبحان عاجزين عن الملاحظة والنظر.

وقد تبدو هذه الفكرة تناقضية. ولكي نبرهن عليها ينبغي أن نستعيد عدداً كبيراً من الوقائع التاريخية. ولوقمنا بتأليف عدة كتب عن هذه النقطة لما كفاها.

ولكن بما أنني لا أريد أن أترك القارئ يتلقى هذه الأقوال دون برهان، فإني سأقدم له بعض الأمثلة التي يمكن تناولها بالمصادفة من بين كل الأمثلة العديدة التي يمكننا ملاحظتها.

والواقعة التالية التي سأذكرها تعتبر نمطية وعامة لأنها مختارة من بين تلك الهلوسات الجماعية التي تحل بالجمهور الذي يتواجد فيه أفراد من كل نوع سواء أكانوا جهلة أم متعلمين. وقد ذكر عرضاً من قبل ضابط البحرية جوليان فيليكس في كتابه عن تيارات الماء البحرية.

كانت الفرقاطة الملقبة بالدجاجة الجميلة تنتشر في البحر من أجل العثور على السفينة الحربية الملقبة بالمهد التي كانت عاصفة عنيفة قد فصلتها عنها. وكان ذلك في عز النهار تحت السماء ذات الشمس الساطعة. وفجأة رأى مراقب السفينة زورقاً مضطرباً خائفاً. وعندئذ وجه الفريق أنظاره نحو النقطة المرصودة، أي نحو الزورق. ورأى الجميع من ضباط وبحارة طوافة محملة بالرجال المجرورين بواسطة زوارق، وتلوح عليها علائم الاستغاثة. وعندئذ جهّز الأميرال ديسفوسي قارباً محملاً بالأسلحة وأرسله من أجل إنقاذ هؤلاء الأشخاص المهددين بالغرق. وعندما اقترب الضباط والبحارة منهم تخيلوا رؤية «مجموعة

الفصل الثاني : عواطف الجماهير وأخلاقيتها

من الرجال الذين يتخبطون في الماء ويمدون أيديهم للإنقاذ. وتخيلوا سماع أصوات عديدة تصرخ منادية بالإستغاثة». ولكن عندما وصلوا إليهم وإلى الطوافة المزعومة فإنهم لم يجدوا إلا مجموعة من أغصان الأشجار المغطاة بأوراق منتزعة من الشاطئء المجاور! وأمام هذه الحقيقة الواضحة كعين الشمس تبخرت الهلوسات وانتهت.

إن هذا المثال يعري لنا بوضوح آلية الهلوسة الجماعية كما كنا قد شرحناها سابقاً. فمن جهة نجد الجمهور في حالة الانتظار والترقب، ومن جهة أخرى نجد الاقتراح التحريضي الذي أثاره مراقب مرصد السفينة وأشعل بذلك الهلوسة بخصوص الزورق المضطرب والضائع في البحر. وهذا الاقتراح التحريضي انتشر إلى الآخرين بواسطة العدوى وقبلوه جميعاً من ضباط أو بحارة عاديين.

وليس الجمهور بحاجة لأن يكون كثير العدد لكي تُدمر إمكانيته على الرؤية بشكل صحيح، ولكي تحل الهلوسات محل الوقائع الحقيقية التي لا علاقة لها بها. فيكفي أن يجتمع بعض الأفراد لكي يشكلوا جمهوراً، وحتى لو كانوا علماء متميزين، فإنهم يتحلون بكل صفات الجماهير فيما يخص الموضوعات الخارجة عن دائرة اختصاصهم. ذلك أن ملكة الملاحظة والروح النقدية التي يمتلكها كل واحد منهم تضمحل وتتبخر.

وقد قدم لنا عالم النفس الأريب السيد «دافي» مثلاً غريباً على ذلك. وأوردته حوليات العلوم النفسية على صفحاتها. وهو يستحق الذكر هنا. فقد دعا السيد دافي مجموعة من المراقبين الكبار لحضور اجتماع خاص. وكان من بينهم أحد علماء إنكلترا الكبار السيد والاس. وقد أجرى أمامهم عملية تحضير الأرواح بعد أن تركهم يتفحصون كل المواد التي استخدمها ويتركون عليها بصماتهم أو دمغاتهم. وقد تمثلت هذه العملية بتجسيم الأرواح والكتابة على ألواح اردواز، إلخ... وبعد أن حصل من مشاهديه المشهورين على تقارير مكتوبة تؤكد على أن الظواهر التي جرت أمام أعينهم قد حصلت بوسائل

خارقة للطبيعة، فإنه كشف لهم أنهم وقعوا ضحية حيلة أو خدعة بسيطة جداً. وقد كتب ناقل هذه القصة يقول: «الشيء المدهش أكثر في دراسة السيد دافي ليس إعجاب الجميع بأنفسهم، وإنما الضعف الهائل للتقارير التي كتبها مشاهدون غير مجربين بهذه الأشياء. وبالتالي فإنه يمكن للشهود أن يرووا حكايات عديدة وإيجابية عما شاهدوه، ولكنها خاطئة. ومفادها أنه إذا ما قبلنا بصحة ما تقوله، فإنه لا يمكن تفسير الظواهر التي يذكرونها بأنها خدعة. والمناهج التي اخترعها السيد دافي كانت بسيطة إلى درجة أننا أصبنا بالدهشة لأنه استخدمها. ولكنه كان يمتلك سلطة كبيرة على الجماهير إلى درجة أنه كان قادراً على إقناعها برؤية ما لا تراه». وهذه هي دائماً سلطة المنوم مغناطيسياً على المنوم. ولكن عندما نرى هذه السلطة تمارس على شخصيات كبيرة يصعب خداعها فإنه يمكننا أن نتصور مدى السهولة التي تسقط فيها الجماهير العادية في الأوهام.

والأمثلة الشبيهة بذلك عديدة جداً. فقبل بضع سنوات تحدثت الصحف عن طفلتين غرقتا في نهر السين وتم سحبهما. وقد تعرف عليهما بشكل قاطع دزينة من الشهود. وأمام مثل هذه التأكيدات القاطعة لم يبق هناك أي شك لدى قاضي التحقيق. وسمح عندئذٍ بكتابة وثيقة الوفاة. ولكن في اللحظة التي تهيأوا فيها للدفن شاءت الصدفة أن تكشف أن الضحيتين المفترضتين كانتا على قيد الحياة ولا تشبهان إلا قليلاً جداً الفتاتين الغريقتين. وهكذا نجد كما في الأمثلة العديدة السابقة أن شهادة الشاهد الأول الواقع ضحية الوهم تعدي بقية الشهود.

وفي الحالات المشابهة نجد أن نقطة الإنطلاق للاقتراح التحريضي تكمن دائماً في الوهم المتولد لدى فرد ما عن طريق التذكر المبهم والغامض قليلاً أو كثيراً، ثم بعدئذٍ عن طريق العدوى المتمثلة بالتأكيد على هذا الوهم الأولي. وإذا كان المراقب الأول للظاهرة متأثراً جداً، فإنه يكفي أن تتصف الجثة التي يعتقد بأنه قد تعرف عليها ببعض العلامات الخصوصية كدُب مثلاً أو أي شيء آخر قادر على أن يثير لديه صورة شخص آخر. وعندئذٍ تصبح هذه الفكرة المشاراة نواة لنوع من

الفصل الثاني : عواطف الجماهير وأخلاقيتها

التبلور والتضخم الذي يغزو ساحة العقل ويشل كل فعالية نقدية . وما يراه المراقب عندئذٍ لا يعود الشيء ذاته ، وإنما الصورة المشارية في مخيلته عنه . وهكذا يمكن تفسير التعرف الخاطيء على جثث الأطفال من قبل أمهم كما هو عليه الحال في القصة التالية . وفي هذه القصة القديمة نجد كلا النوعين من التحريض اللذين تحدثت عن آليتهما آنفاً :

«لقد تم التعرف على الطفل من قبل طفل آخر، وكان مخطئاً . وعندئذٍ ابتدأت سلسلة من التعرف غير الدقيق .

ثم رأينا شيئاً خارقاً للعادة . ففي صبيحة اليوم الذي تعرف عليه تلميذ مدرسة صرخت امرأة قائلة : «آه يا إلهي ، إنه طفلي !» .

فأدخلوها حتى أصبحت على مقربة من الجثة ، وتفحصتها ولاحظت وجود ندب في الجبين . وقالت : «إنه ولدي المسكين بالفعل . لقد ضاع منذ شهر يوليو الماضي . لقد سرقوه مني وقتلوه !» .

كانت المرأة تشتغل بواباً في شارع «فور» وكان اسمها شافاندرية . ثم أحضروا أخ زوجها الذي قال بدون أي تردد : «ها هو فيليب الصغير» . وقد تعرف العديد من سكان الشارع على فيليب شافاندرية في الطفل الميت ، هذا دون أن نعد أستاذه في المدرسة الذي تعرف عليه من خلال الميدالية في عنقه .

ولكن ! ولكن على الرغم من كل ذلك فإن الجيران وأخ الزوج والأستاذ كانوا جميعاً مخطئين . فبعد ستة أسابيع من ذلك التاريخ استطاع المحققون أن يتأكدوا من هوية الطفل . وكان طفلاً من بوردو ، قتل في بوردو ، ونقل عن طريق البريد إلى باريس»^(٢) .

لنلاحظ أولاً بأن كل شهادات التعرف هذه قد قدمت من قبل النساء والأطفال ، أي من قبل الكائنات الأكثر عرضة للتأثر والتأثير الذاتي . وهي تدل على هشاشة مثل هذه الشهادات أمام العدالة . وما كان ينبغي أبداً إثبات شهادات الأطفال بشكل خاص . صحيح أن القضاة

يكررون تلك الكليشيه التي تقول بأن الأطفال لا يكذبون في مثل تلك السن. ولو كانوا يمتلكون ثقافة متماسكة في علم النفس لعرفوا أن الأطفال يكذبون في مثل هذه السن بشكل دائم تقريباً. صحيح إنها كذبة بريئة ولكنها كذبة على أي حال. ويفضل أن ندين متهماً ما عن طريق لعبة الوجه أو القفا على أن ندينه من خلال شهادة طفل.

ولكي نعود إلى الملاحظات التي تتشكل لدى الجماهير نقول بأن الملاحظات الجماعية هي الأكثر بعداً عن الصواب. وهي تمثل في الأغلب الأعم مجرد وهم تشكل لدى فرد واحد ثم انتقل عن طريق العدوى إلى الآخرين.

وهناك وقائع لا حصر لها ولا عد تدعونا إلى عدم الثقة بشهادات الجماهير. فمثلاً لقد شهد آلاف البشر تلك الهجمة الشهيرة للخيالة في معركة سيدان، ومع ذلك فمن المستحيل أن نعرف من الذي قادها بسبب الشهادات البصرية الأكثر تناقضاً. وقد أثبت الجنرال الإنكليزي ولسلي في كتاب حديث أنه قد ارتكبت أبشع الأخطاء بخصوص الوقائع الشهيرة لمعركة واترلو، هذا على الرغم من تأكيد مئات الشهود على هذه الوقائع بالذات^(٣).

وكل هذه الأمثلة تبين لنا، ولأكرر ذلك مرة أخرى، قيمة شهادات الجماهير أو بالأحرى عدم قيمتها. نحن نعلم أن كتب المنطق تعتبر إجماع شهود عديدين على شيء ما بصفته إحدى المقولات البرهانية الأكثر إقناعاً على صحة هذا الشيء أو تلك الواقعة. ولكن ما نعرفه عن نفسية الجماهير يثبت لنا مدى حجم أوهامهم وأخطائهم بخصوص هذه النقطة. فالأحداث الأكثر شبهة هي تلك التي لاحظها أكبر عدد من الأشخاص. وإذا قلنا بأن حادثة ما قد لوحظت في نفس الوقت من قبل آلاف الشهود، فإن ذلك يعني أن الحادثة الحقيقية هي بشكل عام مختلفة جداً عن الرواية المنقولة عنها.

ينتج عن كل ما قلناه سابقاً بأنه ينبغي أن نعتبر كتب التاريخ بمثابة كتب الخيال الصرف. فهي عبارة عن حكايات وهمية عن وقائع

لوحظت بشكل رديء، كما إنها مصحوبة بتأويلات شكلت فيما بعد. ولو أن الماضي لم يورثنا كتبه الأدبية والفنية والتذكارية لما عرفنا شيئاً عن الواقع. فهل نعرف كلمة واحدة صحيحة عن حياة الرجال العظام الذين لعبوا دوراً كبيراً في تاريخ البشرية كهرقل وبوذا والمسيح ومحمد؟ في الغالب الأعم لا. وفي نهاية المطاف فإن سيرة حياتهم الحقيقية لا تهمنا كثيراً. فالأشخاص الذين أثروا على الجماهير كانوا أبطالاً أسطوريين وليسوا أبطالاً حقيقيين.

ولكن للأسف فإنه ليس للأساطير أي تماسك ذاتي. فخيال الجماهير يحولها ويعدلها باستمرار بحسب الأزمان، وخصوصاً بحسب الأعراق والأجناس. فإله التوراة المرعب والدموي (ياهو) مختلف جداً عن إله المحبة الذي كانت تؤمن به القديسة تيريزا، وبوذا المعبود في الصين لا علاقة له ببوذا المعبود في الهند.

وليس من الضروري أن تمضي القرون العديدة على أبطال التاريخ لكي تتشكل أسطورتهم ويتم تحويلها بواسطة خيال الجماهير. فالتحويل قد يتم خلال بضع سنوات. فقد شهدنا بأم أعيننا تحول أسطورة أحد كبار أبطال التاريخ مرات عديدة خلال الخمسين سنة الماضية أو أقل. أقصد بذلك نابليون بونابرت. فقد أصبح نوعاً من الشخصيات المثالية والمحبة للإنسانية والليبرالية في ظل حكم سلالة البوربون. لقد أصبح صديقاً للضعفاء والفقراء الذين احتفظوا بذكراه تحت أكواخهم لفترة طويلة بحسب أقوال الشعراء. ولكن بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ تحولت صورة هذا البطل الطيب القلب والرحيم إلى نوع من المستبد الدموي المبتز للسلطة والحرية والذي ضحى بثلاثة ملايين رجل من أجل طموحاته في السلطة والمجد. ونلاحظ الآن أن أسطورته قد أخذت تتحول أيضاً من جديد. وبعد أن تمر عشرات القرون على ذكراه، فإن علماء المستقبل سوف يقفون محتارين أمام كل هذه الروايات المتناقضة عنه وربما شكوا في وجوده أصلاً، كما نشك نحن أحياناً بوجود بوذا. ولا يعودون يرون فيه إلا أسطورة شمسية أو نوعاً من التكبير لأسطورة هرقل. وسوف يتعزون بسهولة عن هذه الشكوك لأنهم

سيكونون عندئذٍ أكثر درايةً بعلم نفس الجماهير، وبالتالي فيعلمون أنه لا يمكن للتاريخ أن يخلد إلا الأساطير.

٣ - عواطف الجماهير: تضخيمها وتبسيطها

إن العواطف التي تعبر عنها الجماهير سواء أكانت طيبة أم شريرة تتميز بطابع مزدوج: بمعنى أنها مضخمة جداً ومبسطة جداً. وفيما يخص هذه النقطة وغيرها من النقاط نجد أن الفرد المنخرط في الجمهور يقترب كثيراً من الكائنات البدائية. فهو غير قادر على رؤية الفروقات الدقيقة بين الأشياء، وبالتالي فهو ينظر للأمور ككتلة واحدة ولا يعرف التدرجات الإنتقالية. وفيما يخص الجمهور نلاحظ أن المبالغة في العاطفة مدعّمة من قبل الحقيقة التالية: بما أن هذه العاطفة تنتشر بسرعة شديدة عن طريق التحريض والعدوى، فإن الاستحسان والقبول الذي تلقاه يزيد من قوتها إلى حد كبير.

إن بساطة عواطف الجماهير وتضخيمها يحميها من عذاب الشكوك وعدم اليقين. فالجماهير، كالنساء، تذهب مباشرة نحو التطرف. فما إن يبدّر خاطر ما حتى يتحول إلى يقين لا يقبل الشك. والشعور البسيط بالنفور من شيء أو عدم استحسانه يظل في حجمه الطبيعي لدى الشخص العادي، ولكنه يتحول مباشرة إلى حقد هائج لدى الفرد المنخرط في جمهور.

وعنف عواطف الجماهير يزداد مبالغةً وتضخيماً لدى الجماهير غير المتجانسة بسبب انعدام المسؤولية. وتصبح الثقة بالنفس والاطمئنان بعدم المعاقبة أقوى كلما كان عدد الجمهور أكبر لأن ذلك يشعره بزيادة سلطته. وهذا ما يجعل الجماهير المحتشدة قادرة على القيام بأعمال يعجز عنها الفرد الواحد. ففي الجمهور يتحرر الأبله والجاهل والحسود من الإحساس من دونيتهم وعدم كفاءتهم وعجزهم، ويصبحون مجيئين بقوة عنيفة وعابرة، ولكن هائلة.

للأسف فإن حس المبالغة والتضخيم لدى الجماهير يتركز غالباً

الفصل الثاني : عواطف الجماهير وأخلاقيتها

على العواطف الشريرة التي تمثل بقايا وراثية عن الإنسان البدائي . ومن المعروف أن الخوف من العقوبة يجبر الإنسان الفرد والمسؤول على قمع هذه العواطف . وهكذا يمكننا تفسير السبب في استسلام الجماهير لأبشع أنواع الممارسات وأكثرها تطرفاً .

إن الجماهير إذ تحرّض بذكاء تصبح قادرة على البطولة والتفاني من أجل قضية نبيلة . وهي أكثر قدرة على ذلك بكثير من الإنسان المعزول . وسوف تسنح لنا الفرصة قريباً لكي نتحدث عن هذه النقطة عندما ندرس أخلاقية الجماهير .

وبما أنه لا يمكن تحريك الجماهير والتأثير عليها إلا بواسطة العواطف المتطرفة ، فإن الخطيب الذي يريد جذبها ينبغي أن يستخدم الشعارات العنيفة . ينبغي عليه أن يبالغ في كلامه ويؤكد بشكل جازم ويكرر دون أن يحاول إثبات أي شيء عن طريق المحاجة العقلانية . وهذه هي الطريقة التي يستخدمها الخطباء في الملتقيات الشعبية .

ويطالب الجمهور أيضاً بنفس المبالغة والتضخيم في عواطف أبطاله أو مشاعرهم . فصفاتهم وفضائلهم الظاهرية ينبغي أن تضخم دائماً أكثر . ففي المسرح مثلاً يطلب الجمهور من بطل المسرحية الكثير من الفضائل والشجاعة والأخلاقية التي لا يمكن أن تنوجد في الحياة .

لقد أثّرنا بحق المنظور الخصوصي للمسرح . فهناك منظور له بدون شك ، ولكن قواعده مخالفة غالباً للحس الصائب والمنطق ولا علاقة لها بهما . فمن التحدث إلى الجماهير واثقانه يعود إلى مستوى أدنى ، ولكنه يتطلب كفاءات خاصة جداً . وأحياناً نستغرب نجاح بعض المسرحيات ولا نعرف كيف نفسر سبب هذا النجاح . فمديرو المسارح أنفسهم يبدون عموماً غير واثقين من نجاحها ، وذلك لأنه ينبغي عليهم أن يتحولوا إلى جمهور لكي يستطيعوا الحكم عليها^(٤) .

ولو كنا نمتلك الوقت الكافي للدخول في التفاصيل لكان من السهل علينا أن نبين أيضاً التأثير المهيمن للعرق . فالمسرحية التي يتحمس لها الجمهور في بلد ما لا تلقى أحياناً أي نجاح في بلد آخر أو

أنها تلقى نوعاً من الإحترام المحدود لأنها لا تجيش الحوافز القادرة على إثارة حماسة جمهورها الجديد.

لا داعي للقول بأن مبالغة الجماهير تخصص العواطف وليس العقل بأي شكل من الأشكال. فبمجرد أن ينخرط الفرد في الجمهور، فإن مستواه الفكري ينخفض إلى حد بعيد كما برهنت سابقاً. وقد توصل السيد تارد إلى نفس الملاحظة عندما ركز بحوثه على دراسة جرائم الجماهير. وإذن فإنه يمكن للجماهير على المستوى العاطفي فقط أن ترتفع عالياً جداً أو أن تنحط إلى أسفل السافلين.

٤ - تعصب الجماهير واستبداديتها ونزعتها المحافظة

وبما أن الجماهير لا تعرف إلا العواطف البسيطة والمتطرفة، فإن الآراء والأفكار والعقائد التي يحرضونها عليها تقبل من قبلها أو ترفض دفعة واحدة. فأما أن تعتبرها كحقائق مطلقة أو كأخطاء مطلقة. وهذه هي دائماً حالة العقائد المتشكلة عن طريق التحريض بدلاً من أن تكون متولدة عن طريق التعقل والمحااجة العقلانية. وكلنا يعلم مدى تعصب العقائد الدينية ومدى الهيمنة الاستبدادية التي تمارسها على النفوس.

وبما أن الجمهور لا يشك لحظة واحدة فيما يعتقد به الحقيقة أو الخطأ، وبما أنه واع كل الوعي بحجم قوته فإن استبداده يبدو بحجم تعصبه. وإذا كان الفرد يقبل الاعتراض والمناقشة، فإن الجمهور لا يحتملها أبداً. وفي الاجتماعات العامة نلاحظ أن أقل اعتراض يصدر عن خطيب ما سرعان ما يقابل بالصياح والغضب والشتائم العنيفة، ثم بالضرب والطرد إذا ما أصر هذا الخطيب على موقفه. ولولا وجود قوات الأمن لذبحوه في غالب الأحيان.

إن نزعتي الاستبدادية والتعصب عامتان لدى كل فئات الجماهير، ولكنهما تتجسدان بأنواع ودرجات متفاوتة جداً. وهنا أيضاً نلتقي مرة أخرى بالمفهوم الأساسي للعرق وتأثيره. فهو الذي يهيمن على عواطف البشر وأفكارهم. ونحن نلاحظ أن الاستبداد والتعصب

الفصل الثاني : عواطف الجماهير وأخلاقيتها

منتشران بشكل خاص لدى الجماهير ذات العرق اللاتيني . فهما قويان ومتأصلان فيه إلى حد أنهما يدمران لديه عاطفة الاستقلالية الفردية المتطورة جداً لدى أبناء عرق الأنغلوساكسون . أما الجماهير اللاتينية فهي ليست حساسة إلا للاستقلالية الجماعية لطائفها . وسمة هذه الاستقلالية هي الحاجة إلى إخضاع كل المنشقين لعقائدهم عن طريق القسر والعنف . ونلاحظ لدى الشعوب اللاتينية أن اليعاقبة في كل العصور منذ عصر محاكم التفتيش لم يستطيعوا الارتفاع بأنفسهم إلى مستوى مفهوم آخر للحرية .

إن الإستبداد والتعصب يشكلان بالنسبة للجماهير عواطف واضحة جداً ، وهي تحتملها بنفس السهولة التي تمارسها . فهي تحترم القوة ولا تميل إلى احترام الطيبة التي تعتبرها شكلاً من أشكال الضعف . وما كانت عواطفها متجهة أبداً نحو الزعماء الرحيمين والطيبين القلب ، وإنما نحو المستبدين الذين سيطروا عليها بقوة وبأس . وهي لا تقيم تلك النصب التذكارية العالية إلا لهم . وإذا كانت تدعس بأقدامها الديكتاتور المخلوع فذلك لأنه قد فقد قوته ودخل بالتالي في خانة الضعفاء المحقرين وغير المهابين . إن نمط البطل العزيز على قلب الجماهير هو ذلك الذي يتخذ هيئة القيصر . فخيلاؤه تجذبها ، وهيئته تفرض نفسها عليها ، وسيفه يرهبها .

وبما أن الجماهير مستعدة دائماً للتمرد على السلطة الضعيفة فإنها لا تحني رأسها بخنوع إلا للسلطة القوية . وإذا كانت هيبة السلطة متناوبة أو متقطعة فإن الجماهير تعود إلى طباعها المتطرفة وتنتقل من الفوضى إلى العبودية ، ومن العبودية إلى الفوضى .

إن الاعتقاد بهيمنة الغرائز الثورية على الجماهير يعني الجهل بنفسيتها . فعنفها وحده هو الذي يوهنا بخصوص هذه النقطة . فانفجارات الإنتفاضة والتدمير التي تحصل من حين لآخر ليست إلا ظواهر عابرة ومؤقتة . فالجماهير محكومة كثيراً باللاوعي ، وبالتالي فهي خاضعة أكثر مما يجب لتأثير العوامل الوراثية العتيقة التي تجعلها تبدو

محافظة جداً جداً. فإذا ما تركت لنفسها فإنها تملّ من فوضاها وتتجه بالغريزة نحو العبودية. فأكثر أنواع اليعاقبة اعتداداً بأنفسهم وافتخاراً راحوا يصفقون لنابليون بشدة عندما راح يلغي كل الحريات ويحكم بيد من حديد.

ومن الصعب فهم تاريخ الثورات الشعبية إذا ما جهلنا غرائز الجماهير المحافظة جداً. صحيح أنها تريد تغيير أسماء مؤسساتها وتقوم أحياناً بثورات عنيفة من أجل تحقيق هذه المتغيرات. ولكن عمق هذه المؤسسات ومضمونها يبقى معبراً عن الحاجيات الوراثة للعرق وبالتالي فهي تعود إليه دائماً في نهاية المطاف. فحركيتها المستمرة لا تخص إلا الأشياء السطحية. في الواقع إنها تمتلك غرائز محافظة نهائية. وكجميع الناس البدائيين فإنها تشعر باحترام وثني تجاه التقاليد وبهلع لا واع تجاه البدع المستجدة القادرة على تعديل الظروف الحقيقية لوجودها. ولو أن القوة الحالية للأنظمة الديمقراطية قد وجدت في الفترة التي اخترعت فيها المِهَن الميكانيكية والبخار وسكك الحديد لكان إنجاز مثل هذه المخترعات مستحيلاً أو فقط بعد أن دفع ثمنه على هيئة الثورات المتتابعة. ولحسن حظ تقدّم الحضارة فإن هيمنة الجماهير على الحياة العامة لم تولد إلا بعد أن كانت الإكتشافات الكبرى للعلم والصناعة قد تحققت وانتهت.

٥ - أخلاقية الجماهير

إذا كنا نربط بكلمة الأخلاقية معنى الاحترام الحقيقي لبعض الأعراف والتقاليد الاجتماعية ثم القمع الدائم للنزوات الأنانية فإنه لمن الواضح أن الجماهير صاحبة نزوات وغرائز شديدة الهيجان وبالتالي فغير مهيأة لاحترام النزعة الأخلاقية. ولكن إذا كنا نعني بالأخلاقية بعض الصفات كالتفاني والإخلاص والنزاهة والتضحية بالذات وحسن العدالة فإنه يمكننا أن نقول على العكس بأن الجماهير قادرة على أرفع أنواع الأخلاقية. فعلماء النفس النادرون الذين درسوا الجماهير لم يدرسوها إلا من وجهة نظر أفعالها الجرائمية، ولما رأوا أن هذه الأفعال عديدة

الفصل الثاني : عواطف الجماهير وأخلاقيتها

ومتكررة فإنهم استنتجوا بأن الجماهير ذات أخلاقية منحطة جداً.

لا ريب في أن الجماهير تبرهن على انحطاط أخلاقيتها غالباً. ولكن لماذا؟ لسبب بسيط هو أن غرائز التوحش الهدامة هي عبارة عن بقايا العصور البدائية النائمة في أعماق كل منا، وسوف يكون من الخطر إرضائها أو إشباعها بالنسبة للفرد المعزول، هذا في حين أن انخراطه في جمهور ما غير مسؤول يجعله قادراً على اتباعها لأنه يعرف بعدم تعرضه للمعاقبة. ولما كنا غير قادرين عادة على ممارسة هذه الغرائز الهدامة على أشباهنا فإننا نحرص على ممارستها على الحيوانات. والهوس بالصيد كضراوة الجماهير مشتقان من مصدر واحد. فالجمهور الذي يمزق إرباً إرباً ويبطء ضحية لا تستطيع الدفاع عن نفسها يبرهن على قسوة جبانة جداً. ولكنه بالنسبة للفيلسوف يشبه تماماً جماعة الصيادين المجتمعين بالذئبات لكي يشاهدوا بنوع من المتعة كيف تمزق كلابهم غزلاً بئساً كانوا قد اصطادوه.

وإذا كان الجمهور قادراً على القتل والحرق ومختلف أنواع الجرائم، فإنه قادر أيضاً على أفعال التضحية والنزاهة الأكثر ارتفاعاً بكثير من تلك التي يقدر عليها الفرد الواحد. فالتأثير يتم بشكل خاص على الفرد المنخرط في الجمهور وذلك عن طريق التركيز على عواطف المجد والشرف والدين والوطن. فالتاريخ مليء بالأمثلة المشابهة للحروب الصليبية أو الجنود المتطوعين عام ١٧٩٣ للدفاع عن الثورة الفرنسية. ووحدها الجماهير الجماعية تكون قادرة على إنجاز الأعمال الكبرى والتفاني العظيم والنزاهة من أجل القضايا الكبرى. فكم هو عدد الجماهير التي ضحت بأنفسها بنوع من البطولة من أجل عقائد وأفكار لا تفهمها إلا بالكاد! فالجماهير التي تضرب عن العمل تفعل ذلك من أجل إطاعة الأوامر أكثر مما تفعله من أجل الحصول على زيادة الرواتب. ونادراً ما تكون المصلحة الشخصية محركاً قوياً لدى الجماهير، هذا في حين أنها تشكل المحرك الكلي تقريباً لدوافع الفرد الواحد. فمن المؤكد أنها ليست هي التي تجيش الجماهير في الحروب العديدة غير المفهومة بالنسبة لعقلها، وحيث تترك نفسها لعبة للمجازر

السهلة وتقع في الفخ كما تقع القبرات المخدوعة من قبل مرآة الصياد. وأرذل أنواع الأوغاد يمكنهم أن يتحلوا بمبادئ أخلاقية صارمة بمجرد أن ينخرطوا في الجمهور. ويلاحظ عالم الاجتماع الفرنسي «تين» أن الذين قاموا بمجازر سبتمبر قد جاؤوا بمحافظ النقود والحلى والجواهر التي وجدوها في جيوب ضحاياهم وسلموها للجان الثورية. وكان من السهل عليهم أن يسرقوها دون أن يعرف بذلك أحد. وكذلك الأمر فيما يخص الجمهور الهادر والزاهر والبائس الذي هجم على قصر التويلري أثناء ثورة ١٨٤٨ فإنه لم يسرق أي تحفة ثمينة من تحفه. وكانت واحدة منها فقط كافية لإطعامه أياماً عديدة.

صحيح إن جعل الفرد أخلاقياً من خلال الجمهور لا يشكل قاعدة عامة أو مستمرة. ولكننا نلاحظ أنها تتكرر غالباً، وحتى في ظروف أقل ضخامة وخطورة من تلك التي ذكرتها. ففي المسرح نلاحظ كما قلت سابقاً أن الجمهور يطلب من بطل المسرحية التحلي بفضائل مبالغ فيها. وحتى الحضور المشكّلون من عناصر أدنى مستوى يبدوون محتشمين في بعض الأحيان. فمحترف الملذات المنغمس فيها والقواد والأزعر المتهكم يتمتمون غالباً بصوت هامس أمام مشهد خطر أو كلام خفيف غير مزعج على الإطلاق بالقياس إلى عاداتهم المعهودة في الحديث والنقاش. (عادات الصخب والعنف).

وإذن فإن الجماهير التي تستسلم غالباً للغرائز المنحطة تقدم أحياناً أيضاً عدة أمثلة على أعمال أخلاقية عالية. وإذا كانت قيم النزاهة والإنقياد والتفاني المطلق في سبيل مثال أعلى وهمي أو واقعي تمثل فضائل أخلاقية، فإنه يمكننا القول بأن الجماهير تمتلك أحياناً هذه الفضائل بدرجة عالية لم يتوصل إليها أعظم الفلاسفة والحكماء إلا نادراً، وهي تمارسها بلا وعي بدون شك. ولكن لا يهم، فلو أن الجماهير قد حكمت عقلها غالباً واستشارت مصالحها الآنية، لربما انعدمت كل حضارة على سطح كوكبنا الأرضي وما تطورت، ولما كان للبشرية من تاريخ.

الفصل الثالث

أفكار، حاجات عقلية، مخيلة الجماهير

١ - أفكار الجماهير

كنا قد درسنا في كتاب سابق دور الأفكار بخصوص تطور الشعوب، وبرهنا على أن كل حضارة مشتقة من عدد صغير من الأفكار الأساسية التي نادراً ما تجددت أو تغيرت. وقد شرحنا كيف تنغرس هذه الأفكار في روح الجماهير، وهول الصعوبات التي تصطدم بها قبل أن تنفذ إليها. كما وبيننا أيضاً أن الإضطرابات التاريخية الكبرى تنتج غالباً عن المتغيرات التي تصيب هذه الأفكار الأساسية.

ولما كنت قد عالجت هذا الموضوع بما فيه الكفاية، فإني لن أعود إليه. وسوف أكتفي بقول بعض الكلمات عن هذه الأفكار السهلة الموجودة في متناول أيدي الجماهير، وتحت أي صيغة أو هيئة تتصورها الجماهير.

ويمكننا أن نقسم هذه الأفكار إلى فئتين. في الفئة الأولى نضع الأفكار الطارئة والآننية العابرة التي تتشكل تحت تأثير اللحظة. نضرب على ذلك مثلاً الانبهار بفرد ما أو بعقيدة ما. ونضع في الفئة الثانية الأفكار الأساسية التي تقدم لها البيئة والوراثة والرأي العام استقراراً كبيراً. نذكر من بينها الأفكار الدينية سابقاً، والأفكار الديمقراطية والاجتماعية اليوم. (المقصود بالاجتماعية هنا الاشتراكية أو العدالة الاجتماعية).

ويمكن تشبيه الأفكار الأساسية بواسطة مياه نهر يجري ببطء،

وأما الأفكار العابرة فتشبه الأمواج الصغيرة المتغيرة دائماً والمتحركة على السطح. وعلى الرغم من أنها غير ذات أهمية حقيقية فإنها أكثر ظهوراً ووضوحاً من مسار النهر نفسه.

وفي أيامنا هذه نلاحظ أن الأفكار الكبرى الأساسية التي عاش عليها آباؤنا قد أصبحت مهتزة أكثر فأكثر. وبالتالي فإن المؤسسات التي تركز عليها قد أصبحت مزعزعة إلى حد كبير. والآن تتشكل الكثير من الأفكار الصغيرة المؤقتة التي كنت قد تحدثت عنها للتو. ولكن يبدو أن القليل منها مؤهل لأن يمارس تأثيراً مهماً أو دائماً.

وأيضاً تكن الأفكار التي تُوحى للجماهير أو تحرّض عليها، فإنه لا يمكنها أن تصبح مهيمنة إلا بشرط أن تتخذ هيئة بسيطة جداً وأن تتجسد في نفوسها على هيئة صور. وليس هناك أي رابط منطقي من النوع القياسي أو المتوالي يربط هذه الأفكار - الصور فيما بينها. فيمكنها بسهولة أن تحل الواحدة محل الأخرى كزجاجات المصباح السحري التي يسحبها العامل الميكانيكي من العلبة حيث تكون مصفوفة فوق بعضها البعض. وهكذا يمكننا أن نجد الأفكار الأكثر تناقضاً تتابع على الجمهور. وبحسب اللحظات وصدفها فإن الجمهور يتعرض لتأثير إحدى الأفكار المتنوعة والمختزنة في عقله، وبالتالي فهو يرتكب الأعمال الأكثر تناقضاً واختلافاً. فانهدام الروح النقدية لديه لا يسمح له برؤية التناقضات.

وهذه الظاهرة ليست حكراً على الجماهير، وإنما نحن نجدها لدى الكثير من الأفراد الوحيدين. وليس فقط لدى الكائنات البدائية، وإنما لدى كل أولئك الذين يقتربون في إحدى خصائصهم من البدائيين (كالمتعصبين لإيمان ديني كثيف مثلاً). فمثلاً لقد لاحظت الظاهرة لدى الهنود المتعلمين الذين تربوا في جامعاتنا الأوروبية ونالوا منها كل الشهادات الجامعية. فعلى المخزون الثابت لأفكارهم الدينية والاجتماعية الموروثة تركبت دون أن تغيرها في شيء طبقة من الأفكار الغربية لا علاقة لها بالأولى. وبحسب اللحظة وصدفها فإن الطبقة

الأولى هي التي تظهر أو الثانية. وكل واحدة منهما مصحوبة بموكب خطاباتها الخصوصية المعروفة. وهكذا نجد أن نفس الأفراد يبرزون بتناقضاتهم الأكثر وضوحاً و سطوعاً. وهذه التناقضات ظاهرية أكثر مما هي حقيقية، وذلك لأن الأفكار الوراثية هي وحدها القوية والمهيمنة لدى الفرد الواحد، وبالتالي فهي وحدها القادرة على أن تصبح حوافز مؤثرة فعلاً على سلوكه ومحركة له. وفي حالة واحدة فقط يجد المرء نفسه عن طريق التقاطعات متوزعاً بين دوافع وراثية مختلفة، وبالتالي فإن أعماله يمكن أن تكون متناقضة تماماً من لحظة إلى أخرى. ولا داعي للإلحاح هنا على هذه الظواهر، على الرغم من أن أهميتها النفسية حاسمة وأساسية. وأنا أرى أنه يلزمنا عشر سنوات على الأقل من الرحلات في البلدان المختلفة وجمع الملاحظات لكي نتوصل إلى فهمها.

ولما كانت الأفكار تستعصي على الجماهير إذا لم تتخذ هيئة بسيطة جداً فإنه ينبغي لكي تصبح شعبية أن تتعرض لتحويل كامل. وعندما يتعلق الأمر بأفكار فلسفية أو علمية عالية نسبياً، فإننا نلاحظ مدى عمق التحويل اللازم لكي تنزل من طبقة إلى طبقة حتى تصل إلى مستوى الجماهير. وهذه التحولات تعتمد أساساً وبشكل خاص على العرق الذي تنتمي إليه هذه الجماهير، ولكنها دائماً تخفيفية وتبسيطية للأفكار المعنية. كما أنه لا يوجد في الواقع من وجهة النظر الاجتماعية أية مراتبة للأفكار، أقصد للأفكار العالية قليلاً أو كثيراً. فبمجرد أن تتوصل فكرة ما إلى الجماهير وتقدر على تحريكها فإنها تصبح معرأة من كل ما صنع رفعتها وعظمتها.

والواقع أن القيمة المراتبية الهرمية لفكرة ما لا أهمية لها. وحدها الآثار الناتجة عنها ذات أهمية. فالأفكار المسيحية في العصور الوسطى والأفكار الديمقراطية في القرن الماضي والأفكار الاجتماعية السائدة اليوم ليست مرتفعة جداً بدون شك. ويمكننا فلسفياً أن نعتبرها كأخطاء فقيرة وبائسة بما فيه الكفاية. ولكن دورها كان ضخماً

وسيكون . وسوف تؤثر لفترة طويلة على سلوك الأنظمة والدول باعتبارها إحدى العوامل الأساسية .

ولكن حتى بعد أن تتعرض الفكرة لتحولات تجعلها في متناول أيدي الجماهير فإنها لا تفعل فعلها ولا تؤثر إلا بعد أن تدخل إلى اللاوعي وتصبح عاطفة متماسكة أو متينة مبلورة من قبل مجريات مختلفة سوف ندرسها في مكان آخر . وهذا التحول يكون عادة طويلاً جداً .

وعلى أي حال فلا ينبغي علينا أن نعتقد أن مجرد البرهنة على صحة فكرة ما يعني أنها سوف تفعل مفعولها حتى لدى الناس المثقفين فعلاً . ويمكننا أن نتحقق من ذلك عندما نرى أن البرهنة الأكثر وضوحاً ليس لها تأثير على معظم البشر . صحيح أنه يمكن للحقيقة الساطعة أن تلقى أذناً صاغية لدى السامع المثقف، ولكنه سيعيدها فوراً بواسطة لا وعيه إلى تصوراته البدائية . حاولوا أن تروه بعد بضعة أيام فسوف ترونه يستخدم من جديد محاجاته القديمة وبنفس الألفاظ تماماً . وذلك لسبب بسيط هو أنه واقع تحت تأثير الأفكار السابقة التي تحولت إلى عواطف وترسخت . وهذه الأفكار هي وحدها التي تؤثر علينا وتحرك بواعثنا العميقة التي تربض خلف أعمالنا وكلامنا .

وعندما تتوصل فكرة ما بواسطة مجريات متعددة إلى الإنغراس في روح الجماهير فإنها تكتسب قوة لا تقاوم وينتج عنها سلسلة من الإنعكاسات والنتائج . فالأفكار الفلسفية التي أدت إلى الثورة الفرنسية أخذت وقتاً طويلاً قبل أن تنغرس في الروح الشعبية . ونحن نعلم مدى قوتها التي لا تقاوم بعدما استقرت في النفوس . لقد أدت إلى انتفاضة شعب بأسره من أجل التوصل إلى العدالة الاجتماعية، ومن أجل إنجاز الحقوق المجردة والحريات المثالية إلى زعزعة كل العروش، وقلبت بعمق كل العالم الغربي . وخلال عشرين سنة راحت الشعوب تهجم على بعضها البعض، وشهدت أوروبا مجازر تشبه تلك التي حصلت على يد جنكيزخان وتيمورلنك . وهكذا لم يحصل في أي يوم من الأيام أن اتخذت فيه الأفكار مثل هذه الأهمية ومدى قدرتها على تغيير وجهة العواطف إذا ما جُيشت وعُبئت .

وإذا كان يلزم وقت طويل لكي تترسخ الأفكار في نفوس الجماهير، فإنه يلزم وقت لا يقل عنه طولاً لكي تخرج منها. وهكذا نجد من وجهة النظر الفكرية أن الجماهير متأخرة عن العلماء والفلاسفة بعدة أجيال. وكل رجالات الدولة السياسيين يعرفون اليوم ما الذي تشتمل عليه الأفكار الأساسية المذكورة آنفاً من أخطاء. ولكن بما أن تأثيرها على النفوس لا يزال قوياً حتى الآن، فإنهم مضطرون للحكم بموجبها على الرغم من أنهم انفكوا عن الإقناع بحقيقتها.

٢ - المحاجات العقلية للجماهير

لا يمكننا القول بشكل مطلق أنه لا يمكن التأثير على الجماهير بواسطة المحاجات العقلية. ولكن الحجج التي تستخدمها وتلك التي تؤثر عليها تبدو من وجهة النظر المنطقية جداً متدنية إلى حد أنه لا يمكننا وصفها بالعقلانية إلا عن طريق القياس والتشبيه.

والمحاجات المتدنية للجماهير مرتكزة على الترابط والضم مثلها في ذلك مثل المحاجات العالية للمثقفين. ولكن الأفكار الموصولة ببعضها البعض ليس بينها إلا روابط ظاهرية من التشابه أو التوالي. فهي تتلاحم على طريقة أفكار الأسكيمو الذين يعرفون عن طريق التجربة أن الجليد يشكل جسماً شفافاً ويذوب في الفم عندما نضعه فيه. وبما أن الزجاج شيء شفاف أيضاً فإنهم يعتقدون أنه يذوب في الفم أيضاً! أو تشبه «منطق» الإنسان المتوحش الذي يعتقد أنه إذا ما أكل قلب عدو شجاع فإنه يكتسب شجاعته، أو منطق العامل المستغل من قبل رب عمل معين فيستنتج من ذلك أن كل أرباب العمل مستغلون.

فهذه ترابطات بين أشياء متنافرة ليس بينها إلا علاقات سطحية ظاهرية، كما أنهم يقومون بتعميم مباشر لحالات فردية وخصوصية. وهاتان هما الخاصيتان الأساسيتان للمنطق الجماعي. والخطباء الذين يعرفون كيفية التلاعب بالجماهير يستخدمون مثل هذه الترابطات. فهي وحدها قادرة على تحريكهم والتأثير عليهم. وأما سلسلة المحاجات العقلانية الصارمة فلا يمكن أن تفهم إطلاقاً من قبل الجماهير. ولهذا

السبب يمكن القول بأنها لا تفكر أو أنها تفكر بشكل خاطيء ولا يمكن التأثير عليها عن طريق التفكير العقلاني .

وضعف بعض الخطابات التي مارست تأثيراً ضخماً على السامعين تدهشنا أحياناً عندما نقرأها . ولكننا ننسى أنها قد كتبت من أجل تعبئة الجماهير وليس من أجل أن تقرأ من قبل الفلاسفة . والخطيب المتواصل بشكل حميمي مع الجمهور يعرف كيف يثير الصور التي تجذبها وتحركها . فإذا ما نجح تحقق هدفه . ومجموعة كبيرة من الخطب لا تساوي بضعة جمل نجحت في جذب النفوس التي ينبغي إقناعها .

لا داعي للقول بأن عجز الجماهير عن التفكير المتعقل يحرمها من كل روح نقدية ، أي من كل قدرة على التمييز بين الحقيقة والخطأ ، وبالتالي من تشكيل حكم دقيق على الأمور . فالأحكام التي تقبلها ليست إلا أحكاماً مفروضة من فوق ، أي غير قابلة للنقاش . ومن وجهة النظر هذه نلاحظ أن الأفراد الذين لا يرتفعون فوق مستوى الجماهير هم عديدون . فالسهولة التي تنتشر فيها بعض الآراء وتصبح عامة تعود بشكل خاص إلى عجز معظم الناس عن تشكيل رأي خاص مستوحى من تجاربهم الشخصية في المحاكمة والتعقل .

٣ - خيال الجماهير (أو مخيلة الجماهير)

إن الخيال الخاص بالجماهير ، كخيال كل الكائنات التي لا تفكر عقلاً ، مهياً لأن يتعرض للتأثير العميق . فالصور التي تثيرها في نفوسهم شخصية ما أو حدث ما أو حادث ما لها نفس حيوية وقوة الأشياء الواقعية ذاتها . فالجماهير تشبه إلى حد ما حالة النائم الذي يتعطل عقله مؤقتاً ويترك نفسه عرضة لانبثاق صورة قوية ومكشفة جداً ، ولكنها سرعان ما تتبخر على محك التفكير . ولما كانت الجماهير غير قادرة لا على التفكير ولا على المحاكمة العقلية فإنها لا تعرف معنى المستحيل أو المستبعد الحدوث . ونحن نعلم أن الأشياء الأكثر استحالة هي عادة الأكثر ادهاشاً وتأثيراً .

الفصل الثالث: أفكار، محاجات عقلية، مخيلة الجماهير

ولهذا السبب فإن الجوانب الساحرة والأسطورية من الأحداث هي التي تدهش الجماهير دائماً وتؤثر عليها. والواقع أن العجيب الساحر والأسطوري هما الدعامتان الحقيقيتان للحضارة. ونلاحظ أن المظهر قد لعب دائماً في التاريخ دوراً أكثر أهمية من الواقع. فاللاواقعي يهيمن فيه على الواقعي.

ولما كانت الجماهير عاجزة عن التفكير إلا بواسطة الصور فإنه لا يمكن جذبها والتأثير عليها إلا عن طريق الصور. ووحدها هذه الأخيرة ترعبها أو تجذبها وتصبح باعثاً على العمل والممارسة.

ولهذا السبب فإن التمثيلات المسرحية التي تقدم الصور بصيغتها الأكثر وضوحاً لها دائماً تأثير ضخم على الجماهير. وكان الخبز والعروض المسرحية يشكلان قديماً مثال السعادة بالنسبة لكل الناس في روما القديمة. ولم يتغير هذا المثال إلا قليلاً على مدار العصور المتتالية. ولا شيء يؤثر على الخيال الشعبي أكثر من قطعة مسرحية. فكل الصالة التي تشاهدها تحس بنفس المشاعر، وإذا لم تتحول هذه المشاعر فوراً إلى أعمال فعلية فذلك لأن المشاهد الأكثر لاوعياً لا يمكنه أن يجهل أنه واقع ضحية الأوهام، وأنه قد ضحك أو بكى من مغامرات خيالية بحتة.

ولكن أحياناً تكون العواطف الموحاة من قبل الصور قوية إلى درجة أنها تميل لأن تتحول إلى ممارسة وفعل تماماً كالمقترحات العادية. وغالباً ما رووا قصة ذلك المسرح الشعبي المأساوي الذي يضطر لحماية الممثل على المخرج بعد انتهاء المسرحية، وذلك خوفاً من اعتداء المشاهدين عليه بسبب جرائمه الخيالية. وهنا تكمن في رأيي إحدى أهم العلامات والمؤشرات على الحالة العقلية للجماهير، وخصوصاً على درجة السهولة التي يمكن لهم أن يؤثروا عليها فيها ويحرضوها. فاللاواقعي له نفس الأهمية تقريباً بالنسبة لهم كالواقعي. وهي تميل بشكل واضح إلى عدم التمييز بينهما.

وعلى قاعدة الخيال الشعبي تأسست مقدرة الفاتحين وقوة

الدول. فعن طريق التأثير عليها تم تجيش الجماهير وتحريكها. وكل الأحداث التاريخية الكبرى كتأسيس البوذية والمسيحية والإسلام والإصلاح اللوثيري والثورة الفرنسية ثم في أيامنا هذه الغزو المهدّد للإشتركية، كل ذلك عبارة عن نتائج مباشرة أو بعيدة لانطباعات قوية أثرت على خيال الجماهير.

ولهذا السبب نجد أن رجالات الدولة الكبار في كل العصور وفي كل البلدان بما فيها الأكثر استبداداً قد اعتبروا الخيال الشعبي بمثابة أكبر دعم لسلطتهم. فهم لم يحاولوا أبداً أن يحكموا ضده. قال نابليون بهذا الصدد الكلام العميق التالي في مجلس الدولة الفرنسي: «لم أستطع إنهاء حرب القاندي»^(١) إلا بعد أن تظاهرت بأني كاثوليكي حقيقي. ولم أستطع الإستقرار في مصر إلا بعد أن تظاهرت بأني مسلم تقي. وعندما تظاهرت بأني بابوي متطرف استطعت أن أكسب ثقة الكهنة في إيطاليا. ولو أنه أتيح لي أن أحكم شعباً من اليهود لأعدت من جديد معبد سليمان! ربما لم يفهم أي رجل كبير في العالم منذ الإسكندر المقدوني والقيصر كيف ينبغي جذب الجماهير والتأثير على مخيلتها مثلما فهم نابليون. فقد كان همه الأول والدائم الضرب على وترها وإدهاشها. وكان يفكر فيها أثناء انتصاراته وخطبه وخطاباته وفي كل حالاته. وحتى على فراش الموت كان يفكر في الجماهير ومخيلتها.

ولكن، كيف يمكن التأثير على خيال الجماهير ونيل إعجابها؟ سوف نرى ذلك قريباً. لنقل منذ الآن بأن التظاهرات والوسائل الموجهة للتأثير على الفهم والعقل عاجزة عن تحقيق هذا الهدف. فانطونيوليس بحاجة إلى بلاغة خطابية متقنة لكي يستنهض الشعب ضد قتلة القيصر. يكفي أن يقرأ عليه وصيته ويريه جثته.

كل ما يؤثر على مخيلة الجماهير يقدم نفسه على هيئة صورة مؤثرة وصريحة مخلصّة من كل تأويل ثانوي، أو غير مصحوبة إلا من قبل بعض الوقائع العجيبة الساحرة: كالنصر الكبير، أو المعجزة الكبيرة، أو جريمة كبيرة، أو أمل كبير. ومن المهم هنا عرض الأشياء ككتلة

واحدة وبدون تبيان منشئها أو ولادتها. فمائة جريمة صغيرة أو مائة حادث صغير لا تؤثر أبداً على مخيلة الجماهير ولا تحركها. ولكن جريمة واحدة كبيرة أو كارثة واحدة كبيرة تؤثران عليها بعمق حتى ولو كانت نتائجهما أقل بكثير من النتائج القاتلة لمائة حادث مجتمعة. إن وباء الأنفلونزا الكبير الذي أهلك في باريس خمسة آلاف شخص في بضعة أسابيع لم يؤثر إلا قليلاً على المخيلة الشعبية. فهذه المذبحة الكبرى لم تتجسد في صور مرئية ومكشوفة وإنما فقط من قبل التأشيرات الأسبوعية للإحصائيات. ولو حصل في نفس اليوم وعلى الساحة العامة حادث أودى بحياة خمسمائة شخص فقط بدلاً من خمسة آلاف كأن يقع برج إيفل مثلاً لوُلِدَ تأثيراً ضخماً وهائلاً على النفوس. والخسارة المفترضة لقارب عابر للأطلسي انقطعت أخباره واعتقد أنه غرق في وسط البحر أثر بعمق طيلة ثمانية أيام على مخيلة الجماهير. هذا مع العلم أن الإحصائيات الرسمية بينت أنه قد غرق في نفس السنة ألف قارب وزورق. ولم تكترس الجماهير لحظة واحدة لهذه الخسارة الجسيمة التي تزيد أضعافاً مضاعفة من حيث الأرواح البشرية والسلع عن الخسارة الأولى.

نستنتج من ذلك إذن أنه ليست الوقائع بحد ذاتها هي التي تؤثر على المخيلة الشعبية، وإنما الطريقة التي تعرض بها هذه الوقائع. وينبغي على هذه الأحداث عن طريق التكثيف إذا جاز التعبير أن تولد صورة مؤثرة وأخاذة تملأ الروح كالهوس. إن معرفة فن التأثير على مخيلة الجماهير تعني معرفة فن حكمها.

الفصل الرابع

الأشكال الدينية التي تتخذها كل قناعات الجماهير

كنّا قد رأينا أن الجماهير لا تفكر عقلاً، وإنما تتبنى الأفكار دفعة واحدة أو ترفضها، وإنما لا تحتلّ لا مناقشة ولا اعتراضاً، وأن التحريضات المؤثرة عليها تغزو كلياً ساحة فهمها وتميل للتحويل إلى فعل وممارسة فوراً. وكنّا قد بيّنا أن الجماهير التي يعرفون تحريضها بشكل جيد تصبح مستعدة للتضحية بنفسها من أجل المثال الأعلى الذي حرضوها عليه. ثم بيّنا أخيراً أنها تعرف فقط العواطف العنيفة والمتطرفة. فالتعاطف مع شيء ما يتحول لديها فوراً إلى عبادة، والنفور يتحول مباشرة إلى حقد. وهذه الإشارات العامة تتيح لنا أن نفهم طبيعة قناعاتها.

وإذا ما تفحصنا عن كذب قناعات الجماهير في فترات الإيمان كما في فترات الإنتفاضات السياسية الكبرى التي حصلت في القرنين الماضيين وجدنا أنها تمثل دائماً شكلاً خاصلاً لا أستطيع وصفه إلا باسم العاطفة الدينية.

ولهذه العاطفة خصائص بسيطة جداً: أولاً عبادة إنسان يعتبر خارقاً للعادة، الخوف من القوة التي تعزى إليه، الخضوع الأعمى لأوامره، استحالة أي مناقشة لعقائده، الرغبة في نشر هذه العقائد، الميل لاعتبار كل من يرفضون تبنيها بمثابة أعداء. وسواء أسقطت عاطفة كهذه على الإله الذي لا يُرى، أو على صنم معبود، أو على بطل أو فكرة سياسية، فإنها تبقى دائماً ذات جوهر ديني. كما أن كلاً من العنصرين الخارق للطبيعة والمعجز يتواجد فيها. فالجماهير تخلع على التشكيلة

السياسية أو الزعيم الذي يلهب حماسها مؤقتاً نفس القوة السرية المليئة بالأسرار.

فالإنسان ليس متديناً فقط عن طريق عبادة آلهة معينة، وإنما أيضاً عندما يضع كل طاقاته الروحية وكل خضوع إرادته، وكل احتدام تعصبه في خدمة قضية ما أو شخص ما كان قد أصبح هدف كل العواطف والأفكار وقائدها.

إن عدم التسامح والتعصب يشكّلان المرافق الطبيعي للعاطفة الدينية. وهما موجودان حتماً لدى أولئك الذين يعتقدون بأنهم يمتلكون سر السعادة الأرضية أو الأبدية. وهاتان الخاصيتان موجودتان لدى كل البشر المنخرطين في جماعة ما، وذلك عندما يحركهم يقين أو اعتقاد ما. فاليعاقة الذين فرضوا الرعب أثناء المرحلة الثانية من الثورة الفرنسية كانوا متدينين بعمق مثل الكاثوليك الذين قاموا بمحاكم التفتيش، وضراروتهم الوحشية مستمدة من نفس المنبع.

إن قناعات الجماهير تتسم بهذه الخصائص من الخضوع الأعمى، والتعصب العنيد، وحب الدعاية العنيفة الملازمة لكل عاطفة دينية. وبالتالي فيمكننا أن نقول بأن كل عقائدها تتلبس زياً دينياً. فالبطل الذي تصفق له الجماهير هو بالفعل إله بالنسبة لها. وقد مثل ذلك نابليون مدة خمسة عشر عاماً. ولم يحصل تأليه لشخص مثلما حصل له. ولم يحصل أن استطاع معبود إرسال الناس إلى الموت بمثل هذه السهولة مثلما فعل هو. فالهة الوثنية والمسيحية لم تستطع أن تمارس هيمنة مطلقة على النفوس أكثر مما فعل نابليون.

إن مؤسسي العقائد الدينية أو السياسية لم يؤسسوها إلا عندما عرفوا كيف يفرضون على الجماهير عواطف التعصب الديني هذه، هذه العواطف التي تجعل الإنسان يجد سعادته في العبادة وتدفعه لأن يضحي بحياته من أجل معبوده. وهذا ما حصل في كل العصور. وفي كتابه الجميل عن بلاد الغال الرومانية نبّه «فوستيل دو كولانج» إلى أن الأمبراطورية الرومانية لم تستمر على قيد الحياة بواسطة القوة، وإنما

الفصل الرابع : الأشكال الدينية التي تتخذها كل قناعات الجماهير

بواسطة الإعجاب الديني الذي تلهمه للناس . يقول بحق : «سوف يكون من غير المعقول أن يستمر نظام سياسي ما مدة خمسة قرون وهو مكروه من قبل الشعب . . . هذا شيء لا سابقة له في تاريخ العالم . ولا نستطيع أن نفهم كيف يمكن لثلاثين فوجاً عسكرياً في الإمبراطورية أن تهيمن على مائة مليون وتجبرهم على الطاعة» . فإذا كانوا يخضعون ويطيعون فذلك لأن الامبراطور الذي يجسد العظمة الرومانية كان معبوداً من قبل الشعب كإله . ففي أصغر قرية من قرى الإمبراطورية كانت له هياكل . ثم يقول الكاتب المذكور مردفاً : «وقد شهدنا في ذلك الزمن انبثاق دين جديد في النفوس في طول الامبراطورية وعرضها . وكانت آلهة هذا الدين الأباطرة أنفسهم . فقبل بضع سنوات من العهد المسيحي كانت منطقة الغال نفسها ممثلة بستين مدينة . وقد ساهمت جميعها في إقامة معبد على شرف الإمبراطور أوغست بالقرب من مدينة ليون . . . وكان كهنته الذين ينتخبون من قبل اجتماع المدن الغالية هم أعيان مناطقهم وشخصياتها الأولى . . . ومن المستحيل أن نعزو كل ذلك إلى الخوف والعبودية . فشعوبُ بأكملها لا يمكن أن تكون عبدة أو مستعبدة ، ولا يمكن أن تظل كذلك طيلة ثلاثة قرون . فلم يكن الممالكون هم وحدهم يعبدون الحاكم وإنما روما كلها . ولم تكن روما وحدها وإنما كل بلاد الغال ، واسبانيا واليونان وآسيا» .

وأما في أيامنا هذه فإن معظم الفاتحين والمهيمنين على النفوس لا يمتلكون هياكل شخصية في المدن والقرى ، ولكن لهم تماثيل عديدة وصور معلقة . والعبادة التي يتلقونها من قبل الناس ليست مختلفة كثيراً عن عبادة الأباطرة في العصور القديمة . ولن نستطيع أن نفهم قليلاً فلسفة التاريخ إلا بعد أن نفهم هذه النقطة الأساسية الخاصة بنفسية الجماهير : أقصد ينبغي على الحاكم أن يكون إلهاً بالنسبة لها أو لا يكون .

فهذه الأشياء ليست خرافات تنتمي إلى العصور القديمة ، ثم جاء العقل وطردها نهائياً . فالعاطفة في صراعها الأبدي ضد العقل لم تكن مهزومة أبداً . صحيح أن الجماهير لم تعد تريد أن تسمع كلمتي

الآلهة والدين اللتين هيمنتا عليها زمنًا طويلاً. ولكن ليس هناك من فترة في التاريخ شهدت ارتفاع التماثيل وبناء الهياكل على يدها مثل فترتنا هذه (أي منذ قرن من الزمن). فالحركة الشعبية الفرنسية المعروفة باسم البولانجية^(١) تبين لنا مدى حجم السهولة التي تنبعث فيها الغرائز الدينية للجماهير من جديد. فلا يوجد أي نزل أو فندق في قرى فرنسا إلا وهو يعلق صورة البطل. فقد كانوا يعتقدون أنه قادر على علاج كل أنواع الظلم وكل الأمراض والشرور. وكان آلاف البشر مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيله. ويا لها من مكانة ضخمة تلك التي كان سيحتلها في التاريخ لو أن شخصيته كانت قادرة على دعم أسطوره!

نستنتج من ذلك أنه لا داعي لتكرار الحقيقة البديهية بأن الجماهير بحاجة إلى دين. فالعقائد السياسية والسماوية والاجتماعية لا تترسخ لديها إلا بشرط أن تكتسي دائماً الحلة الدينية التي تضعها بمنأى عن المناقشة والأخذ والرد. فلو أنه أمكن فرض الإلحاد على الجماهير لاتخذت كل ضراوة التعصب الخاص بالعاطفة الدينية، ولأصبحت بسرعة في أشكالها الخارجية نوعاً من الطقس الشعائري. والتطور الأخير للطائفة الوضعية الصغيرة يقدم لنا برهاناً غريباً على ذلك. فهي تشبه ذلك العدمي الذي روى لنا الكاتب العميق دوستوفسكي قصته. فبعد أن أضاءته أنوار العقل يوماً ما، فإنه كسر صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين هيكل مصلاه الصغير، وأطفأ الشمعات، وبدون أن يضع لحظة واحدة فإنه استبدل بالصور الممزقة مؤلفات بعض الفلاسفة الملحدين، ثم أعاد من جديد إشعال الشمعات. لا ريب في أن موضوع عقائده الدينية قد تحول، ولكن هل يمكننا القول فعلاً بأن عواطفه الدينية قد تغيرت؟

سوف أكرر مرة أخرى القول بأننا لن نفهم بعض الأحداث التاريخية وخصوصاً الأكثرها أهمية إلا بعد أن ندرك الصيغة الدينية التي تنتهي عقائد الجماهير بتلبسها أخيراً. وهناك الكثير من الظواهر الاجتماعية التي تتطلب دراسة عالم نفس أكثر مما تتطلب دراسة عالم الطبيعة. إن مؤرخنا الكبير «تين» لم يدرس الثورة الفرنسية إلا من خلال وجهة نظر العالم الطبيعي، ولهذا السبب فإن المنشأ الحقيقي

الفصل الرابع : الأشكال الدينية التي تتخذها كل قناعات الجماهير

للأحداث قد خفي عليه سابقاً. لقد رصد وقائعها وأحداثها بشكل ممتاز، ولكن بما أنه لم يقدر على فهم نفسية الجماهير، فإن كاتبنا المشهور لم يعرف دائماً كيف يعود إلى الأسباب العميقة لهذه الثورة. وبما أن أحداثها قد أرعبته بجانبها الدموي والفوضوي والمتوحش فإنه لم ير في أبطال الملحمة الكبرى إلا عصابة من البرابرة المتوحشين والمصروعين الذين يستسلمون بدون أي وازع لنزواتهم. فأعمال العنف التي نتجت عن الثورة الكبرى ومجازرها وحاجتها للدعاية وإعلانها الحرب على كل الملوك، كل ذلك لا يمكن فهمه إلا إذا اعتبرنا أنها زرعت إيماناً دينياً جديداً في نفوس الجماهير. فحركة الإصلاح الديني اللوثيري ومجزرة سان بارتيليمي^(٢) وحروب الأديان ومحاكم التفتيش والرعب الذي فرضته الثورة الفرنسية، كلها عبارة عن ظواهر متماثلة ومنجزة بتحريض من هذه العواطف الدينية التي تؤدي بالضرورة إلى استئصال كل من يعارض ترسيخ الإيمان الجديد بالحديد والنار. فالأساليب التي اتبعتها محاكم التفتيش المسيحية وتلك التي استخدمتها الثورة الفرنسية أثناء ما يدعى بمرحلة الرعب هي أساليب المؤمنين المقتنعين حقيقة. ولن يكونوا مقتنعين ولا مؤمنين لو أنهم اتبعوا أساليب أخرى.

إن الانقلابات المشابهة لتلك التي ذكرتها ليست ممكنة إلا عندما تجعلها روح الجماهير تنبثق. فأكبر المستبدين ليسوا قادرين على إثارتها أو تهيجها. والمؤرخون الذين يلقون بمسؤولية مجزرة سان بارتيليمي على الملك يجهلون نفسية الجماهير مثلما يجهلون نفسية الملوك. فتظاهرات كهذه (أو مجازر كهذه) لا يمكن أن تخرج إلا من الروح الشعبية. وأكبر قوة مطلقة لعاهل مستبد لا يمكنها أن تفعل شيئاً يذكر فيما يخص هذه الوقائع الكبرى، اللهم إلا أن تسرع من لحظتها قليلاً أو تؤجل قليلاً. وليس الملوك هم الذين فعلوا مجزرة سان بارتيليمي ولا حروب الأديان، مثلما أنه ليس روبسبير ولا دانتون ولا سان جوست هم الذين نظموا الرعب بعد قيام الثورة الفرنسية. ف وراء أحداث كبرى كهذه نجد دائماً روح الجماهير.

الكتاب الثاني

آراء البعسامين وعفاندها

الفصل الأول

العوامل البعيدة

المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

انتهينا للتو من دراسة التكوين الذهني للجماهير. وأصبحنا نعرف أساليبها في الإحساس، والتفكير، والمحااجة. لندرس الآن إذن كيف تولد آراؤها وعقائدها وكيف تترسخ في النفوس.

إن العوامل التي تحدد آراء الجماهير وعقائدها ذات نوعين: عوامل بعيدة وعوامل قريبة (أو مباشرة).

فالعوامل البعيدة تجعل الجماهير قادرة على تبني بعض القناعات وغير مؤهلة لتبني قناعات أخرى. فهذه العوامل تمهد الأرضية لتبرعم وانبثاق الأفكار الجديدة التي تدهشنا بقوتها ونتائجها. ولكن عفوية انبثاقها ليست إلا شيئاً سطحياً وظاهرياً. فانفجار بعض الأفكار وتبلورها لدى الجماهير يشكل أحياناً مباغطة صاعقة. ولكن ذلك ليس إلا أثراً سطحياً يخبىء وراءه عادة عملاً طويلاً وبطيئاً سابقاً.

وأما العوامل المباشرة فهي تلك التي إذا ما تراكبت على ذلك العمل التمهيدي الطويل الذي لا يمكنها أن تفعل فعلها بدونه، أثارت الإقتناع الفعال لدى الجماهير. نقصد بذلك أنها تبلور الفكرة وتخلع عليها هيئتها ثم تجيشها وتهيجها بكل نتائجها وانعكاساتها. وتحت ضغط هذه العوامل المباشرة تنبثق القرارات التي تحرك الجماعات البشرية فجأة. فهي التي تؤدي إلى انفجار تمرد شعبي ما أو شن إضراب ما. وهي التي تدفع أغلبية كبيرة من الشعب إلى الوصول بشخص ما إلى سدة السلطة، أو إسقاط حكومة معينة.

وفي كل الأحداث الكبرى للتاريخ نلاحظ وجود التأثير المتتالي لهذين النوعين من العوامل. فإذا ما ضربنا مثلاً الثورة الفرنسية التي تشكل أحد أهم الأمثلة وأكثرها إثارة، وجدنا أن من بين عواملها البعيدة نقد الكتاب والمفكرين للنظام القديم، ثم ابتزاز هذا النظام القديم وتجاوزاته. وهكذا تمت تهيئة روح الجماهير للثورة واستطاعوا تجييشها فيما بعد بواسطة عوامل مباشرة كخطابات الخطباء مثلاً ومقاومة البلاط الملكي لإجراء اصلاحات زهيدة لم تعد ذات معنى.

ومن بين العوامل البعيدة هناك عوامل عامة نجدها في أعماق كل عقائد الجماهير وآرائها: كالعرق مثلاً، والتقاليد الموروثة، والزمن، والمؤسسات، والتربية والتعليم. وسوف ندرس فيما يلي دور كل منها على التوالي.

١ - العرق

إن عامل العرق ينبغي أن يوضع في المرتبة الأولى لأنه هو وحده أهم من كل العوامل الأخرى مجتمعة. وقد درسناه بما فيه الكفاية في كتاب سابق، ولن نعود إليه مطولاً هنا. كنا قد بينا ما الذي يعنيه العرق التاريخي، وكيف أنه ما إن تشكل خصائصه وعقائده ومؤسساته وفنونه، وباختصار كل عناصر حضارته، حتى تصبح التعبير الخارجي لروحه. إن قوة العرق كبيرة إلى درجة أنه لا يمكن لأي عنصر أن ينتقل من أي شعب إلى آخر دون أن يتعرض للمتغيرات الأكثر عمقاً^(١).

فالبينة والظروف والأحداث تمثل المقترحات الاجتماعية الخاصة بال لحظة. ويمكنها أن تمارس فعلاً مهماً، ولكن دائماً مؤقتاً، إذا كانت مضادة لمقترحات العرق أي لكل سلسلة الأسلاف والآباء والأجداد.

وسوف نتاح لنا الفرصة في فصول عديدة من هذا الكتاب لكي نعود إلى أهمية العرق ومدى تأثيره، ولكي نبين أن هذا التأثير من القوة والأهمية بحيث أنه يسيطر على الخصائص المتعلقة بروح الجماهير. ولهذا السبب فإن العديد من البلدان المختلفة تجسد في عقائدها

الفصل الأول: العوامل البعيدة المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

وسلوكلها اختلافات متمايضة وقوية جداً، ولا يمكن التأثير عليها بنفس الطريقة.

٢ - التقاليد الموروثة

إن التقاليد تمثل الأفكار والحاجيات والعواطف الخاصة بالماضي . وهي تمثل خلاصة العرق وتضغط بكل ثقلها علينا .

فعلوم الأحياء كانت قد تعرضت للتحويل والتغير منذ أن كان علم الأجنة قد بين التأثير الهائل للماضي على تطور الكائنات . وسوف تشهد العلوم التاريخية نفس الظاهرة عندما يصبح هذا المفهوم أكثر انتشاراً . فهي غير منتشرة حتى الآن بالحد الكافي ، والكثير من رجال السياسة لا يزالون عائشين على أفكار منظرى القرن الماضي . فهم يتخيلون أنه يمكن لمجتمع ما أن يقطع مع ماضيه ويعيد تشكيل نفسه من جديد عن طريق اتخاذه لأنوار العقل قائداً ودليلاً .

ولكننا نرى أن الشعب هو عبارة عن كائن عضوي مخلوق من قبل الماضي . وهو ، ككل الكائنات العضوية الأخرى ، لا يمكنه أن يتغير إلا بواسطة التراكمات الوراثة البطيئة .

فالقادة الحقيقيون للشعوب هم تقاليدهم الموروثة . وكما كررت أكثر من مرة فإنهم لا يغيرون منها بسهولة إلا الأشكال الخارجية . ولا يمكن لأي حضارة أن تنوجد بدون تقاليد ، أي بدون روح قومية .

والواقع أن أكبر همٍّ للإنسان منذ أن وجد على سطح هذه الأرض كانا يتمثلان في خلق شبكة من التقاليد أولاً ، ثم في تدميرها عندما تكون آثارها الإيجابية والنافعة قد استنفدت . وبدون تقاليد ثابتة لا يمكن أن توجد حضارة . وبدون الإزالة البطيئة والتدرجية لهذه التقاليد لا يمكن أن يوجد تقدم . والصعوبة تكمن في إيجاد توازن عادل بين الثبات والتحول . وهذه الصعوبة ضخمة جداً . فعندما يتيح شعب ما لأعرافه وتقاليده أن تثبت وترسخ بقوة زائدة طيلة أجيال عديدة ، فإنه لا يعود يستطيع التطور ويصبح كالصين عاجزاً عن التطور والإصلاح . وحتى

الثورات العنيفة نفسها تصبح عاجزة عن ذلك لأنه يحصل عندئذٍ إما أن تلتحم الأجزاء المكسورة من السلسلة ببعضها البعض وعندئذٍ يستعيد الماضي هيمنته دون تغيير، وأما أن تولد هذه الأجزاء المتفرقة نوعاً من الفوضى أولاً ثم الإنحطاط لاحقاً.

وبالتالي فإن المهمة الأساسية الملقاة على عاتق شعب ما ينبغي أن تكمن في الحفاظ على مؤسسات الماضي عن طريق تعديلها شيئاً فشيئاً. وإنها لمهمة صعبة وشاقة. ويمكن القول بأن الرومان في الماضي والإنكليز في الحاضر هم وحدهم الذين استطاعوا إنجازها.

إن المحافظين الأكثر عناداً وصلابة على الأفكار التقليدية والذين يعارضون بإصرار أي محاولة لتغييرها هم الجماهير بالذات، وخصوصاً الفئات التي تشكل الطبقات المغلقة ذات الإمتيازات. كنت قد لفت الإنتباه إلى هذه الروح المحافظة وبيّنت أن الكثير من الإنتفاضات لا تؤدي إلا إلى تغيير في الكلمات. نضرب على ذلك المثل التالي:

اعتقد الناس في نهاية القرن الماضي أمام الكنائس المدمرة والكهنة المطرودين أو المعدومين بالمقصلة والاضطهاد الكوني الشامل للشعائر الكاثوليكية أن الأفكار الدينية العتيقة قد انتهت وفقدت كل سلطة. ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ أدت الالتماسات والمطالب الكونية العامة إلى إعادة الشعائر الملغاة^(٢).

وليس هناك من مثال آخر يبين لنا بشكل أفضل مدى تأثير التقاليد الموروثة على روح الجماهير. فالمعابد لا تحتوي على الأصنام المعبودة الأكثر جبروتاً، كما أن القصور لا تحتوي على الطغاة الأكثر استبداداً. ذلك أنه يمكن تدميرها بسهولة. فالأسياد المتوارون الذين يسيطرون على أرواحنا يقاومون كل محاولة للإطاحة بهم ولا يستسلمون إلا للإستهلاك البطيء للقرون.

٣ - الزمن

إن الزمن يشكل بالنسبة للمشاكل الاجتماعية كما بالنسبة للمشاكل

الفصل الأول : العوامل البعيدة المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

البيولوجية أحد العوامل الأكثر تأثيراً ونشاطاً. فهو يمثل المولّد الحقيقي والمدمّر الكبير. فهو الذي بنى الجبال من حبات الرمال، ورفع إلى مستوى الكرامة البشرية تلك الخلية الحية الصغيرة عبر الأزمنة الجيولوجية. ويكفي لكي نحول ظاهرة ما أو نغيرها أن ندخل عامل الزمن والقرون. وكما قالوا بحق فإن النملة تستطيع أن تزيل الجبل الأبيض^(٣) لو امتلكت الزمن الكافي. والشخص الذي يمتلك القوة السحرية للتحكم بالزمن والتلاعب به، سوف يمتلك الجبروت الذي يعزوه المؤمنون لآلهتهم.

ولكن لا تكمن مهمتنا هنا في دراسة تأثير الزمن على منشأ آراء الجماهير. فتأثيره من وجهة النظر هذه عظيم. فهو يتحكم بالقوى الكبرى المؤثرة كالعرق مثلاً، وهي لا تستطيع التواجد والتشكل إلا بدونه. وهو الذي يجعل كل العقائد تتطور وتموت. فبه تمتلك قوتها وجبروتها، وبه تفقدها.

إن الزمن هو الذي يطبخ آراء وعقائد الجماهير على نازه البطيئة، بمعنى أنه يهيئ الأرضية التي ستنشأ عليها وتبرعم. نستنتج من ذلك أن بعض الأفكار التي يمكن تحقيقها في فترة ما تبدو مستحيلة في فترة أخرى. فالزمن يراكم البقايا العديدة جداً للعقائد والأفكار، وعلى أساسها تولد أفكار عصر ما. فهذه الأفكار لا تنبت بالصدفة أو عن طريق المغامرة. وإنما نجد جذورها تضرب عميقاً في ماضٍ طويل. وعندما تزهر يكون الزمن قد هَيَّأ المجال لتفتحها. وإذا ما أردنا أن نفهم منشأها فينبغي دائماً أن نرجع في الزمن إلى الوراء. فهي بنات الماضي وأم المستقبل وعبدة الزمن دائماً (أي تابعة له).

وبالتالي فهذا يعني أن الزمن هو سيدنا الحقيقي، ويكفي أن نتركه يفعل فعله لكي نرى كل الأشياء تتحول وتتغير. واليوم نحن نقلق كثيراً من المطامح الخطرة للجماهير، ومن الدمار والانقلابات التي تنذر بها. والزمن هو وحده الذي يتكفل بإعادة التوازن. كتب السيد لافيس ومعه كل الحق يقول: «لا يمكن لأي نظام سياسي أن

ينهار في يوم واحد. فالتنظيمات السياسية والاجتماعية هي عبارة عن أعمال تتطلب قروناً لإنجازها. وقد انوجد النظام الإقطاعي بشكل هلامي وفوضوي طيلة قرون عديدة قبل أن يستقر ويبلور قواعده وأساسه. والنظام الملكي المطلق عاش قروناً عديدة أيضاً قبل أن يجد الوسائل المستقرة والمنتظمة للحكم. وقد حصلت اضطرابات كبرى في فواصل الإنتظار هذه».

٤ - المؤسسات السياسية والاجتماعية

إن الفكرة القائلة بأن المؤسسات يمكنها أن تشكل علاجاً لنواقص المجتمع، وإن تقدم الشعوب ناتج عن اكتمال الدساتير وأشكال الحكومات، وإن المتغيرات الاجتماعية يمكن أن تنتج بمجرد سن القوانين، هي فكرة لا تزال شائعة جداً حتى الآن كما قلت. وقد انطلقت منها الثورة الفرنسية، وكذلك الأمر فيما يخص النظريات الاجتماعية الحالية فهي تستند إليها.

إن التجارب الأكثر استمرارية وتواصلية لم تنجح في زعزعة هذا الوهم الكبير. وقد حاول الفلاسفة والمؤرخون أن يبرهنوا على عبثيته ولكن دون جدوى. هذا على الرغم من أنه لم يكن من الصعب عليهم أن يبينوا أن المؤسسات هي بنت الأفكار والعواطف والأخلاق والطبائع، وأنه لا يمكننا إعادة هذه الأشياء عن طريق إعادة القوانين. فالشعب - أي شعب - لا يختار مؤسساته مثلما لا يختار لون عيونه أو شعره. فالمؤسسات والحكومات تمثل متوج العرق. وبدلاً من أن تكون خلاقة العصر فهي مخلوقته. والشعوب ليست محكومة طبقاً لنزوات لحظة ما، وإنما طبقاً لما تمليه طباعها وخصائصها. ويلزم أحياناً عدة قرون من أجل تشكيل نظام سياسي معين، وعدة قرون أخرى من أجل تغييره. فالمؤسسات ليس لها أية ميزة أزلية أو أبدية، وليست جيدة أو رديئة بحد ذاتها. فهي قد تكون جيدة في لحظة ما لشعب ما، وقد تصبح كريهة بالنسبة لشعب آخر.

وإذن فإن الشعب لا يمتلك أبداً أية قدرة حقيقية على تغيير

الفصل الأول : العوامل البعيدة المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

مؤسساته . لا ريب في أنه يستطيع تعديل اسمها عن طريق إشعال الثورات العنيفة، ولكن المضمون لا يتغير . وبما أن الأسماء هي عبارة عن إشارات لا أهمية لها فإن المؤرخ المشغول بالقيم الفعلية للأشياء لا يعيرها أي انتباه . هكذا نجد مثلاً أن إنكلترا، أكثر البلدان في العالم ديمقراطية، خاضعة لنظام ملكي^(٤) . هذا في حين أن الجمهوريات الإسبانية - الأمريكية المحكومة من قبل الدساتير الجمهورية تتعرض لأبشع أنواع الاستبداد . فطباع الشعب وليس الحكومات هي التي تحسم مصيرها . وقد حاولت البرهنة على هذه الحقيقة في كتاب سابق عن طريق الاتكاء على أمثلة قاطعة .

وإذن فإنها مهمة تافهة وتمريناً بلاغياً لا جدوى منه أن نضيع وقتنا في صناعة الدساتير أو تأليفها . فالضرورة والزمن كفيلا نبلورتها عندما نترك هذين العاملين يفعلان فعلهما . وقد بين لنا المؤرخ الكبير ماكولاي في مقطع ينبغي أن يحفظه السياسيون عن ظهر قلب في كل البلدان اللاتينية أن البريطانيين قد تصرفوا بهذه الطريقة . فبعد أن فسر فوائد القوانين التي تبدو من وجهة نظر العقل عبارة عن فوضى مليئة بالعبث والتناقض، فإنه قارن بين الدساتير الإثني عشر التي ماتت أثناء الإنتفاضات التي شهدتها الشعوب اللاتينية لأوروبا وأمريكا مع دستور إنكلترا . وبين لنا أن هذا الأخير لم يعدل أو يغير إلا ببطء شديد وبشكل جزئي، وذلك تحت تأثير الحاجيات المباشرة وليس أبداً طبقاً للمحاكمات العقلية النظرية . قال بالحرف الواحد : «ينبغي عدم الإهتمام أبداً بالتمائل أو بالتناسق أثناء صنع الدساتير، وإنما فقط بالفائدة والمنفعة . ولا تحذفوا أي شذوذ فقط لأنه شذوذ . ولا تحاولوا أبداً أن تجددوا أو تبتكروا إلا إذا أحسستم بوجود انحراف أو انزعاج . وعندئذ ابتكروا فقط بالقدر الكافي لإزالة هذا الانحراف المزعج . لا تحاولوا أبداً تقديم قانون أو مقترح أكبر من الحالة الخاصة التي ابتكر لعلاجها . هذه هي القواعد التي قادت مداولات برلماننا المائتين والخمسين منذ عصر يوحنا وحتى عصر فيكتوريا» .

ينبغي أن ندرس قوانين ومؤسسات كل شعب الواحد بعد الآخر

لكي نبين إلى أي مدى تمثل التعبير عن حاجيات عرقها، وبالتالي فلا يمكن تغييرها عن طريق العنف. يمكننا مثلاً أن نتناقش فلسفياً، وكما ننتهي ونريد، حول فوائد المركزية ومساوئها. ولكن عندما نجد شعباً ما مؤلفاً من أعراق مختلفة يكرس ألف عام من الجهود لكي يتوصل تدريجياً إلى هذه المركزية، وعندما نلاحظ أن ثورة كبرى قد هدفت إلى كسر كل مؤسسات الماضي ولكنها اضطرت ليس فقط إلى احترام هذه المركزية وإنما إلى زيادتها أيضاً، فإننا نستنتج من ذلك أن المركزية هي وليدة ضرورة قاهرة، بل وحتى شرطاً للوجود. ونأسف عندئذٍ للضعف العقلي لأولئك السياسيين الذين يتحدثون عن تدميرها (المقصود الوحدة المركزية لفرنسا بالطبع، ثم الثورة الفرنسية). وإذا ما حصلت الصدفة وانتصرت فكرتهم فإن هذا النجاح سوف يكون مؤشراً على فوزى^(٥) عميقة تؤدي في النهاية إلى مركزية جديدة أكثر صرامة من القديمة.

لنستنتج من كل ما سبق أن البحث عن وسيلة للتأثير على روح الجماهير لا ينبغي أن يكون في المؤسسات. فبعض البلدان، كالولايات المتحدة مثلاً، تزدهر بشكل رائع من خلال المؤسسات الديمقراطية. وبعضها الآخر، كالجمهورية الإسبانية الأمريكية، تعيش بشكل خامل على الرغم من وجود مؤسسات مشابهة. ولا علاقة لهذه المؤسسات بعظمة الولايات المتحدة، كما أنه لا علاقة لها بانحطاط الجمهوريات المذكورة. فهي ليست السبب. فالشعوب تبقى محكومة بخصائصها وطباعها. وكل المؤسسات التي لم تتلبس كلياً هذه الطباع لا تمثل إلا رداء مستعاراً، وقناعاً مؤقتاً. لا ريب في أنه قد حصلت حروب دموية، وثورات عنيفة، وسوف تحصل في المستقبل أيضاً من أجل فرض مؤسسات تعزى إليها مقدرة خارقة للطبيعة على خلق السعادة. وبالتالي فيمكننا القول بمعنى من المعاني أن المؤسسات تؤثر على روح الجماهير لأنها تولد انتفاضات كهذه. ولكننا نعرف في الواقع أنها سواء أكانت منتصرة أم مغلوبة، فإنها لا تمتلك بحد ذاتها أي فضيلة. وبالتالي فإن متابعة اقتناصها والحصول عليها تشبه ملاحقة الأوهام.

٥ - التعليم والتربية

من بين أوائل الأفكار المهيمنة في عصرنا توجد الفكرة التالية : إن النتيجة المؤكدة للتعليم تكمن في تحسين أوضاع البشر وأصلاحيهم ، بل وجعلهم متساوين . وبسبب من تكرار هذه الفكرة دون كلل أو ملل فإنها قد أصبحت إحدى العقائد الأكثر رسوخاً للديمقراطية . وقد أصبح جداً من الصعب المسّ بها الآن أو مناقضتها كما كان من الصعب سابقاً أن يمسّ المرء إحدى عقائد الكنيسة .

ولكننا نجد أن الأفكار الديمقراطية تقع في تناقض عميق مع معطيات علم النفس والتجربة فيما يخص هذه النقطة ونقاط أخرى عديدة . فالفلاسفة العديدون ، وخصوصاً هيربيرت سبنسر كانوا يستطيعون البرهنة بسهولة على أن التعليم لا يجعل الإنسان لا أكثر أخلاقية ولا أكثر سعادة ، وإنه لا يغير غرائزه وأهواءه الوراثية . وإذا ما طبق بشكل سيّء فإنه يصبح ضاراً أكثر مما هو نافع . وقد أكد علماء الإحصاء على هذه الآراء عندما قالوا لنا بأن الجريمة تتزايد مع تعميم ظاهرة التعليم ، أو على الأقل تعميم نوع معين من أنواع التعليم . كما وبرهنوا لنا على أن أكبر أعداء المجتمع ، أي الفوضويين ، يجندون غالباً في صفوف الفائزين الأوائل في المدارس . وقد لاحظ أحد القضاة المرموقين السيد أدولف غيلو إننا نعد الآن ثلاثة آلاف مجرم متعلم مقابل ألف مجرم أمي . وقال بأن الجريمة قد زادت خلال خمسين عاماً من مائتين وسبعة عشرين مقابل كل مائة ألف شخص إلى خمسمائة واثنين وخمسين مقابل نفس العدد ، أي أن الزيادة كانت بنسبة ١٣٣٪ . كما واكتشف أيضاً مع زملائه أن الجريمة تتزايد أساساً لدى الشبيبة التي حلت لديها المدرسة المجانية محل سلطة رب العمل .

بالطبع لا أحد يقول بأن التعليم الجيد لا يؤدي إلى نتائج مفيدة جداً . وإذا كان لا يرفع مستوى الأخلاقية لدى الشخص ، فإنه على الأقل يتيح له تطوير قدراته المهنية . للأسف ، فإن الشعوب اللاتينية قد أسست نظامها التعليمي ، خصوصاً منذ ثلاثين سنة ، على مبادئ ناقصة

جداً. وعلى الرغم من الملاحظات الانتقادية التي وجهها إليه مفكرون كبار إلا أنهم يصرون على خطئهم الفادح. وكنت أنا شخصياً قد بينت في كتب عديدة^(٦) أن تعليمنا الحالي يحول عدداً كبيراً من أولئك الذين يتلقونه إلى أعداء للمجتمع. كما أنه يقدم الكثير من المجندين والأنصار للإنخراط في أبشع أنواع الإشتراكية.

والخطر الأول لهذه التربية المدعوة حقاً باللاتينية هو ارتكازها على خطأ نفسي أساسي مفاده أن استذكار الكتب المدرسية يطور الذكاء أو يجعله يتفتح. وبناء على ذلك فيجهد الطلاب في تعلم أكبر قدر من المواد والمعلومات واختزانها. وهكذا نجد أن الطالب الشاب ما ينفك منذ السنة الابتدائية وحتى الدكتوراه أو شهادة التبريز يبتلع مضمون الكتب بدون أن يشغل عقله أو رأيته الشخصي. فالتعليم بالنسبة له يتمثل في الحفظ والطاعة. يقول السيد جول سيمون الوزير السابق للتعليم بهذا الصدد ما يلي: «إن تعلم الدروس وحفظ القواعد أو المختصرات عن ظهر قلب، ثم تردادها وتقليدها جيداً يشكل ثقافة مسلية. وفيها نجد أن كل جهد هو عبارة عن إيمان واعتقاد بمعصومية الأستاذ. وهي لا تؤدي في النهاية إلا إلى خفض مستوانا وجعلنا عاجزين».

ولو كان هذا التعليم عديم الجدوى فقط لاكتفينا بالحزن والرثاء على الأطفال الذين يعلمون بدلاً من الأشياء الكثيرة الضرورية شجرة النسب لأبناء كلوتير وصراعات نوستري وأوستراسي أو التصنيفات الحيوانية، ولكنه يمثل خطراً أكبر بكثير لأنه يوحى للطفل الذي تلقاه تقززاً عنيفاً من البيئة التي ولد فيها والرغبة الشديدة في الخروج منها. فالعامل لم يعد يرغب في أن يبقى عاملاً، والفلاح لم يعد يرغب في أن يبقى فلاحاً، وآخر البورجوازيين لم يعد يرى لأولاده من مهنة ممكنة إلا أن يصبحوا موظفين ذوي رواتب لدى الدولة. وبدلاً من تحضير رجال المستقبل لمواجهة الحياة، فإن المدرسة لا تحضرهم إلا للوظائف العامة حيث لا يتطلب النجاح أي جهد شخصي أو مبادرة ذاتية من طرف الطالب. فهو يخلق في أسفل السلم الاجتماعي جيوشاً من

الفصل الأول: العوامل البعيدة المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

البروليتاريين الناقمين على وضعهم والمستعدين دائماً للتمرد. ويخلق في أعلى السلم الاجتماعي بورجوازيتنا الطائشة، المتشككة والسادجة في آن معاً. هذه البورجوازية التي تثق ثقة خرافية بالدولة وكأنها قادرة على صنع المعجزات. وعلى الرغم من ذلك فهي تلومها باستمرار وتتهم الحكومات باقتراف أخطائها الخاصة بالذات. وهي عاجزة عن القيام بأي مبادرة أو مشروع بدون تدخل السلطة.

والدولة التي تخرج بواسطة هذه الكتب المدرسية البائسة كل هؤلاء الطلاب لا تستطيع أن توظف منهم إلا عدداً صغيراً، وتترك الآخرين بدون عمل. وبالتالي فعلوها أن تقنع بإطعام الأولين، وجعل الآخرين أعداء لها. ومن أعلى الهرم الاجتماعي إلى أسفله نجد أن الكمية الضخمة من الخريجين تحاصر كل المهن والوظائف اليوم. فالتاجر لا يجد إلا بصعوبة شديدة وكيلاً يقبل بالذهاب إلى المستعمرات لتمثيله فيها. ولكن أكثر الوظائف تواضعاً تتلقى آلاف الطلبات من قبل المرشحين للتوظيف. فمحافظة السين تحتوي وحدها على عشرين ألف معلم ومعلمة بدون عمل. وبما أنهم يحتقرون العمل في الحقول أو في المصانع فإنهم يتوجهون بطلباتهم إلى الدولة لكي يعيشوا. وبما أن عدد المقبولين محدود، فإن عدد الناقمين كبير بالضرورة. وهؤلاء الآخرون مستعدون لخوض كل الثورات أياً تكن أهدافها أو قاداتها. فاكساب المعارف التي لا يمكن استخدامها هو الوسيلة المؤكدة لتحويل الإنسان إلى متمرّد^(٧).

بالطبع فقد فات الأوان لتدارك مثل هذا الأمر وعكس التيار. فوحدها التجربة، المربية الأولى والأخيرة للشعوب، قادرة على الكشف عن خطئنا. ووحدها قادرة على إقناعنا بضرورة تغيير كتبنا المدرسية الغبية، ومسابقاتنا المحزنة واستبدال التعليم المهني والتخصصي بها. فهو وحده القادر على إعادة الشبيبة إلى الحقول والمصانع والشركات الاستعمارية المهجورة اليوم.

وهذا التعليم المهني الذي يطالب به جميع المستنيرين اليوم هو

الذي كان قد تلقاه آباؤنا بالأمس . وهو الذي عرفت الشعوب التي تهيمن اليوم على العالم بإرادتها ونشاطها وحس المبادرة لديها أن تحافظ عليه . وقد بين «تين» في صفحات ناصعة سوف أقدم فيما بعد أهم مقاطعها كيف أن نظامنا التعليمي في الماضي كان يماثل تقريباً نظام التعليم الإنكليزي أو الأمريكي السائد اليوم . ثم يقيم مقارنة رائعة بين النظام اللاتيني والنظام الأنغلوساكسوني ، ويبين النتائج والإنعكاسات المترتبة على كل منهما (أي على منهجيهما) .

ربما كان ممكناً أن نقبل كل أضرار نظامنا التعليمي الكلاسيكي ، هذا على الرغم من أنه لا ينتج إلا الساقطين والناقمين لو أن الإكتساب السطحي لكل هذه المعلومات والترداد البيغائي لكل تلك الكتب المدرسية يرفعان من مستوى الذكاء والفهم . ولكن هل يؤدي بالفعل إلى هذه النتيجة؟ لا ، للأسف الشديد ! فالحكم الصائب والتجربة وحس المبادرة والطبع القوي تشكل شروطاً للنجاح في الحياة ، ولا يمكننا أن نجدوها في الكتب . ذلك أن الكتب هي عبارة عن قواميس مفيدة للاستشارة ، ولكن ليس ضرورياً أبداً أن نخزن في الرأس مقاطع مطولة منها .

كيف يمكن للتعليم المهني أن يطور الذكاء إلى حد يستعصي تماماً على التعليم الكلاسيكي؟ لقد بين لنا ذلك العلامة تين في السطور التالية :

«إن الأفكار لا تتشكل إلا في وسطها الطبيعي والعادي . والشيء الذي يثبت براعمها هو الإنطباعات الحسية العديدة جداً والتي يتلقاها الصبي كل يوم في المشغل أو في المنجم أو في المحكمة أو في المدرسة أو في الورشة أو في المستشفى أو في مجموعة الآلات .

لنقل : أجهزة وعمليات تحت تصرف الزبائن ، والعمال ، عمل ، وبضاعة مشغولة بشكل جيد أو رديء ، غالية الثمن أو مربحة . هذه هي الأشياء الحسية التي تبصرها العين والأذن والأيدي وحتى حاسة الشم . وهي التي يتلقاها التلميذ الصغير بشكل لا إرادي من الطبيعة بعد أن

الفصل الأول: العوامل البعيدة المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

تنضج بشكل صامت، ثم تنتظم فيه لكي توجه عاجلاً أو آجلاً نحو هذه التركيبة الجديدة أو غيرها، ونحو هذا التبسيط، أو ذلك الاقتصاد، أو تلك التمامية والاختراع. ونلاحظ أن الطفل الفرنسي محروم من كل هذه الإتصالات الثمينة، ومن كل هذه العناصر الضرورية والقابلة للتمثل والهضم. وبشكل أخص فهو محروم منها في أخصب مراحل عمره. وبدلاً من ذلك فهو مسجون لمدة سبع أو ثمان سنوات في المدرسة بعيداً عن التجربة المباشرة والشخصية التي كانت ستقدم له الفهم الدقيق والمنعش للأشياء، وللشعر، ومختلف الأساليب للتعامل معها ومعهم.

... وعلى الأقل فتسعة على عشرة من هؤلاء التلاميذ أضاعوا وقتهم وتعبهم وسنوات عديدة من حياتهم. وإنها لسنوات فعالة ومهمة، بل وحاسمة. احسبوا أولاً نصف أولئك الذين سيتقدمون للإمتحان أو حتى ثلثهم، فهم من الساقطين. ثم فيما بعد نجد من بين الناجحين أصحاب الدرجات والمسجلين وأصحاب الشهادات، أي كل أولئك المرهقين. فقد كلفهم المدرسون فوق طاقتهم عندما طلبوا منهم أن يرددوا في مجموعة العلوم وهم جالسون على الكرسي أو واقفون أمام اللوح طيلة ساعتين كاملتين الفهرس الجامع لكل المعارف البشرية! في الواقع إنهم فعلوا ذلك أو كله تقريباً في اليوم المذكور ولمدة ساعتين. ولكن بعد شهر من ذلك التاريخ، لا يعودون يعرفون شيئاً يذكر لأنهم لن يتعرضوا مرة أخرى للإمتحان. وبما أن مكتسباتهم المعرفية عديدة أكثر مما يجب وثقيلة أكثر مما يجب فإنها تتبخر من عقولهم ولا يعوضون عنها بمعارف جديدة. فقوتهم العقلية تدهورت، والنسغ الخصب جف ونضب. فالإنسان المصنوع بشكل جاهز يظهر للعيان، وفي الغالب يظهر كإنسان منته. فهذا الإنسان المدجّن والمتزوج والمستسلم للدوران في حلقة مفرغة إلى ما لا نهاية ينغلق داخل وظيفته الضيقة. وهو يقوم بواجبه كما ينبغي، ولكن لا شيء آخر. وهذا هو المردود الوسطي، وبالتأكيد فإن الحصيلة الناتجة لا تساوي الثمن المدفوع. وأما في إنكلترا وأمريكا كما في فرنسا قبل (١٧٨٩) فإنهم يستخدمون المنهجية المعاكسة، وكان المردود الحاصل مساوٍ للجهد المبذول أو أكبر منه».

إن المؤرخ الشهير يبين لنا فيما بعد الفرق بين نظامنا التعليمي ونظام الأنغلوساكسون. فالتعليم لديهم لا يجيء من الكتب وإنما من الأشياء ذاتها. فالمهندس مثلاً يتدرب في المشغل ونادراً في المدرسة، وكل طالب يتوصل بالضبط إلى الدرجة التي يمتلكها عقله. فهو يتوصل إلى درجة العامل أو رئيس العمال إذا كان ذكاؤه لا يسمح له بالذهاب أبعد من ذلك. وهو يتوصل إلى مرتبة مهندس إذا كانت ملكاته تسمح بذلك. وهذه هي الطريقة الديمقراطية والمفيدة للمجتمع. فهي أفضل من تلك التي تجعل كل مستقبل الفرد ومهنته تعتمد على مسابقة تدوم بضع ساعات فقط، وتتم في سن الثامنة عشرة أو العشرين.

ثم يتابع تين قائلاً:

«إن التلميذ الذي دخل صغيراً جداً للتدرب في المستشفى أو في المنجم أو في المصنع أو لدى المهندس المعماري أو لدى المحامي يحصل على تدريبه الأولي ودورته التعليمية تماماً كما يفعل رجل الدين الذي يكرس نفسه للدراسة أو التلميذ الرسام في محترفه. فهو قد حصل مسبقاً، أي قبل الدخول، على بعض الدروس العامة والمختزلة من أجل أن يمتلك إطاراً جاهزاً لكي يوضع فيه الملاحظات التي سوف يسجلها لاحقاً. ولكنه يجد في متناول يده غالباً بعض الدروس التقنية التي يمكنه حضورها في ساعات فراغه، وذلك من أجل تنسيق التجارب اليومية التي يقوم بها شيئاً فشيئاً. وفي ظل نظام كهذا تقوى المقدرة العملية للتلميذ وتزايد من تلقاء ذاتها، وذلك بحسب درجة ذكائه ومواهبه، وطبقاً للاتجاه الذي تتطلبه مهمته المقبلة عن طريق الاختصاص الذي انخرط فيه منذ تلك اللحظة وأراد التأقلم معه. وبهذه الطريقة يتوصل التلميذ في إنكلترا والولايات المتحدة إلى تقديم أفضل ما يمكن أن يعطيه أو تقدر أن تعطيه مواهبه. ومنذ سن الخامسة والعشرين وحتى قبل ذلك بكثير يستطيع إذا كانت الملكات لا تنقصه أن يكون ليس فقط منفذاً نافعاً لمهنة ما، وإنما أيضاً مقاولاً حقيقياً ليس فقط بالدولاب وإنما بالمحرك زيادة على ذلك. وأما في فرنسا فقد سيطرت

الفصل الأول: العوامل البعيدة المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

المنهجية المعاكسة وأصبحت أكثر بلادة في كل جيل، وبالتالي فإن مجمل القوى الضائعة يبدو ضخماً».

ثم يتوصل الفيلسوف الكبير إلى النتيجة التالية الخاصة بالتفاوت المتزايد بين تعليمنا اللاتيني والحياة العملية ويقول:

«هناك طبقات ثلاث للتعليم تخص مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب. والتحضير النظري والمدرسي على مقاعد الدرس بواسطة الكتب تطاول وأثقل بالدرجات والشهادات والإجازات من أجل الإمتحان فقط. واستخدموا لذلك أسوأ الوسائل عن طريق تطبيق نظام ضد الطبيعة وضد المجتمع لأنه يؤجل باستمرار مرحلة التدريب العملي وذلك بواسطة نظام التعليم الداخلي والتدريب الاصطناعي والتعبئة الميكانيكية، ثم بواسطة الإرهاق الذي لا يبالي بالزمن التالي، أي عندما يبلغ الإنسان سن النضج ويمارس مسؤولياته ومهنته بغض النظر عن العالم الحقيقي الذي سيسقط منه لاحقاً الشاب الصغير، وعن المجتمع المحيط الذي ينبغي أن يتأقلم معه أو يستسلم له سلفاً، وعن الصراع البشري الذي ينبغي عليه لكي يدافع عن نفسه ويقف على قدميه أن يجهز نفسه بشكل جيد مسبقاً ويسلح نفسه ويتدرب على الصعوبات ويصبح قوياً خشناً. وهذا التجهيز الضروري، وهذا الإكتساب الأكثر أهمية من كل ما عداه، وهذا الثبات للحس الصائب وللإرادة وقوة الأعصاب، كل ذلك لا توفره مدارسنا للتلميذ. على العكس. فبدلاً من أن تجعله مؤهلاً كفوفاً فإنها تنزع عنه كل أهلية وكفاءة فيما يخص مستقبله ووظيفته اللاحقة والنهائية. وبناء على ذلك فإن دخوله إلى مسرح العالم وخطواته الأولى في حقل الممارسة العملية ليست في غالب الأحيان إلا سلسلة متتابعة من السقوط المؤلم. ويظل يثني تحت وطأتها، ومدعو كلاً لزمان طويل بسببها، وأحياناً عاجزاً أو مقعداً في البيت. وإنها لمحنة شاقة وخطرة. فالتوازن الأخلاقي والعقلي يفسد فيها ويصبح مهدداً بعدم العودة إلى سابق عهده من جديد. ثم تجيء فترة انقشاع الأوهام بشكل مفاجيء ومطبق، فالخيبات كانت أكبر مما يجب، والمرارات أقوى مما يمكن احتمالها»^(٨).

هل ابتعدنا في كل هذه الإستشهادات والصفحات عن نفسية الجماهير؟ لا، بالتأكيد. ولكي نفهم الأفكار والعقائد التي تزرع اليوم وتتفتح غداً، فإنه ينبغي علينا أن نفهم كيف تمت عملية تحضير الأرض وتمهيدها. فالتعليم الذي يقدم لشببية بلد ما يتيح لنا أن نستشرف قليلاً مصير هذا البلد ومستقبله. وتربية الجيل الحالي تبرر كل التوقعات والمخاوف السوداء. فمع التعليم والتربية تتحسن روح الجماهير أو تفسد، فهما مسؤولان عن ذلك جزئياً. وبالتالي فقد كان من الضروري تبيان كيف أن النظام الحالي قد شكل وعيها وعقليتها، وكيف أن أغلبية اللامبالين والحياديين قد أصبحت تدريجياً جيشاً هائلاً من الناقمين المستعدين لاتباع كل تحريضات الطوباويين وخطباء البلاغة والكلام. إن المدرسة تخرج اليوم الناقمين والفوضويين وتهيب للشعوب اللاتينية زمن الانحطاط.

الفصل الثاني

العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل آراء الجماهير

كنا قد تحدثنا عن العوامل البعيدة والتمهيدية التي تزود روح الشعوب بقابلية استقبال خصوصية، وتجعل ممكناً لدى الجماهير تفتح بعض العواطف وازدهار بعض الأفكار. وبقي علينا الآن أن نتفحص العوامل القابلة لممارسة عمل فوري ومباشر. وسوف نرى في فصل مقبل كيف ينبغي تسيير هذه العوامل من أجل أن تولد كل الآثار والنتائج المطلوبة.

إن الجزء الأول من كتابنا هذا قد عالج عواطف الجماعات البشرية وأفكارها ومحااجاتها أو حججها. وهذه المعرفة قادرة بالطبع وبشكل عام على تقديم الوسائل الكفيلة بالتأثير على روح الجماهير وجذبها. ونحن نعرف الآن ما الذي يدهش مخيلة الجماهير ويصدمها. كما ونعرف قوة التحريضات وحجم عدواها وانتشارها وخصوصاً إذا ما قدمت على هيئة صور. ولكن بما أن التحريضات الممكنة هي من أصول شديدة الاختلاف، فإن العوامل لقادرة على التأثير على روح الجماهير يمكنها أن تكون مختلفة بما فيه الكفاية. وبالتالي فمن الضروري أن ندرسها بشكل منفصل. فالجماهير تشبه إلى حد ما طائر العنقاء في الخرافة القديمة. بمعنى أنه ينبغي أن نعرف كيف نحل المشاكل التي تطرحها نفسياتها علينا، أو أن نستسلم لها فتبتلعنا.

١ - الصور، والكلمات، والعبارات (أو الشعارات)

عندما درسنا مخيلة الجماهير رأينا أنها تتأثر بالصور بشكل خاص.

فهي تبهرها فعلاً. وإذا لم نكن نمتلك الصور فإنه من الممكن أن نشيرها في مخيلة الجماهير عن طريق الإستخدام الذكي والصائب للكلمات والعبارات المناسبة. فإذا ما استخدمناها بشكل فني لبق فإنها تستطيع عندئذ أن تمتلك القوة السرية التي كان اتباع السحر يعزونها إليها في الماضي. فهي تثير في روح الجماهير العديدة أقوى أنواع الإعصار، ولكنها تعرف أيضاً كيف تهدئها. ويمكننا أن نبني هرمًا أكثر علوًا من هرم كيوبس العتيق بواسطة عظام الضحايا فقط، أقصد ضحايا الجماهير التي هيبتها الكلمات والعبارات.

إن قوة الكلمات مرتبطة بالصور التي تثيرها، وهي مستقلة تماماً عن معانيها الحقيقية. والكلمات التي يصعب تحديد معانيها بشكل دقيق هي التي تمتلك أحياناً أكبر قدرة على التأثير والفعل. نضرب على ذلك مثلاً الكلمات التالية: ديمقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية، إلخ. . . فمعانيها من الغموض بحيث إننا نحتاج إلى مجلدات ضخمة لشرحها. ومع ذلك فإن حروفها تمتلك قوة سحرية بالفعل، كما لو أنها تحتوي على حل لكل المشاكل. فهي تجمع المطامحة اللاواعية المتنوعة وتركبها، وتحتوي على الأمل بتحقيقها.

فالعقل والمحاجات العقلانية لا يمكنها أن تقاوم بعض الكلمات والصياغات التعبيرية. فما إن تُلفظ بنوع من الخشوع أمام الجماهير حتى تعلو آيات الاحترام على الوجوه وتنحني الجباه لها. والكثيرون يعتبرونها بمثابة قوة من قوى الطبيعة، أو قوى خارقة للطبيعة. فهي تثير في النفوس صوراً مجيدة وغامضة، ولكن الغموض الذي يظللها يزيد من قوتها السرية. ويمكننا أن نقارنها بتلك الآلهة المرعبة المختبئة وراء خيمة لا يقترب منها الرجل الورع إلا وهو يرتجف مرتعشاً.

وبما أن الصور المشارة من قبل الكلمات مستقلة عن معانيها، فإنها تختلف من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب، على الرغم من تماثل الصياغات التعبيرية ذاتها. وترتبط مؤقتاً ببعض الكلمات بعض الصور. فالكلمة ليست إلا الزر الذي نكبسه لكي تخرج الصور فوراً.

الفصل الثاني : العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل آراء الجماهير

ولا تملك كل الكلمات أو العبارات القدرة على الإيحاء بالصور أو إثارتها. ومنها ما يرث ويتبدل بعد أن كان قادراً على إثارتها، ولا يعود يوقظ أي شيء في الروح وهي عندئذ تصبح أصواتاً فارغة هدفها إعفاء من يستخدمها من ضرورة التفكير. ومع المخزون الصغير من الصياغات التعبيرية والأشياء المبتذلة المتعلّمة في الطفولة، فإننا نمتلك كل ما يلزمنا من أجل عبور الحياة بدون الحاجة المتبعة والمضنية لأن نفكر.

فإذا ما أخذنا لغة معينة للدراسة، وجدنا أن الكلمات التي تتركب منها تتغير ببطء كبير عبر القرون والعصور. ولكن الصور التي تثيرها أو توحى بها تتغير دون توقف، وكذلك المعنى الذي نربطه بها. ولهذا السبب توصلت في كتاب آخر إلى نتيجة مفادها أن الترجمة الدقيقة للغة ما، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بالشعوب الميتة، هي شيء مستحيل كلياً. فماذا نفعل نحن في الواقع عندما نحل كلمة فرنسية محل كلمة لاتينية أو إغريقية أو سنسكريتية أو حتى عندما نبحث عن فهم كتاب مكتوب في لغتنا الخاصة منذ بضعة قرون؟ إننا نحل بكل بساطة الصور والأفكار التي أثارتها الحياة الحديثة في عقلنا محل المفاهيم والصور المختلفة بشكل قاطع والتي كانت الحياة القديمة قد جعلتها تولد في روح الأعراق الخاضعة لشروط وجود لا علاقة لها بشروط وجودنا. فأناس الثورة الذين توهموا أنهم يقلدون الإغريق والرومان لم يفعلوا إلا أن أعطوا للكلمات القديمة معنى لم تعرفه أبداً. فما هي أوجه التشابه التي يمكن أن توجد بين مؤسسات الإغريق والمؤسسات التي نعرفها حالياً وتحمل نفس الأسماء؟ فماذا كانت تعني الجمهورية آنذاك، اللهم إلا مؤسسة أرستقراطية مشككة من اتحاد مستبدين صغار يهيمنون على جمهور من العبيد الخاضعين للإستعباد المطلق؟ وهذه الارستقراطيات القروية المرتكزة على نظام العبودية ما كان بإمكانها أن توجد لحظة واحدة لولاه. وإذن فما العلاقة بين جمهوريتهم وجمهوريتنا؟

ثم لنأخذ كلمة الحرية أيضاً. فماذا يمكن أن تعني آنذاك من

شيء يشبه ما نفهمه منها اليوم؟ ماذا كانت تعني في فترة لم تكن تخطر فيها على بال أحد حرية التفكير؟ وحيث لم تكن فيها جريمة أكبر ولا أكثر ندرة من مناقشة آلهة المجتمع وقوانينه وأعرافه. وكلمة وطن كانت تعني عبادة أثينا أو سبارطة وليس أبداً عبادة اليونان التي كانت مشكلة من مدن متنافسة وفي حالة حرب دائمة. ولكن نفس الكلمة، ماذا كان يعني معناها لدى الغاليين القدماء المنقسمين إلى قبائل متنافسة، وأعراق ولغات وأديان مختلفة، والذين انتصر عليهم القيصر بكل سهولة لأنه كان له بينهم حلفاء بشكل دائم؟

فروما وحدها زودت بلاد الغال بوطن عندما حققت لها وحدتها السياسية والدينية. وبدون أن نعود كثيراً في الزمن إلى مثل هذا الحد، وإنما فقط قرنين، هل نعتقد أن معنى كلمة وطن كانت هي ذاتها لدى الأمراء الفرنسيين ككوندي الكبير مثلاً، هؤلاء الأمراء الذين تحالفوا مع الأجنبي ضد ملكهم؟ ثم ألم تكن الكلمة ذاتها تعني شيئاً آخر مختلفاً عن معناها الحديث بالنسبة للمغتربين؟ هؤلاء كان يتخيلون أنهم يطبقون قانون الشرف عن طريق محاربتهم لفرنسا، وهم في الواقع ينصاعون لوجهة نظرهم الخاصة لأن القانون الإقطاعي يربط الفلاح بالإقطاعي وليس بالأرض، وأنه حيث يهيمن الملك يوجد الوطن الحقيقي.

هكذا نجد أن الكلمات التي غيرت معناها عبر العصور كانت عديدة. ولا نستطيع أن نفهم المعنى الذي كان لها في الماضي إلا بعد بذل جهود كبيرة. وينبغي أن نقوم بقراءات عديدة، كما قالوا بحق، لكي نتوصل فقط إلى تصور معنى كلمة الملك مثلاً أو العائلة الملكية بالنسبة لأجداد أجدادنا. فماذا يمكن القول إذن بالنسبة لكلمات أكثر تعقيداً؟

نستنتج من ذلك إذن أن الكلمات ليس لها إلا معان متحركة ومؤقتة ومتغيرة من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب. وعندما نريد أن نؤثر على الجمهور بواسطتها، فإنه ينبغي علينا أولاً أن نعرف ما هو

الفصل الثاني : العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل آراء الجماهير

معناها بالنسبة له في لحظة معينة، وليس معناها في الماضي أو معناها بالنسبة لأفراد ذوي تكوين عقلي مختلف. فالكلمات تعيش كالأفكار.

وعندما تشعر الجماهير بنفور عميق من الصور التي تثيرها بعض الكلمات وذلك على أثر الانقلابات السياسية والمتغيرات التي أصابت العقائد، فإن الواجب الأول لرجل الدولة الحقيقي هو تغيير هذه الكلمات دون أن يمس الأشياء ذاتها بالطبع. فهذه الأخيرة مرتبطة جداً بالتكوين الوراثي ولا يمكن تغييرها أو تحويلها. فالأريب الحكيم توكفيل قال بأن إنجاز نظامي حكومة القناصل والأمبراطورية يتلخص أساساً في تلبس معظم مؤسسات الماضي بكلمات جديدة. بمعنى أنها تستبدل بالكلمات التي تثير في المخيلة صوراً مزعجة كلمات أخرى تمنع بجدتها إثارة مثل هذه الصور. فكلمة (taille) التي كانت تعني ضريبة تفرض قديماً في فرنسا أثناء الحروب أصبحت (Contribution foncière) أي المساهمة العقارية. وكلمة (gabelle)، أي ضريبة الملح أصبحت (L'impôt du sel) التي تعني نفس الشيء، وكلمة (les aides) التي كانت تعني المساعدات والتي أصبحت تعني مساهمات غير مباشرة وحقوق في آن معاً (Contribution indirectes et droits réunis) ثم كلمة (La taxe des maîtrises et jurandes) أي ضريبة السيطرة والتكليف المحلف التي أصبحت تعني (Patente) أي ضريبة المهنة، إلخ . . .

وإذن فإن إحدى المهام الأساسية لرجال الدول هو أن يعمدوا بكلمات شعبية أو على الأقل حيادية الأشياء المحترقة من قبل الجماهير تحت أسمائها القديمة. فقوة الكلمات وتأثيرها من الضخامة بحيث أنه يكفي على القادة أن يعرفوا اختيار الكلمات لكي يجعلوا الجماهير تقبل أبشع أنواع الأشياء. ويلاحظ الفيلسوف تين بهذا الصدد أن اليعاقبة استطاعوا عن طريق رفع شعار الحرية والأخاء، أي الكلمتين الأكثر شعبية آنذاك، أن يفرضوا «نظاماً استبدادياً لا يقل بشاعة عن نظام داهومي، وأن ينصبوا محكمة مماثلة لمحاكم التفتيش، وأن يرتكبوا مذابح بشرية مشابهة لمذابح المكسيك القديمة».

والواقع أن براعة الحكام تتمثل، كبراعة المحامين، في معرفة كيفية التلاعب بالكلمات. وإنه لفن صعب. وذلك لأن نفس الكلمات تمتلك في نفس المجتمع معاني مختلفة بالنسبة للطبقات الاجتماعية المختلفة. فهذه الطبقات تستخدم ظاهرياً نفس الكلمات ولكنها لا تتكلم نفس اللغة.

في كل الأمثلة التي سبقت كنا قد أدخلنا عامل الزمن بصفته العامل الأساسي المؤدي إلى تغيير معاني الكلمات. وإذا ما أدخلنا أيضاً عامل العرق فإننا نجد في نفس الفترة ولدى شعوب متحضرة أيضاً ولكن من أعراق مختلفة إن الكلمات المتماثلة تدل غالباً على أفكار مختلفة تماماً. ولا يمكننا أن نفهم هذه الاختلافات إلا بعد القيام برحلات عديدة، وبالتالي فلا أستطيع الإلحاح عليها هنا. وإنما سأكتفي بالقول أن الكلمات الأكثر استخداماً هي بالذات الكلمات التي تمتلك المعاني الأكثر اختلافاً إذا ما انتقلنا من شعب إلى شعب. نضرب عليها مثلاً كلمتي ديمقراطية واشتراكية اللتين يشيع استخدامهما حالياً.

فالواقع إنهما تدلان على أفكار وصور متضادة تماماً لدى الروح اللاتينية من جهة، والروح الأنغلوساكسونية من جهة أخرى. فكلمة ديمقراطية تعني لدى اللاتين بشكل خاص إمحاء الإرادة وحس المبادرة لدى الفرد لكي تصبحا تابعتين للدولة.

فهذه الأخيرة تصبح مسؤولة أكثر فأكثر عن القيادة وتطبيق المركزية واحتكار تسيير الأمور والتصنيع. وإليها تلجأ كل الأحزاب بدون استثناء من راديكالية واشتراكية وملكية، وذلك بشكل مستمر. وأما لدى الأنغلوساكسون وخصوصاً في أمريكا فإن كلمة ديمقراطية ذاتها تعني على العكس التنمية المكثفة للإرادة ولل فرد، كما وتعني إمحاء الدولة وضعف دورها في تسيير الأمور. ففيما عدا قطاعات البوليس والجيش والعلاقات الدبلوماسية لا تقود الدولة أي شيء بما في ذلك قطاع التعليم. وبالتالي فإن نفس الكلمة تعني لدى هذين الشعبين معنى مختلفاً كلياً^(١).

٢ - الأوهام

لقد تعرضت الشعوب دائماً لتأثير الأوهام، وذلك منذ فجر البشرية. فهي قد أقامت أكثر المعابد والتماثيل والهيكل لخلقي الأوهام ومبدعيها. وكانت في الماضي القديم أوهاماً دينية، ثم أصبحت فلسفية واجتماعية في وقتنا الحاضر. ونحن نجد هؤلاء «الملوك - الأوهام» يتربعون على عرش كل الحضارات التي ازدهرت وتعاقت على سطح كوكبنا الأرضي. فباسم هذه الأوهام أقيمت معابد الكلدانيين ومعابد مصر، وكل النصب التذكارية الدينية في القرون الوسطى. وباسمها تم قلب أوروبا كلها قبل قرن من الزمان (المقصود أوهام الثورة الفرنسية). وليس لدينا أي تصور فني أو سياسي أو اجتماعي إلا وهو مطبوع بطابعها القوي. صحيح أن الإنسان قد يقلبها أحياناً بعد أن يدفع الثمن على هيئة اختلاجات وتشنجات مرعبة، ولكن يبدو أنه مجبر على إعادتها دائماً من جديد. فلولاها لما كان قادراً على الخروج من الهمجية البدائية، ولولاها لسقط في هذه الهمجية من جديد. لا ريب في أنها تمثل ظلالاً عبثية، ولكن بنات أحلامنا هذه قد حثت الشعوب على خلق كل ما يصنع بهاء الفنون وعظمة الحضارات. كتب أحد المؤلفين ملخصاً عقيدتنا بهذا الخصوص قائلاً:

«فلو أننا دمرنا كل الأعمال الفنية والنصب التذكارية المستلهمة من قبل الدين والموجودة في المتاحف والمكتبات وجعلناها تتساقط على بلاط الرصيف، فما الذي سيبقى بعدئذٍ من الأحلام البشرية الكبرى؟ إن سبب وجود الآلهة والأبطال والشعراء أو مبرر هذا الوجود هو خلع بعض الأمل والوهم على حياة البشر الذين لا يمكنهم أن يعيشوا بدونهما. وقد بدا لبعض الوقت أن العلم يضطلع بهذه المهمة. ولكن الشيء الذي حطَّ من مكانته في نظر القلوب الجائعة للمثال الأعلى، هو أنه لم يعد يجرؤ على توزيع الوعود هنا وهناك، كما أنه لا يعرف أن يكذب بما فيه الكفاية».

لقد كرس فلاسفة القرن الماضي جهودهم بكل حماسة لتدمير الأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التي عاش عليها آباؤنا طيلة قرون

عديدة. وهم بتدميرهم لها جعلوا منابع الأمل والخضوع تجف وتنضب. ووراء الأوهام المضحى بها كالقرايين وجدوا قوى الطبيعة العمياء التي لا ترحم بالنسبة للضعفاء ولا تعرف الشفقة.

وعلى الرغم من كل هذا التقدم الذي تحقق فإن الفلسفة لم تستطع أن تقدم للشعوب أي مثال أعلى قادر على أن يجذبها ويسحرها. وبما أن الأوهام تشكل ضرورة حتمية بالنسبة لها فإنها تتوجه بالغريزة نحو الخطباء البلاغيين الذين يقدمونها لها كما تتوجه الحشرة نحو الضوء غرائزياً أيضاً. والعامل الكبير لتطور الشعوب ما كان الحقيقة أبداً، وإنما الخطأ. وإذا كانت الاشتراكية تشهد اليوم ازدياد قوتها وانتشارها لدى الجماهير، فذلك لأنها تشكل الوهم الوحيد الذي لا يزال حياً حتى الآن. فالبرهنة الرياضية والعلمية على خطئها لا تعرقل أبداً مسارها الصاعد والمتدرج. وتعود قوتها الأساسية إلى أن المدافعين عنها أو حاملي لوائها هم من الجهلة بواقع الأمور، وبالتالي فهم قادرون على توزيع الوعود بتحقيق السعادة للإنسان. إن الوهم الاجتماعي يسيطر اليوم على كل أنقاض الماضي المتراكمة، والمستقبل له بدون شك. فالجماهير لم تكن في حياتها أبداً ظمأى للحقيقة. وأمام الحقائق التي تزعجهم فإنهم يحولون أنظارهم باتجاه آخر، ويفضلون تأليه الخطأ، إذا ما جذبهم الخطأ. فمن يعرف إيهامهم يصبح سيداً لهم، ومن يحاول قشع الأوهام عن أعينهم يصبح ضحية لهم.

٣ - التجربة

تشكل التجربة تقريباً المنهجية الوحيدة الفعالة من أجل زرع حقيقة ما في روح الجماهير بشكل راسخ، وتدمير الأوهام التي أصبحت خطرة أكثر مما ينبغي. ولكن ينبغي تعميمها على أوسع مستوى وبشكل مكرر ومعاد من أجل التوصل إلى أفضل نتيجة. وعموماً فإن التجارب التي عاشها جيل ما غير ذات جدوى بالنسبة للجيل اللاحق. ولهذا السبب فإن الأحداث التاريخية التي تضرب عادة كمثل على العظة والبرهنة لا تفيد شيئاً. ففائدتها الوحيدة تكمن فقط في البرهنة على مدى

الفصل الثاني : العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل آراء الجماهير

ضرورة تكرار التجارب من عصر إلى عصر من أجل أن تمارس بعض التأثير وتنجح في زعزعة خطأ راسخ بقوة.

فقرنا وذلك الذي سبقه سوف يستشهد بهما مؤرخو المستقبل بدون شك بصفتهما عصران للتجارب الغريبة. فلم يشهد أي عصر آخر في التاريخ من التجارب مثلما شهدا.

وأضحى تجربة شهدناها كانت الثورة الفرنسية. فلكي نكتشف أنه لا يمكن إعادة بناء المجتمع من جديد على أساس تعليمات العقل الخالص، لزمنا أن نقتل ملايين عديدة من البشر وأن نقلب أوروبا كلها طيلة عشرين سنة. ولكي نبرهن تجريبياً على أن القياصرة يكلفون غالباً الشعوب التي تصفق لهم، فإنه لزمنا خوض تجربتين منهكتين خلال خمسين عاماً وعلى الرغم من وضوحهما فإنه لا يبدو أنهما قد أقنعتا البشر. هذا على الرغم من أن الأولى قد كلفت ثلاثة ملايين رجل وغزو كامل، في حين أن الثانية أدت إلى التقسيم وضرورة الاستنفار المستمر للجيش. ثم حاولوا تجربة ثالثة أو بالأحرى مغامرة ثالثة منذ بضع سنوات، وسوف يحاولونها في المستقبل أيضاً. ولكي نجعل الجماهير تفهم أن الجيش الألماني الضخم لم يكن عبارة عن حرس وطني مسالم كما علمونا قبل عام (١٨٧٠) فإنه قد لزمنا أن ندفع الثمن غالياً ونخوض حرباً مرعبة^(٢). وسوف يلزمنا خوض تجارب مدمرة لكي نعرف بأن نظام الحماية يؤدي بالشعوب التي تعتمد على الإفلاس.

٤ - العقل

يمكن أن نعفي أنفسنا من ذكر العقل إذا ما عدّنا العوامل القادرة على التأثير على روح الجماهير. ولكننا سنتحدث عنه كعامل سلبي لا كعامل إيجابي في التأثير.

كنا قد برهنا على أن الجماهير لا تتأثر بالمحاجات العقلانية، ولا تفهم إلا الروابط الشاذة أو الفظة بين الأفكار. ولهذا السبب فإن محرّكي الجماهير من الخطباء لا يتوجهون أبداً إلى عقلها وإنما إلى

عاطفتها. فقوانين المنطق العقلاني ليس لها أي تأثير عليها^(٣). فلكي نقنع الجماهير ينبغي أولاً أن نفهم العواطف الجياشة في صدورهم، وأن نتظاهر بأننا نشاطرهم إياها ثم نحاول بعدئذٍ أن نغيرها عن طريق إثارة بعض الصور المحرصة بواسطة الربط غير المنطقي أو البدائي بين الأشياء. وينبغي أن نعرف في كل لحظة كيف نترجع، ثم ينبغي بشكل خاص أن نخمن في كل لحظة العواطف التي نولدها. إن هذه الحاجة لتنويع الخطاب الموجّه للجماهير طبقاً للأثر المتولد في اللحظة التي نتحدث فيها يمنع مسبقاً كل خطاب مدروس أو محضر بشكل جاهز. فالخطيب الذي يتبع فكره الخاص وليس فكر المستمعين يفقد بسبب ذلك وحده كل تأثير.

إن الناس المنطقيين المعتادين على سلسلة المحاجات العقلانية الصارمة نسبياً لا يستطيعون الإمتناع عن استخدام هذا النمط من الإقناع عندما يتوجهون إلى الجماهير. وهم يصابون بالدهشة والاستغراب دائماً لأن كلامهم لا يلقي أي صدى لدى الجماهير. يقول أحد المناطق: «إن الإنعكاسات الرياضية المعتادة المرتكزة على القياس، أي على روابط التماثل والتشابه، هي ضرورية... فالضرورة تجبر حتى الجماهير غير المنظمة على القبول إذا كانت هذه الجماهير قادرة على فهم القياس أو الروابط بين أشياء متشابهة ومتماثلة». لا ريب في ذلك. ولكن الجماهير ليست قادرة على فهمها، مثلها في ذلك مثل الكتلة غير المنظمة، وليست قادرة على سماعها. ولكي تتيقنوا من صحة ذلك حاولوا أن تقنعوا الناس البدائيين أو المتوحشين أو الأطفال مثلاً بواسطة المحاجة العقلانية، وعندئذٍ سوف تتأكدون بأنفسكم من القيمة الضعيفة التي يمتلكها هذا النمط من المحاجة.

ولسنا بحاجة حتى إلى النزول إلى هذا المستوى من الناس البدائيين لكي نلمس بيدنا عجز المحاجات العقلانية الكامل عندما تقع في صدام مع العواطف والمشاعر. لنذكر هنا فقط بمدى عناد واستمرارية الخرافات الدينية طيلة قرون وقرون على الرغم من تناقضها مع أبسط حدود المنطق. فخلال ألفي سنة تقريباً اضطرت أعظم

الفصل الثاني : العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل آراء الجماهير

العبقريات للإنحاء أمام قوانينها، وقد لزمنا انتظار العصور الحديثة لكي يطعن في صحتها. لا ريب في أن العصور الوسطى وعصر النهضة قد شهدت مفكرين مستنيرين، ولكن أياً منهم لم ينبه عقله إلى الجانب الطفولي لهذه الخرافات، أو شك لحظة واحدة بوجود الشيطان أو بالضرورة لحرق السحرة والمشعوذين.

والآن يطرح سؤال نفسه: هل ينبغي أن نأسف لأن العقل لا يقود الجماهير؟ نحن لا نجرؤ على قول ذلك. لا ريب في أن العقل البشري قد فشل في زج البشرية على طرق الحضارة بكل تلك القوة والجرأة التي أثارت فيها أوهامه. وبما أن هذه الأوهام هي بنت اللاوعي الذي يقودنا ويحركنا، فربما كانت ضرورية. وكل عرق بشري يحمل في تكوينه العقلي أو الذهني قوانين مصيره، وربما كان يخضع لهذه القوانين بغريزة محتومة حتى في نزواته الأكثر عقلانية ظاهرياً. ويبدو أحياناً أن الشعوب خاضعة لقوى سرية مشابهة لتلك التي تجبر البلوطة للتحويل إلى سنديانة، والمذنب إلى اتباع مداره.

والقليل الذي يمكن أن نفهمه عن هذه القوى ينبغي أن نبحث عنه في المسار العام لتطور شعب ما، وليس في الوقائع المعزولة التي يبدو أحياناً أن هذا التطور ينبثق عنها. وإذا لم نأخذ بعين الاعتبار إلا هذه الوقائع المعزولة، فإن التاريخ يبدو عندئذ بمثابة الصدف العشية. فقد كان من المستحيل تخيله أن يصبح نجار جاهل من جبل الجليل في فلسطين إلهاً جباراً طيلة ألفي عام. وقد بنيت باسمه أكبر الحضارات. وكان من المستحيل تخيله أيضاً أن تستطيع بعض الزمر العربية الخارجة لتوها من الصحراء أن تحتل الجزء الأكبر من العالم اليوناني - الروماني القديم وتؤسس امبراطورية أكبر من امبراطورية الإسكندر. وكان من المستحيل تخيله في أوروبا العتيقة جداً ذات النظام المراتبي والهرمي الصارم أن ينجح ضابط مدفعية بسيط في السيطرة على عدد كبير من الشعوب والملوك. (أي نابليون).

لنترك إذن العقل للفلاسفة، ولكن ينبغي ألا نطلب منه ما لا يستطيع: أي أن يتدخل كثيراً في قيادة البشر وحكمهم. وليس بالعقل، بل غالباً ضده، أبدعت عواطف كعاطفة الشرف والتفاني والإيمان الديني وحب المجد والوطن. ومن المعروف أنها كانت حتى الآن تمثل أكبر البواعث التي تقف خلف تشييد الحضارات.

الفصل الثالث

محركو الجماهير، وسائل الإقناع التي يمتلكونها

لقد أصبح التكوين العقلي للجماهير معروفاً لدينا الآن، وكذلك الأمر فيما يخص الدوافع التي تحركها وتؤثر عليها. بقي علينا أن نعرف الآن كيف ينبغي استخدام هذه الدوافع والمحركات ومن هو الذي يستطيع استخدامها بشكل ناجع وفعال.

١ - محركو الجماهير

ما إن يتجمع عدد ما من الكائنات الحية، سواء أكان الأمر يتعلق بقطيع من الحيوانات أو بجمهور من البشر، حتى يضعوا أنفسهم بشكل غريزي تحت سلطة زعيم ما، أي محرك للجماهير أو قائد.

ونلاحظ أن القائد يلعب دوراً ضخماً بالنسبة للجماهير البشرية. فإرادته تمثل النواة التي تتخلق حولها الآراء وتنصهر فيها. والجمهور عبارة عن قطيع لا يستطيع الإستغناء عن سيّد.

والقائد كان غالباً في البداية شخصاً مقوداً منبهراً بالفكرة التي أصبح فيما بعد رسولها ومبشراً بها. فقد غزته وهيمنت عليه إلى حد اختفاء كل شيء آخر ما عداها، وكل رأي معاكس لها يبدو له خطأ وخزعبلات. تضرب على ذلك مثلاً روبرتسبير المبهور بأفكاره الوهمية، والذي استخدم أساليب محاكم التفتيش من أجل نشرها.

إن القادة ليسوا في الغالب رجال فكر، ولا يمكنهم أن يكونوا، وإنما رجال ممارسة وانخراط. وهم قليلو الفطنة وغير بعيدى النظر.

فبعد النظر يقود عموماً إلى الشك وعدم الانخراط في الممارسة والعمل. ونحن نعر عليهم عادة في صفوف المصابين بالعصاب، وفي صفوف المهتاجين وأنصاف المعتوهين الذين يقفون على حافة الجنون. وأياً تكن عبثية الفكرة التي يدافعون عنها أو عبثية الهدف الذي يطاردونه، فإن كل حاجة عقلانية تذوب وتتلاشى أمام قناعتهم الإيمانية والعاطفية. والاحتقار الذي يلقونه من الآخرين أو الإضطهاد لا يفعلان إلا أن يزيدا من إثارتهم وتهيجهم أكثر فأكثر. فهم مستعدون للتضحية بمصالحهم الشخصية وبعائلاتهم وبكل شيء إذا لزم الأمر. وحتى غريزة حب البقاء تمحي لديهم إلى درجة أن المكافأة الوحيدة التي يرجونها غالباً هي الإستشهاد. وكثافة الإيمان تعطي لكلامهم قوة تحريضية كبيرة. فالكثرة تصغي دائماً للإنسان المزود بإرادة قوية. وبما أن الأفراد المتجمعين في الجمهور يفقدون كل إرادة فإنهم يتجهون غرائزياً نحو ذلك الشخص الذي يمتلكها.

والشعوب لم ينقصها أبداً قادة في التاريخ. ولكنهم لا يمتلكون جميعاً تلك القناعات القوية التي تصنع الرُّسل. فهؤلاء القادة هم غالباً عبارة عن خطباء ماهرين لا يفكرون إلا بمصالحهم الشخصية، وهم يحاولون إقناع الجماهير عن طريق دغدغة الغرائز الوضيعة. وبالتالي فإن النفوذ الذي يمارسونه على الناس يظل دائماً مؤقتاً وعابراً. أما المقتنعون الكبار بمبادئهم والذين استطاعوا التوصل إلى تحريك روح الجماهير وحماستها من أمثال بطرس الناسك ولوثر وسافونارول وقادة الثورة الفرنسية فهم لم يسحروا الجماهير ويبهروها إلا بعد أن كانوا هم بالذات قد سحروا بعقيدة ما أو بإيمان ما. وعندئذ استطاعوا أن يثيروا في النفوس تلك القوة الهائلة التي تدعى الإيمان، وهي القوة التي تجعل الإنسان عبداً مطلقاً لحلمه.

إن دور القادة الكبار يكمن في بث الإيمان سواء أكان هذا الإيمان دينياً أم سياسياً أم اجتماعياً. إنهم يخلقون الإيمان بعمل ما، أو بشخص ما، أو بفكرة ما. ومن بين كل القوى التي تمتلكها البشرية نجد أن الإيمان كان إحدى أهمها وأقواها. والانجيل على حق عندما يعزو

الفصل الثالث : محركو الجماهير، ووسائل الاقناع التي يمتلكونها

للإيمان قوة قادرة على زحزحة الجبال. فإذا ما تزود الإنسان بالإيمان تضاعفت قوته عشرات المرات. فغالباً ما أنجزت أحداث التاريخ الكبرى من قبل مؤمنين مجهولين لا يمتلكون إلا إيمانهم الخاص. والأديان التي حكمت العالم والأمبراطوريات الشاسعة الممتدة من طرف العالم إلى طرفه لم تؤسس من قبل الأدباء والفلاسفة، ولا المتشككين بالطبع.

ولكن مثل هذه الأمثلة لا تنطبق إلا على القادة الكبار، وهؤلاء نادرون جداً إلى حد أنه يمكن تعدادهم على مدار التاريخ. فهم يشكلون القمة في سلسلة متواصلة ونازلة مبتدئة بالمتلاعب الكبير بعقول البشر ومنتية بالعامل البسيط. أقصد بالعامل الموجود في نزل مليء بالدخنة، والذي يبهر ببطء زملاءه عن طريق تكرار بعض العبارات التي لا يفهمها على الإطلاق، ولكن التي يعتقد أن تطبيقها سوف يؤدي إلى تحقيق كل الأحلام والأمال.

وفي كل الدوائر الاجتماعية من أعلاها إلى أسفلها نجد أن الإنسان يقع تحت سيطرة قائد ما إذا لم يكن معزولاً. ونجد أن معظم الأفراد، خصوصاً في الجماهير الشعبية، لا يمتلكون، خارج دائرة اختصاصهم، أية فكرة واضحة ومعقنة، وبالتالي فهم عاجزون عن قيادة أنفسهم بأنفسهم. وهنا يجيء القائد لكي يقودهم. ويمكن أن تحل محله (ولكن بشكل ناقص جداً) تلك المطبوعات الدورية التي تصنع الآراء لقرائها وتؤمن لهم جملاً وعبارات جاهزة تعفيهم من عناء التفكير.

إن سلطة القادة استبدادية جداً، ولا تتمكن من فرض نفسها إلا بواسطة هذه الإستبدادية. وكنا قد لاحظنا مدى السهولة التي يفرضون طاعتهم بها على الجماهير على الرغم من أنهم لا يمتلكون أي وسيلة لدعم سلطتهم في الطبقات العمالية الأكثر شغياً. فهم الذين يحددون ساعات العمل، ويقررون موعد الإضرابات، ويفرضون بدايتها ونهايتها كما يشاؤون.

ويميل قادة الجماهير اليوم إلى أن يحلوا تدريجياً محل السلطات العامة كلما تركت هذه الأخيرة نفسها عرضة للمجادلة والإضعاف والنقض. ويستطيع هؤلاء الأسياد الجدد عن طريق طغيانهم أن يحصلوا من الجماهير على طاعة وانقياد أكبر بكثير مما تحصل عليه أي حكومة. وإذا ما حصل أن مات القائد بحادث ما ولم يستبدل به فوراً فإن الجمهور يتحول إلى تجمع بشري فقد تماسكه ومقاومته. ونضرب على ذلك مثلاً إضراب سائقي الباصات في باريس، فقد كان كافياً أن تقبض السلطات العامة على محركي الإضراب لكي يتوقف فوراً. والشيء الذي يهيمن على روح الجماهير ليس الحاجة إلى الحرية وإنما إلى العبودية. ذلك أن ظمأها للطاعة يجعلها تخضع غرائزياً لمن يعلن بأنه زعيمها.

ويمكننا تصنيف محركي الجماهير وقادتها إلى فئات متميزة بما فيه الكفاية. فبعضهم رجال نشطون ذوو إرادة قوية ولكن آنية ومؤقتة. وبعضهم الآخر أكثر ندرة بكثير، وهم يمتلكون إرادة قوية ودائمة في آن معاً. والأولون يبدون عنيفين، شجعاناً، جريئين. وهم يصلحون بشكل خاص لتوجيه ضربة خاطفة، وجبر الجماهير إلى ما يريدونه على الرغم من وجود الخطر، ثم تحويل منهكي الأمس إلى أبطال. نضرب على ذلك مثلاً ني ومورا^(١) في ظل الامبراطورية الأولى. ونضرب على ذلك مثلاً في أيامنا هذه غاريبالدي، المغامر بلا موهبة. ولكنه كان نشطاً وقد نجح بمساعدة حفنة من الرجال في اقتحام مملكة نابلي القديمة على الرغم من دفاع جيش قوي ومنظم عنها.

ولكن إذا كانت طاقة قادة كهؤلاء ضخمة وجبارة فإنها تبقى آنية ومؤقتة ولا يمكن أن تعيش طويلاً بعد المحرّض الذي ولّدها أو أثارها. فبعد أن يعودوا إلى الحياة العادية نجد الأبطال الذين كانوا مشحونين بهذه الطاقة يبدون ضعفاً مدهشاً كأولئك الذين استشهدت بهم آنفاً. فهم يبدون عاجزين عن التفكير والتصرف الناجح في الظروف الأكثر بساطة بعد أن كانوا قد عرفوا كيف يقودون الآخرين بكل ذكاء. وهؤلاء القادة لا يستطيعون ممارسة وظيفتهم إلا بشرط أن يكونوا مقودين أنفسهم

الفصل الثالث: محركو الجماهير، ووسائل الاقناع التي يمتلكونها

ومستشارين بدون توقف، وبشرط أن يشعروا بوجود رجل فوق رأسهم باستمرار أو وجود فكرة، وبشرط أن يتبعوا خطأ في السلوك محمداً تماماً.

أما الفئة الثانية من القادة والمتمثلة بالرجال ذوي الإرادة الدائمة فإنهم يمارسون تأثيراً أكبر بكثير على الرغم من استخدامهم لأساليب أقل بهاء وإشراقاً. وفي صفوفهم نجد المؤسسين الحقيقيين للأديان أو للمنجزات الكبرى: كالقديس بولس، ومحمد، وكريستوف كولومبس، وفردينان دي ليسبس. وسواء أكانوا أذكاء أم بليدين، فذلك لا يهم، لأن العالم سيكون دائماً لهم. فالإرادة الدائمة التي يمتلكونها تمثل ملكة نادرة جداً جداً، وجبارة إلى أبعد حد، وقادرة على أن تخضع كل شيء. ومهما فعلنا فلن نعرف بما فيه الكفاية مدى طاقة وإمكانيات الإرادة القوية والمستمرة. فلا شيء يستطيع مقاومتها أو الوقوف في وجهها: لا الطبيعة، ولا الآلهة، ولا البشر.

وآخر مثال على هؤلاء الرجال العظام جسده لنا ذلك المهندس الذي فصل بين عالمين وحقق المهمة التي حاول الملوك العظام تحقيقها طيلة ثلاثة آلاف عام، ولكن دون جدوى. وقد فشل فيما بعد في مهمة مماثلة، ولكنه كان قد شاخ، وكل شيء ينطفئ مع الشيخوخة بما فيها الإرادة. (المقصود فردينان دي ليسبس وشق قناة السويس).

ولكي نبرهن على مدى إمكانيات الإرادة وقدرتها، فإنه يكفي أن نستعرض بالتفاصيل قصة الصعوبات التي تم التغلب عليها أثناء شق قناة السويس. فشهد العيان، الدكتور كازاليس، لخص لنا ببضعة أسطر مؤثرة قصة هذا الإنجاز الكبير محكية من قبل منجزه الخالد. قال: «وقص علينا حلقات هذه الملحمة يوماً بيوم. قص علينا حكاية الصعوبات التي تغلب عليها، وكل المستحيل الذي جعله ممكناً، وكل العراقيل والتحالفات التي عقدت ضده، وكل الخيبات والتراجعات والهزائم التي لم تستطع تثبيط همته أو إحباطه. وقد تحدث لنا عن إنكلترا ومحاربتها له وهجومها عليه باستمرار. ثم تحدث عن مصر وفرنسا المترددة، وقال بأن قنصل فرنسا قد عارض أكثر من أي شخص

آخر أعمال الحفر الأولى ، ولما قاومناه ضغط على العمال العطشانين ومنع عنهم الماء العذب . ثم تحدث لنا عن وزير البحرية والمهندسين وكل الرجال المجريين والجادين المعادين بالطبع للمشروع . فقد كانوا كلهم مقتنعين بفشله علمياً فشلاً ساحقاً . وقد حسبوا مجيء هذا الفشل باليوم والساعة» .

إن الكتاب الذي يتحدث عن هذه الفئة من القادة العظام سوف يحتوي على عدد قليل من الأسماء . ولكن هذه الأسماء كانت على رأس الأحداث الأكثر أهمية للحضارة والتاريخ .

٢ - وسائل العمل التي يستخدمها المحركون أو القادة :

التأكيد ، التكرار ، العدوى

عندما يتعلق الأمر بقيادة جمهور ما للحظة معينة وحشه على ارتكاب عمل ما كأن ينهب قصرًا ، أو يدافع عن متراس ويتعرض للمجزرة بسببه ، فإنه ينبغي أن نؤثر عليه بواسطة محرضات سريعة . وأكثرها قدرة على الفعل والتأثير هو النموذج والقذوة أيضاً . ذلك أنه ينبغي تهيئة الجمهور عن طريق بعض الظروف الخاصة . كما وينبغي على الشخص الذي يريد قيادتها أن يمتلك تلك الميزة التي سأدرسها بعد قليل تحت اسم : الهيبة الشخصية .

وعندما نريد أن ندخل الأفكار والعقائد ببطء إلى روح الجماهير (كأن ندخل النظريات الاجتماعية الحديثة مثلاً) فإننا نجد أن أساليب القادة تختلف . فهم يلجأون بشكل أساسي إلى الأساليب الثلاثة التالية : أسلوب التأكيد ، وأسلوب التكرار ، وأسلوب العدوى . لا ريب في أن تأثيرها بطيء ، ولكنه دائم .

إن التأكيد المجرد والعاري من كل محاجة عقلانية أو برهانية يشكل الوسيلة الموثوقة لإدخال فكرة ما في روح الجماهير . وكلما كان التأكيد قاطعاً وخالياً من كل برهان كلما فرض نفسه بهيبة أكبر . فالكتب الدينية وقوانين كل العصور قد استخدمت دائماً أسلوب التوكيد المجرد

الفصل الثالث: محركو الجماهير، ووسائل الاقناع التي يمتلكونها

عن كل شيء. ورجال الدولة المدعوون للدفاع عن قضية سياسية معينة يعرفون قيمة التوكيد، وكذلك الأمر فيما يخص رجال الصناعة الذين ينشرون سلعهم عن طريق الإعلان.

ولكن الإعلان لا يكتسب تأثيراً فعلياً إلا بشرط تكراره باستمرار، وبنفس الكلمات والصياغات ما أمكن ذلك. كان نابليون يقول بأنه لا يوجد إلا شكل واحد جاد من أشكال البلاغة هو: التكرار. فالشيء المؤكد يتوصل عن طريق التكرار إلى الرسوخ في النفوس إلى درجة أنه يُقبل كحقيقة برهانية.

ويمكن أن نفهم جيداً تأثير التكرار على الجماهير عندما ننظر إلى الهبة التي يمارسها على الشخصيات الأكثر إستنارة. فعندما نكرر الشيء مراراً وتكراراً ينتهي به الأمر إلى الإنغراس في تلك الزوايا العميقة للاوعي حيث تصنع دوافع كل أعمالنا. فبعد أن تمر فترة من الزمن ننسى من هو مؤلف القول المكرر وينتهي بنا الأمر إلى حد الإيمان به. وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نفهم القوة الهائلة للإعلان. فعندما نقرأ مرة أن أفضل أنواع الشوكولاته هو نوع (س) مثلاً، فإننا نتخيل أننا قد سمعنا بذلك كثيراً وينتهي بنا الأمر إلى الاقتناع به كحقيقة يقينية. وبعد أن نسمع ألف مزعم عن فضائل الطحين (ع) مثلاً وأنه قد شفى أكبر الشخصيات من أعتى أنواع الأمراض، فإننا نصبح ميالين إلى استخدامه عندما نصاب بمرض مماثل. ومن كثرة ما يكررون في نفس الصحيفة أن (أ) هو وغدٌ حقير وأن (ب) هو رجل نبيل وشريف فإن الأمر ينتهي بنا إلى تصديق ذلك ما دمنا لم نقرأ صحيفة أخرى ذات رأي مضاد تماماً للأول. إن التأكيد والتكرار هما من القوة بحيث يقدران على محاربة بعضهما البعض.

وعندما يتاح لتوكيد ما أن يكرر بما فيه الكفاية، وأن يكرر بالإجماع، كما يحصل ذلك لبعض الشركات المصرفية التي تشتري كل المباريات أو المسابقات فإنه يتشكل عندئذٍ ما ندعوه بتيار الرأي العام. وعندئذٍ تتدخل الآلية الجبارة للعدوى وتفعل فعلها. وفي

الجماهير نجد أن الأفكار والعواطف والانفعالات والعقائد الإيمانية تمتلك سلطة عدوى بنفس قوة وكثافة سلطة الجرائم. ويمكننا أن نلاحظ هذه الظاهرة لدى الحيوانات نفسها، وذلك عندما تتجمع على هيئة جمهور. فصهاال حصان في اسطبل ما سرعان ما يعقبه صهاال الأحصنة الأخرى في نفس الاسطبل. وأي خوف أو حركة مضطربة ما تصيب بعض الخراف سرعان ما تنتقل إلى بقية القطيع. وعدوى الانفعالات هي التي تفسر لنا سر تلك المباغته والمفاجأة لظاهرة الهلع والخوف. والإضطرابات العصبية، كالجنون مثلاً، تنتشر أيضاً بواسطة العدوى. ونحن نعرف مدى انتشار الجنون لدى الأطباء النفسانيين. بل ويذكرون أن بعض أنواع الجنون (كالخوف المرضي من الأرض الخلاء) تنتقل من الإنسان إلى الحيوان بواسطة العدوى.

والعدوى لا تتطلب الحضور المتزامن للأفراد في نقطة واحدة. بل يمكن أن تنتشر على البعد بتأثير من بعض الأحداث التي توجه النفوس في نفس الاتجاه وتخلع على الجماهير ميزات الخاصة، وبخاصة إذا كانت مهياة لذلك عن طريق العوامل البعيدة التي درستها سابقاً. نضرب على ذلك مثلاً الانفجار الثوري الذي حصل في فرنسا عام (١٨٤٨). فقد انطلق من باريس وامتد فجأة لكي يشمل جزءاً كبيراً من أوروبا ويزعزع العديد من الأنظمة الملكية^(٢).

والتقليد الذي تعزى إليه تأثيرات كثيرة في الظواهر الاجتماعية ليس في الواقع إلا مجرد أثر من آثار العدوى. ولما كنت قد شرحت دوره في مكان آخر فإنني سأكتفي هنا بنقل ما كنت قد قلته منذ زمن طويل والذي كان قد وسع وزيد من قبل كتاب آخرين فيما بعد. قلت ما يلي:

«إن الإنسان يشبه الحيوانات فيما يخص ظاهرة التقليد. فالتقليد يشكل حاجة بالنسبة له بشرط أن يكون هذا التقليد سهلاً بالطبع. ومن هذه الحاجة بالذات يتولد تأثير الموضة (أو الأزياء الدارجة). وسواء أكان الأمر يتعلق بالآراء أم بالأفكار أم بالتظاهرات الأدبية أم بالأزياء بكل بساطة فكم هو عدد الذين يستطيعون التخلص من تأثيره؟ فنحن

الفصل الثالث: محركو الجماهير، ووسائل الاقناع التي يمتلكونها

نستطيع قيادة الجماهير بواسطة النماذج والموديلات وليس بواسطة المحاجات العقلانية. وفي كل فترة نلاحظ أن عدداً قليلاً من الشخصيات هي التي تطبعها بطابعها وتؤثر عليها، ثم تقلدهم الجماهير اللاواعية. ولكن لا ينبغي على هذه الشخصيات أن تنحرف كثيراً عن الأفكار الشائعة أو السائدة في عصرها. ذلك أن تقليدها عندئذ يصبح صعباً جداً، وتأثيرها معدوماً. ولهذا السبب بالذات فإن الأشخاص المتفوقين جداً في عصرهم ليس لهم أي تأثير عليه. ذلك أن المسافة بينهم وبين معاصريهم ضخمة أكثر مما يجب. ولهذا السبب بالذات فإن الأوروبيين لا يستطيعون ممارسة أي تأثير على شعوب الشرق على الرغم من كل الميزات والإمكانيات التي تتمتع بها حضارتهم.

قلت في كتاب سابق:

«إن التأثير المزدوج للماضي والتقليد المتبادل يؤديان في نهاية المطاف إلى جعل كل البشر التابعين لنفس البلد ونفس الفترة متشابهين إلى درجة أنه حتى أولئك الذين يتوقع منهم أن يفلتوا من هذا التشابه كالفلاسفة والعلماء والأدباء يبدون متشابهين في أسلوبهم ومطبوعين بطابع الفترة التي ينتمون إليها. ويكفي أن نتناقش مع فرد ما مرة واحدة لكي نعرف عمقاً نوعية القراءات التي تؤثر عليه، وكذلك همومه المعتادة والبيئة التي يعيش فيها»^(٣).

إن العدوى من القوة بحيث إنها تفرض على البشر ليس فقط بعض الآراء وإنما أيضاً بعض الطرق في الإحساس والشعور. فهي التي تجعل الناس يحتقرون في فترة ما عملاً أدبياً ما (كالتانهوسير مثلاً)، وهي التي تجعلهم بعد بضع سنوات يعجبون بنفس العمل، هم الذين كانوا قد تنكروا له واحتقروه.

وهكذا تنتشر الآراء والعقائد بواسطة آلية العدوى وليس بواسطة المحاجة العقلانية إلا في القليل النادر. والأفكار الحالية للعمال وتصوراتهم تتبلور في الحانات التي يلتقون فيها. وعقائد الجماهير في كل العصور تتبلور دائماً بهذه الطريقة. إن رينان يقارن بحق المؤسسين

الأوائل للمسيحية «بأولئك العمال الإشتراكيين الذين ينشرون أفكارهم من حانة إلى حانة». وكان فولتير قد لاحظ فيما يخص الدين المسيحي أن «أنذل الأوغاد هم وحدهم الذين اعتنقوه طيلة أكثر من مائة عام».

وفي الأمثلة المشابهة لتلك التي ضربتها نجد أن العدوى بعد أن تكون قد انتشرت في الطبقات الشعبية تنتقل إلى الطبقات العليا من المجتمع. هكذا نجد مثلاً في أيامنا هذه أن الأفكار الإشتراكية قد أخذت تصل إلى من سيكونون ضحاياها الأول. ذلك أنه أمام آلية العدوى فإن المصلحة الشخصية نفسها تضحل وتتلاشى.

ولهذا السبب فإن كل فكرة أتيح لها أن تصبح شعبية تفرض نفسها على الطبقات الاجتماعية العليا حتى ولو كانت عبثية هذه الفكرة المنتصرة واضحة للعيان. وهذا التأثير الذي تمارسه الطبقات الاجتماعية الدنيا على الطبقات العليا غريب فعلاً. نقول ذلك وخصوصاً أن عقائد الجمهور متفرعة قليلاً أو كثيراً وبشكل دائم عن فكرة عليا معينة ظلت غالباً دون أي تأثير على الوسط الذي ولدت فيه لأول مرة. وهذه الفكرة العليا يستولي عليها القادة المسحورون بها ثم ينشرونها بشكل مشوه أكثر فأكثر في أوساط الجماهير. وبعد أن تصبح فكرة شعبية فإنها تعود بشكل من الأشكال إلى منبعها الأول ثم تؤثر من جديد على الطبقات العليا في أمة من الأمم. وفي نهاية المطاف يمكن القول بأن الذكاء هو الذي يقود العالم، ولكنه يقوده من بعيد فعلاً، أي بعد وقت طويل. فالفلاسفة الخلاقون للأفكار لا تنصرف أفكارهم إلا بعد موتهم وتحول أجسادهم إلى غبار منذ زمن طويل. إنها تنصرف عن طريق الآليات التي كنت قد شرحتها آنفاً.

٣ - الهبة الشخصية

إذا كانت الآراء المنتشرة عن طريق التأكيد والتكرار والعدوى تمتلك قوة كبيرة، فذلك لأنها تمتلك تلك القوة السرية المدعوة بالهبة أو الإحترام.

الفصل الثالث: محركو الجماهير، ووسائل الاقناع التي يمتلكونها

وكل ما هيمن في العالم، من أفكار أو بشر، فرض نفسه أساساً عن طريق القوة التي تعبر عنها كلمة هيبة. ونحن نعرف جميعاً معنى هذه الكلمة، ولكنهم يطبقونها بأشكال مختلفة جداً. وبالتالي فليس من السهل تحديدها بدقة. والهيبة يمكنها أن تشمل على بعض العواطف كالإعجاب والخوف. وهما يشكلان أحياناً أساسها وقاعدتها. ولكن يمكنها أن تنوجد بدونهما. والدليل على ذلك أن بعض الأشخاص الموتى كالإسكندر المقدوني والقيصر ومحمد وبوذا لا يزالون يحظون حتى الآن بهيبة كبيرة على الرغم من أننا لم نعد نخشاهم.

في الواقع إن الهيبة هي عبارة عن نوع من الجاذبية التي يمارسها فردٌ ما على روحنا، أو يمارسها عمل أدبي ما أو عقيدة ما. وهذه الجاذبية الساحرة تشل كل ملكاتنا النقدية وتملأ روحنا بالدهشة والاحترام. والعواطف المثارة على هذا النحو لا يمكن تفسيرها ككل العواطف. ولكن ربما كانت من نفس نوع التحريض الذي يصيب شخصاً ممغنطاً (أي مصاباً بالمغناطيس). إن الهيبة هي أساس كل هيمنة. فالآلهة والملوك والنساء ما كان ممكناً أن تسيطر لولاها.

ويمكننا أن نعيد الأنواع المختلفة من الهيبة إلى نوعين أساسيين هما: الهيبة المكتسبة والهيبة الذاتية أو الشخصية. فالهيبة المكتسبة هي تلك التي تجيء عن طريق الإسم (اسم العائلة) والثروة والشهرة. ويمكنها أن تكون مستقلة عن الهيبة الشخصية. فالهيبة الشخصية تشكل، على العكس، شيئاً فردياً متعائشاً أحياناً مع الشهرة والمجد والثروة أو مدعوماً من قبلها، ولكنه قادر تماماً على التواجد بشكل مستقل.

إن الهيبة المكتسبة أو الاصطناعية أكثر انتشاراً بكثير. فيكفي أن يحتل فردٌ ما منصباً معيناً أو يمتلك ثروة ما أو يتزياً ببعض الألقاب حتى يصبح مكللاً بهالة الهيبة أياً تكن قيمته الشخصية منعدمة أو منحطة. فالضابط الذي يلبس بزته العسكرية والقاضي المتلفع بردائه الأحمر لهما دائماً هيبة. كان باسكال قد لاحظ بحق مدى حاجة القضاة للرداء والشعر المستعار. فبدونهما يفقدون جزءاً كبيراً من هيبتهم. فحتى

الاشتراكي الأكثر حماسة للاشتراكية يشعر بالتأثر والإنفعال لرؤية أمير ما أو مركيز. وألقاب كهذه كافية لأن تبتز من تاجر ما كل ما تريد^(٤).

إن الهيبة التي أثرتها آنفاً ممارسة من قبل الأشخاص، أي الأفراد. ويمكننا أن نتحدث أيضاً عن الهيبة التي تمارسها الأفكار الكبرى أو الأعمال الأدبية والفنية، إلخ. وهي في الغالب ليست إلا تكراراً متراكماً. إن التاريخ، والتاريخ الأدبي والفني بشكل خاص، هو فقط عبارة عن تكرار لنفس الأحكام التي لا يبحث أي شخص عن مجرد التحقق منها. فكل واحد ينتهي به الأمر إلى تكرار ما سمعه في المدرسة. وتوجد بعض الأسماء وبعض الأشخاص التي لا يجروء أحد على المسّ بها أو بهم. اضرب على ذلك مثلاً أعمال هوميروس. فهي مضجرة جداً بالنسبة للقارئ الحديث ولكن من يجروء على قول ذلك؟ وقصر البارتيون مثلاً ليس في حالته الراهنة إلا أنقاضاً خالية من أية أهمية، ولكنه يمتلك هيبة عالية إلى درجة أننا لم نعد نراه إلا من خلال موكب الذكريات التاريخية التي ترافقه. والخاصية الأساسية للهيبة هي أننا لا نعود نرى الأشياء كما هي عليه في الواقع، فتتشلّ بذلك قدرتنا على المحاكمة والتقييم. فالجماهير بحاجة دائماً إلى الأفكار الجاهزة، وكذلك الأفراد بحاجة إليها في الغالب. ونجاح هذه الأفكار مستقل عن جزء الحقيقة أو الخطأ الذي تحتوي عليه. إنه يكمن فقط في هيبتها وحظوتها.

والآن، بعد كل ما قلته سابقاً، أصل إلى الهيبة الشخصية. فهي من طبيعة مختلفة جداً عن الهيبة الإصطناعية أو المكتسبة، وتشكل ملكة مستقلة عن كل لقب أو كل سلطة. والعدد القليل من الأشخاص الذين يمتلكونها يمارسون سحراً مغناطيسياً حقيقياً على أولئك الذين يحيطون بهم بمن فيهم أندادهم. فهم يطيعونهم طاعة عمياء كما تطيع الدابة المتوحشة مروّضها على الرغم من أنها تستطيع أن تفتسه بكل سهولة.

إن قادة البشر الكبار من أمثال بوذا والمسيح ومحمد وجان دارك

الفصل الثالث: محركو الجماهير، ووسائل الاقناع التي يمتلكونها

ونابليون يمتلكون هذا النوع من الهيبة الشخصية في أعلى درجاتها. وعن طريقها بالذات استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم. فالآلهة والأبطال والعقائد تفرض نفسها فرضاً ولا تناقش. بل إنها تتلاشى مباشرة ما أن نناقشها.

والأشخاص الذين ذكرتهم قبل قليل كانوا يمتلكون قدرتهم الجبارة على الجذب قبل أن يصبحوا مشهورين بزمان طويل، وما كان بالإمكان أن يصبحوا مشهورين بدونها. فمثلاً كان نابليون في ذروة مجده يمتلك بواسطة قوته وحدها هيبة شخصية هائلة. ولكنه كان يمتلك جزئياً هذه الهيبة منذ بداية مهنته. فعندما كان جنرالاً مهماً أو متجاهلاً وأرسل، من أجل حمايته لقيادة الجيش، في حملة إيطاليا فإنه سقط في أحضان جنرالات فظين وأقوياء مستعدين لسحق هذا الدخيل الشاب الذي كانت القيادة قد أرسلته إليهم. ولكن منذ اللحظة الأولى أو منذ اللقاء الأول وبدون أن ينطق كلمة واحدة أو يقوم بأي حركة أو تهديد، باختصار منذ النظرة الأولى لرجل المستقبل العظيم سقطوا تحت سحر هيبة وروؤضهم. وقد قدم لنا الفيلسوف «تين» رواية مشوقة عن هذا اللقاء الأول بحسب شهادات المعاصرين له. قال:

«من بين جنرالات الفرقة العسكرية كان يوجد جنرال اسمه أوغيرو، وهو رجل مرتزق بشكل بطولي ومبتذل. وكان فخوراً بقامته العالية وشجاعته. وقد وصل الجنرالات إلى المقر العام للقيادة بنفسية غير راضية عن هذا الإنتهازي الصغير الذي أرسل لهم من باريس (أي نابليون). وبحسب الوصف الذي كان قد وصلهم عنه فإن أوغيرو كان شتاً ومحباً للعصيان بشكل مسبق. كانوا يقولون بأنه الأثير لدى باراس، وأنه أحد الجنرالات الذين خاضوا معارك منطقة الثندي غرب فرنسا، وأنه جنرال شوارع، وينظر إليه كالدب لأنه يفكر دائماً في وحدته، وأنه ذو هيئة صغيرة، وأنه مشهور بعقل رياضي وحالم في آن. ثم أدخلوهم عليه وتركهم نابليون ينتظرون فترة طويلة قبل أن يستقبلهم. ثم ظهر أخيراً وهو مزنر بسيفه، ثم لبس رداءه، وشرح مواقفه، وأعطاهم الأوامر وصرفهم. وقد دهش أوغيرو إلى حد أنه بقي صامتاً لا ينبس ببنت شفة. ولم يصح من صدمته إلا بعد أن خرج حيث

عاد إلى طبيعته العادية. واتفق مع ماسينا على القول بأن هذا البونابرت الصغير قد أخافه، ولم يفهم سر الرهبة التي سيطرت عليه من أول نظرة».

وبعد أن أصبح نابليون رجلاً عظيماً فإن هيئته قد زادت بسبب قوة مجده ووصل إلى حد الألوهة بالنسبة للمتشيّعين والأنصار. وكان الجنرال فاندام، المرتزق الثوري، أكثر فظاظة وقوة من الجنرال أوغيرو. وقد قال عن نابليون للجنرال دورنانو في يوم من أيام (١٨١٥) وكانا يصعدان سوية درج قصر التويلري:

«يا عزيزي، إن هذا الشيطان الصغير يمارس عليّ سحراً وجاذبية لا أستطيع أن أفهم سرهما. فأنا الذي لا يخشى الإله ولا الشيطان يصل بي الأمر إلى حد أنني أرتجف كطفل عندما أقرب منه. ويستطيع أن يسلكني في ثقب الإبرة ويرميني في النار دون أن أحرك ساكناً».

وكان نابليون يمارس نفس التأثير والجاذبية على كل من يقتربون منه^(٥).

كان دافو يقول متحدثاً عن إخلاص ماريه وإخلاصه هو للإمبراطور: «لو أن الإمبراطور قال لنا كلينا: من المهم لمصلحة سياستي أن أدمر باريس بأهلها دون أن يخرج منها أحد لكنت واثقاً من أن ماريه سيحفظ السر، ولكنه لن يستطيع منع نفسه من إفشائه عن طريق إخراج عائلته. أما أنا فيأني مستعد لترك زوجتي وأطفالي فيها خوفاً من أن يذاع السر!».

وهذه القدرة الجبارة للجاذبية الشخصية تفسر لنا سر تلك العودة الرائعة لنابليون من جزيرة إيلب. كما وتفسر لنا سر فتح فرنسا المباشر من قبل رجل معزول يناضل ضد كل القوى النظامية والمنظمة لبلد كبير كناقد اعتقدنا أنه قد ملّ من طغيان نابليون. ويكفي أن ننظر إلى الجنرالات الذين أرسلوا للقبض عليه. فعندما وصلوا إلى هناك تراجعوا وخضعوا له دون مناقشة.

الفصل الثالث : محركو الجماهير، ووسائل الاقناع التي يمتلكونها

كتب الجنرال الإنكليزي ولسلي يقول: لقد نزل نابليون على شواطئ فرنسا وحيداً تقريباً. وكان قادماً كالهارب من جزيرة إيلب الصغيرة التي كانت تشكل مملكته. ونجح في بضعة أسابيع في قلب كل جهاز السلطة في فرنسا الواقع تحت حكم ملكها الشرعي وذلك دون أن يسفك قطرة دم واحدة. فهل يمكن لصعود رجل في سلم المجد أن يبدو أكثر إدهاشاً من ذلك؟ ولكن من أول حملته الأخيرة هذه إلى آخرها فإنه يمكننا أن نتساءل: كم هو عجيب ورائع ذلك النفوذ الساحر الذي كان يمارسه أيضاً على الحلفاء مجبراً إياهم على اتباع مبادرته وكيف أنه كاد أن يسحقهم؟

وقد عاشت هيئته بعده واستمرت في الكبر والازدياد. فهو الذي أدى إلى سيامة ابن أخيه المجهول سابقاً كإمبراطور لفرنسا. ونحن إذ نشهد اليوم انبعاث اسطورته من جديد فإننا نلاحظ مدى الضخامة التي لا يزال يتمتع بها ذلك الظل الكبير. ذلك أنه يمكنك أن تذل الناس وأن توقع فيهم المجازر بالملايين وأن تقود غزواً وراء غزو، كل شيء مباح لك بشرط أن تملك الهيبة الشخصية والموهبة القادرة على الحفاظ عليها.

لقد تحدثت عن مثال للهيبة الشخصية أكثر من استثنائي: نابليون. ولكن ذلك كان ضرورياً ومفيداً من أجل أن نفهم منشأ الأديان الكبرى والعقائد الكبرى والإمبراطوريات الكبرى. ولولا قوة الجاذبية الممارسة على الجماهير من قبل الهيبة الشخصية لما كان هذا المنشأ مفهوماً أو قابلاً للفهم.

ولكن الهيبة لا تركز فقط على النفوذ الشخصي والمجد العسكري والإرهاب الديني. فيمكنها أن تعتمد على أصول أكثر تواضعاً، وتكون ضخمة أيضاً. وهذا القرن الذي نعيش فيه يقدم لنا أمثلة عديدة على ذلك. وأحدها سوف تذكره البشرية القادمة جيلاً بعد جيل، وهو قصة ذلك الرجل الذي تحدثنا عنه قبل قليل والذي غير وجه الكرة الأرضية والعلاقات التجارية للشعوب عن طريق الفصل بين قارتين.

(فردينان دي ليسبس). وقد نجح في مشروعه هذا بواسطة إرادته الضخمة بالتأكيد، ولكن بواسطة شيء آخر أيضاً هو قوة السحر والجاذبية التي يمارسها على كل محيطه وحاشيته. ولكي يتغلب على المعارضة الاجتماعية ضده كان يكفيه أن يظهر على الملأ وأن يتحدث للحظة واحدة، وعندئذ يصبح المعارضون أصدقاء تحت تأثير سحره وجاذبيته. وكان الإنكليز بشكل خاص يحاربون مشروعه بضراوة. ولكن ذهابه إلى إنكلترا كان كافياً لإقناع الجميع بصحة مشروعه. وعندما مر بعدئذ بمدينة ساوثمبتون راحت الأجراس تقرع على طريق مروره ترحيباً به. وبعد أن تغلب على كل شيء، من بشر وأشياء، لم يعد يعتقد بوجود أي عقبة قادرة على إيقافه. فبعد شق قناة السويس راح يفكر بشق قناة باناما بنفس الوسائل. ولكن الإيمان الذي يزحزح الجبال لا يزحزحها إلا بشرط ألا تكون عالية أكثر مما ينبغي. فقد قاومت الجبال، وجاءت الكارثة التي دمرت هالة المجد المحيطة بالبطل. وحياته تقدم لنا مثلاً ساطعاً على كيفية نمو الهيبة الشخصية وتضخمها ثم انهيارها. فبعد أن ساوى في العظمة أكبر الشخصيات التاريخية فإنه قد خفض من قبل قضاة بلاده إلى مستوى أخس المجرمين. ومر نعشه وحيداً في وسط الجماهير اللامبالية. وحدهم الملوك الأجانب احتفلوا به وحيوا ذكراه^(٦).

ولكن الأمثلة المختلفة التي ذكرناها آنفاً تمثل أمثلة متطرفة. فلكي ندرس تفصيلاً وبشكل نفساني ظاهرة الهيبة، فإنه ينبغي علينا أن نتفحص سلسلتها الطويلة منذ مؤسسي الأديان والامبراطوريات وانتهاء بظاهرة الفرد العادي الذي يريد أن يبهر جيرانه بلباسه الجديد أو بالأوسمة التي يعلقها على صدره.

وما بين هذين الحدين المتطرفين للسلسلة تتموضع كل أشكال الهيبة المتواجدة ضمن العناصر المختلفة لحضارة ما: نقصد العلوم، والفنون، والأدب، إلخ... وإذا ما درسناها جميعاً وجدنا أن الهيبة تشكل العنصر الأساسي للإقناع. فالشخص أو الفكرة أو الشيء الذي يمتلك الهيبة يقلد عن طريق العدوى ويفرض على جيل بأكمله بعض

الفصل الثالث: محركو الجماهير، ووسائل الاقناع التي يمتلكونها

أشكال الإحساس وترجمة الفكر. والواقع أن التقليد هو في الأغلب الأعم لا واع، وهذا هو بالضبط الشيء الذي يجعله كاملاً. فالرسامون المحدثون الذين يقلدون الألوان الباهتة لبعض البدائيين ومواقفهم المتصلبة لا يشكون مطلقاً بمصدر إلهامهم. فهم مؤمنون بأنهم صادقون في تجربتهم. ولولا أن أحد العلماء الكبار لم يكشف عن هذا النوع من الفن لاستمرينا في النظر إليه من خلال جوانبه الساذجة والمتدنية. وأما أولئك الذين يقلدون المشاهير من المجددين ويغرقون لوحاتهم بالظلال البنفسجية فإنهم لا يرون في الطبيعة ألواناً بنفسجية أكثر مما كان موجوداً قبل خمسين سنة، ولكنهم محرضون على ذلك من قبل الانطباع الشخصي والخصوصي لفنان عرف كيف يكتسب هبة وشهرة كبيرة.

وفي كل عنصر من عناصر الحضارة يمكننا أن نجد أمثلة مشابهة لذلك.

نرى فيما سبق أن هناك عوامل عديدة يمكنها أن تلعب دوراً في تشكيل الهوية الشخصية. والنجاح كان دائماً أحد أهم هذه العوامل. فالإنسان الذي ينجح والفكرة التي تفرض نفسها لا يعود أحد قادراً على معارضتهما بسبب هذا النجاح بالذات.

فالهوية الشخصية تختفي دائماً مع الفشل. فالبطل الذي صفت له الجماهير بالأمس قد تحتقره علناً في الغد إذا ما أدار الحظ له ظهره. بل إن رد فعلها ضده يكون عنيفاً بقدر ما كان احترامها له كبيراً. وعندئذ تنظر الكثرة للبطل الذي سقط كنظير لها وتنتقم منه لأنها كانت قد انحنت أمامه وأمام تفوقه المزعوم الذي لم تعد تعترف به. فروبسبير الذي أمر بقطع رؤوس زملائه وعدد كبير من معاصريه كان يمتلك هبة شخصية ضخمة. وعندما نقصته بعض الأصوات فقط فقد رأسه هو الآخر وتبعته الجماهير إلى المقصلة بنفس اللعنات التي لاحقت بها ضحاياه بالأمس. فالمؤمنون يحطمون دائماً بنوع من الهيجان تماثيل آلهتهم السابقة.

والهبة الشخصية التي تنتزع بالفشل تفقد بسرعة . ويمكن أن تتلف أيضاً بالمناقشة والمجادلة ، ولكن بطريقة أكثر بطئاً . ولكن هذه العملية تولد تأثيراً مؤكداً . فالهبة التي تصبح عرضة للنقاش لا تعود هبة . فالآلهة والأشخاص الذين عرفوا المحافظة على هبتهم لم يسمحوا أبداً بالمناقشة . فلكي تعجب بهم الجماهير وتعبدهم ينبغي دائماً إقامة مسافة بينها وبينهم .

الفصل الرابع

محدودية تغير كل من عقائد الجماهير وآرائها

١ - العقائد الثابتة

هناك تشابه وثيق بين الخصائص التشريحية للكائنات وخصائصها النفسية. وفي الخصائص التشريحية نجد بعض العناصر الثابتة أو القليلة التغير جداً إلى حد أنه تلزمنا مدة العصور الجيولوجية لكي نغيرها. وبالإضافة إلى هذه الخصائص الثابتة التي لا تختزل توجد خصائص أخرى متحركة جداً تعدلها أحياناً البيئة ومهارة مربّي الحيوانات أو النباتات إلى درجة انهما تخفيان خصائصها الأساسية حتى بالنسبة لعين المراقب اليقظ.

ونلاحظ نفس الظاهرة بالنسبة للخصائص الأخلاقية. فبالإضافة إلى العناصر النفسية الراسخة لعرق بشري ما توجد عناصر متحركة ومتغيرة. ولهذا السبب فإننا عندما ندرس عقائد شعب ما وآراءه فإننا نلاحظ دائماً وجود أرضية ثابتة جداً. وعليها تنضاف آراء متحركة تحرك الرمل الذي يغطي الصخور.

هكذا نجد أن عقائد الجماهير وآراءها تشكل طبقتين متميزتين تماماً. فمن جهة نجد العقائد الإيمانية الكبرى والدائمة التي تدوم قروناً عديدة والتي تركز عليها حضارة بأكملها. فنضرب على ذلك مثلاً في الماضي التصور الخاص بالنظام الإقطاعي، ثم الأفكار المسيحية، ثم أفكار الإصلاح المسيحي (لوثر). وأما في عصرنا الحاضر فنضرب عليها مثلاً مبدأ العقلانية أو العقلانيات، ثم الأفكار

الديمقراطية والاجتماعية. وهناك من جهة أخرى الآراء العابرة والمتغيرة التي تتفرع غالباً عن مفاهيم عامة يشهد ظهورها وموتها كل عصر. نضرب على ذلك مثلاً النظريات التي توجه الفنون والآداب في لحظة معينة كالنظرية المولدة للحركة الرومنطيقية أو النزعة الطبيعية، إلخ... فهي بنفس سطحية الموضة العابرة وتتغير كالموجات الصغيرة التي تظهر وتختفي باستمرار على سطح بحيرة ذات مياه عميقة.

أما العقائد الكبرى العامة فذات عدد محصور جداً. وتشكلها وتلاشيها يمثلان بالنسبة لكل عرق تاريخي نقاط الذروة في تاريخه. إنها تشكل الهيكل العظمي للحضارات.

أما الرأي العابر فينفذ بسهولة إلى روح الجماهير، ولكن من الصعب جداً أن نرسخ فيه عقيدة دائمة. كما أنه من الصعب تدمير هذه العقيدة بعد تشكيلها. لا يمكن تغييرها إلا بعد ثورات عنيفة، وفقط بعد أن تكون العقيدة قد فقدت تقريباً كل هيمنتها على النفوس. إن الثورات تساعد عندئذٍ على التدمير الكلي للعقائد التي أصبحت مهجورة ولكنها لا تزال رازحة بسبب نير الأعراف والتقاليد. والثورات التي تبتدىء تعني بالضرورة عقائد إيمانية تحتضر.

وبدءاً من اللحظة التي يأخذ فيها الناس بمناقشة عقيدة كبرى ونقدها فإن زمن احتضارها يكون قد ابتدأ. وبما أن كل عقيدة عامة ليست إلا وهماً فإنها لا تستطيع أن تستمر إلا إذا نجت من التفحص والنقد.

ولكن حتى عندما تتزعزع أسس عقيدة راسخة ما فإن المؤسسات المتفرعة عنها تبقى محافظة على قوتها ولا تتلاشى إلا ببطء. وعندما تفقد أخيراً كل سلطة فإن كل ما كانت تدعمه ينهار. ولم يحصل سابقاً في التاريخ أن غير شعب ما عقائده دون أن يضطر فوراً إلى تغيير عناصر حضارته.

فهو يحول فيها ويغيرها حتى يكون قد اعتمد عقيدة عامة جديدة. وبانتظار تلك اللحظة فإنه يعيش في حالة الفوضى

الفصل الرابع : محدودية تغير كل من عقائد الجماهير وآرائها

بالضرورة. فالعقائد العامة هي الدعامات الضرورية للحنضارات. وهي التي توجه الأفكار وتطبعها بطابعها، وهي وحدها التي تلهم الإيمان وتخلق الحس بالواجب.

لقد أحست الشعوب دائماً بفائدة تشكيل العقائد الإيمانية العامة وفهمت عن طريق الغريزة أن تلاشيها يعني بداية انحطاطها. والعبادة المتعصبة لروما كانت هي العقيدة الإيمانية التي جعلت من الرومان أسياداً للعالم. ولكن ما إن ماتت هذه العقيدة حتى انهارت روما. ولم يستطع البرابرة الذين دمروا الحضارة الرومانية أن يتوصلوا إلى بعض التماسك والخروج من حالة الفوضى إلا بعد أن اكتسبوا بعض العقائد المشتركة.

وإذن فليس عبثاً أن الشعوب كانت قد دافعت دائماً عن عقائدها الإيمانية بنوع من التعصب. وهذا التعصب منتقد بشدة من وجهة النظر الفلسفية، ولكنه يمثل فضيلة في حياة الأمم. والعصور الوسطى لم تنصب المحارق إلا من أجل تأسيس العقائد الإيمانية العامة أو المحافظة عليها والإيمان بها. وعشرات المخترعين والمجددين الذين نجوا من الحرق والتعذيب ماتوا في ظل اليأس المطبق. ومن أجل الدفاع عن هذه العقائد العامة والمشاركة انقلب العالم أكثر من مرة وسقط ملايين البشر في ساح الوغى، وسوف يسقطون أيضاً.

ولكن هناك صعوبات كبيرة تقف في وجه تشكيل عقيدة إيمانية عامة كما قلنا سابقاً. وإذا ما تشكلت ورسخت نهائياً فإنه يصبح من المستحيل الإطاحة بها لمدة طويلة. وأياً يكن بطلانها الفلسفي فإنها تفرض نفسها على أكبر الشخصيات وأذكاهها. ألم تعتبر الشعوب الأوروبية منذ خمسة عشر قرناً أن أساطير مولوك الدينية هي حقائق لا تناقش؟ ولكننا نعرف عندما نتفحصها عن كذب إنها بربرية وهمجية^(١). فالعبثية المرعبة لأسطورة الإله الذي ينتقم من ابنه بواسطة التعذيب المرعب لأنه عصاه لم تلحظ من قبل أحد طيلة قرون عديدة. وأكبر الشخصيات العبقريّة من أمثال غاليليو، نيوتن، لايبنتز لم يخطر على بالهم لحظة

واحدة أن حقيقة مثل هذه الأساطير يمكن أن توضع على محك الشك . وهذا أكبر دليل على التنويم المغناطيسي الذي تمارسه العقائد العامة المشتركة . ولكن لا شيء يبرهن بشكل أفضل على المحدودية المذلة لروحنا .

وما إن تنزرع عقيدة جديدة في روح الجماهير حتى تصبح ملهمة لمؤسساته وفنونه وسلوكه . وتكون هيمنتها على النفوس مطلقة عندئذ . ويحلم رجال الممارسة والإنخراط بإنجازها على أرض الواقع ، ويحلم المشرعون بتطبيقها . ويهتم الفلاسفة والفنانون والأدباء بترجمتها بأشكال شتى .

ويمكن أن تنبثق أفكار مؤقتة ثانوية عن العقيدة الأساسية ولكنها تحمل دائماً طابع الإيمان المنبثقة عنه . نضرب على ذلك مثلاً الحضارة المصرية وحضارة القرون الوسطى والحضارة الإسلامية للعرب ، فهي جميعها متفرعة عن عدد صغير من العقائد الدينية التي طبعت بطابعها كل عناصر هذه الحضارات والتي تتيح التعرف عليها فوراً .

وبفضل العقائد الإيمانية العامة فإن رجال كل عصر محاطون بشبكة من التقاليد والآراء والأعراف التي يزرعون تحت نيرها ولا يستطيعون الإفلات منها . وهي التي تجعلهم متشابهين أكثر فأكثر كل يوم . وأكثر الناس ذكاء واستقلالية لا يستطيعون التملص منها . وليس هناك من طغيان حقيقي أكبر من ذلك الذي يمارس نفسه على النفوس بشكل لاواع لأنه الوحيد الذي لا يمكننا أن نحاربه . فتبيير^(٢) وجنكيزخان ونابليون كانوا طغاة رهيبين بدون شك ، ولكن موسى وبودا ويسوع ومحمد ولوثر مارسوا على النفوس من أعماق قبورهم هيمنة استبدادية أكثر عمقاً بكثير . فقد تطيح مؤامرة بالطاغية ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل ضد عقيدة راسخة ؟ فتورتنا الكبرى هزمت أمام الكاثوليكية في صراعها العنيف ضدها على الرغم من التواطؤ الظاهري للجماهير معها وعلى الرغم من استخدامها لأساليب في التدمير لا ترحم ولا تقل هولاً عن أساليب محاكم التفتيش . فالكاثوليكية بقيت على قيد

الفصل الرابع : محدودية تغير كل من عقائد الجماهير وآرائها

الحياة بعد كل ما حصل . إن الطغاة الحقيقيين للبشرية كانوا دائماً أشباح الموتى أو الأوهام التي خلقتها بنفسها .

إن العيشية الفلسفية لبعض العقائد الكبرى العامة لم تحل أبداً - ولأكرر ذلك مرة أخرى - دون انتصارها . بل إن انتصارها هذا ما كان ممكناً لولا احتوائها على بعض العيشية . فالضعف الواضح لبعض العقائد الاشتراكية الحالية لن يمنعها من التأصل والرسوخ في روح الجماهير . فدونية هذه العقائد المؤكدة بالقياس إلى كل العقائد الدينية عائد فقط إلى نقطة مستقبلية : فيما أن مثال السعادة الذي تعد به الجماهير لا يمكن أن يتحقق إلا في الحياة المقبلة أو الآخرة ، فإن أحداً لا يستطيع معارضة هذا التحقيق أو ذاك الهدف . ولكن بما أن مثال السعادة الاشتراكية ينبغي أن يتحقق يوماً ما على الأرض ، فإن عيشية الوعود تظهر منذ أول محاولة للإنجاز ، وتفقد العقيدة الجديدة فوراً كل هيبة أو حظوة . وبالتالي فإن قوتها لا تكبر إلا في الفترة الواقعة قبل اليوم الموعود للإنجاز والتحقيق . ولهذا السبب فإنه إذا كان الدين الجديد يمارس أولاً ككل الأديان التي سبقته عملاً تدميراً فإنه لا يستطيع أن يمارس فيما بعد عملاً خلاقاً .

٢ - الآراء المتحركة للجماهير

وفوق العقائد الثابتة والراسخة التي كنا قد بينا مدى جبروتها تتموضع طبقة سطحية من الآراء والأفكار والخواطر التي تولد وتموت باستمرار . ومدة دوام بعضها مؤقتة جداً ، وأكثرها أهمية لا تتجاوز مدتها حياة جيل واحد . كنا قد قلنا سابقاً بأن المتغيرات التي تصيب هذه الآراء هي أحياناً سطحية أكثر مما هي حقيقية وتحمل دائماً طابع العرق وخصائصه . فعندما درسنا مثلاً المؤسسات السياسية لبلدنا لاحظنا أن الأحزاب السياسية الأكثر اختلافاً من حيث الظاهر (كالملكيين ، والراديكاليين ، والامبراطوريين ، والاشتراكيين ، إلخ . . .) لهم نفس المثال الأعلى . وهذا المثال الأعلى يعود إلى البنية الذهنية لعرقنا (العرق الفرنسي اللاتيني) . والدليل على ذلك إننا نجد مثلاً أعلى

مضاداً لدى الأمم الأخرى التي تمتلك نفس الأحزاب بنفس الأسماء. فالاسم الذي يخلع على الآراء والأحزاب والتعديلات الظاهرية الخادعة لا تغير شيئاً في حقيقة الأمور. إن بورجوازي الثورة المتأثرين إلى حد كبير بالأدبيات اللاتينية والذين يقلدون الجمهورية الرومانية راحوا يعتمدون قوانينها وشعاراتها وثيابها ولكنهم لم يصبحوا رومانين لأنهم بقوا تحت هيمنة تحريض تاريخي ضخم.

إن دور الفيلسوف يكمن في البحث عما بقي من عقائد قديمة تحت سطح المتغيرات الظاهرية، وفي التمييز داخل سيل الآراء المتحركة بين الحركات المفروضة من قبل العقائد العامة وبين روح العرق.

وبدون هذا المعيار كنا سنعتقد أن الجماهير تغير عقائدها السياسية والدينية بشكل مستمر وعلى هواها. والتاريخ كله سياسياً كان أم دينياً أم فنياً أم أدبياً يبدو وكأنه يبرهن على ذلك.

لنضرب على ذلك مثلاً فترة قصيرة فقط (أي بين ١٧٩٠ - ١٨٢٠)، أي فترة ثلاثين سنة، عمر جيل واحد. فقد كانت الجماهير الفرنسية في بداية الفترة ملكية ثم أصبحت ثورية ثم أصبحت إمبراطورية ثم أصبحت ملكية مرة أخرى. وفيما يخص الدين تطورت في نفس الفترة فانتقلت من الكاثوليكية إلى الإلحاد ثم إلى التألّيهية (أي المذهب الذي يقر بوجود الله وينكر الوحي والآخرة). ثم عادت إلى الأشكال الأكثر تطرفاً من الكاثوليكية. وليست الجماهير هي فقط التي تتغير وإنما أيضاً قادتها. فقد رأينا مثلاً أعضاء الجمعية التأسيسية الفرنسية بعد الثورة يبدون أعداء ألداء للملوك ولا يريدون لا آلهة ولا أسياداً، ثم أصبحوا فيما بعد خدماً أذلاء لدى نابليون. ثم أصبحوا يحملون الشموع في المواكب الدينية في ظل الملك لويس الثامن عشر!...

وخلال السبعين سنة التي تلت، كم حصلت من متغيرات في آراء الجماهير؟ «فإنكلترا الخؤونة» في مطلع هذا القرن أصبحت حليفة فرنسا في ظل وريث نابليون. وروسيا التي خاضت حربين ضدنا

الفصل الرابع : محدودية تغير كل من عقائد الجماهير وآرائها

وشمتت كثيراً بهزائنا الأخيرة أصبحت فجأة كصديقة لنا .

وفي مجال الأدب والفن والفلسفة نلاحظ أن تتابع الآراء والأفكار أو تغيرها يتجلى بوضوح أكثر . فمن الرومنطيقية إلى المذهب الطبيعي إلى الصوفية ، إلخ . . . نلاحظ ولادة وموت كل مذهب بدوره . فالفنان أو الكاتب الذي صفقوا له بالأمس سرعان ما يحتقر غداً .

ولكن إذا ما حللنا هذه المتغيرات التي تبدو ظاهرياً جد عميقة فماذا نرى؟ نرى أن كل المتغيرات المضادة للعقائد العامة ولعواطف العرق لا تعيش طويلاً ، في حين أن التيار العام يستعيد مجراه من جديد . فالآراء التي لا ترتبط بأي عقيدة عامة ولا بأي عاطفة عرق وبالتالي فلا تتمتع بالاستقرارية تبقى تحت رحمة الصدفة ، أو تحت رحمة أقل متغير يصيب البيئة إذا شئنا . فيما أنها تتشكل بواسطة التحريض والعدوى فإنها تظل دائماً مؤقتة فتولد وتموت أحياناً بنفس سرعة تشكل كثران الرمال وتلاشيها على شاطئ البحر .

وفي أيامنا هذه نلاحظ أن مجمل الآراء المتحركة للجماهير أكبر منه في أي وقت مضى . وذلك لأسباب ثلاثة مختلفة .

السبب الأول هو أن العقائد القديمة تفقد بالتدريج هيمنتها على النفوس وبالتالي فلا تعود تؤثر على الآراء المؤقتة لكي توجهها في اتجاه معين كما في السابق . إن تلاشي العقائد العامة يترك المكان حراً لمجموعة من الأفكار الخصوصية المحرومة من كل ماضٍ أو مستقبل .

وأما السبب الثالث فيعود إلى ظهور الصحافة مؤخراً ونشرها لأكثر الآراء اختلافاً وتناقضاً . فالإحياءات التي يولدها كل رأي تدمر فوراً من قبل إحياءات الرأي المضاد . وبالتالي فلا يستطيع أي رأي أن يعم وينتشر ، وكلها مدانة بالوجود المؤقت والعابر . فهي تموت قبل أن تنتشر بما فيه الكفاية لكي تصبح عامة .

وينتج عن هذه الأسباب المختلفة ظاهرة جديدة جداً في تاريخ

العالم، وهي تميز عصرنا الحالي: أقصد بذلك عجز الحكومات عن قيادة الرأي العام.

ففي الماضي غير البعيد كان عمل الحكومة وتأثير بعض الكتاب بالإضافة إلى عدد صغير من الصحف كل ذلك يشكل الموجهات الحقيقية للرأي العام. وأما اليوم فإننا نلاحظ أن الكتاب قد فقدوا كل تأثير ولم تعد الصحف تفعل شيئاً إلا أن تعكس وجهات نظر الرأي العام. وأما فيما يخص رجال السياسة فإنهم بدلاً من أن يقودوه لم يعودوا يفعلون إلا اتباعه. وخوفهم من الرأي العام يصل أحياناً إلى حد الرعب وأصبح ينزع عن ممارساتهم كل تماسك أو ثبات.

إن رأي الجماهير يميل إذن إلى أن يصبح أكثر فأكثر الموجه الأعلى للسياسة. فقد وصل به الأمر اليوم إلى حد فرض التحالفات كما رأينا ذلك بالنسبة للتحالف الروسي - الفرنسي الذي خرج كله تقريباً من رحم الحركة الشعبية.

ومن علائم عصرنا المدهشة أن نرى البابوات والملوك والأباطرة يخضعون لآليات المقابلة الصحفية وأساليبها من أجل عرض فكرهم حول موضوع معين. وهم يخضعون بذلك لرأي الجماهير. قالوا في الماز بأن السياسة لا علاقة لها بالعاطفة ومشاكلها. فهل يمكن لها أن تصبح عاطفية اليوم حيث نراها تتخذ كقائد لها دوافع الجماهير المتغيرة التي تجهل العقل وتقاد فقط عن طريق العاطفة؟

وأما فيما يخص الصحافة التي كانت توجه الرأي العام سابقاً فإنها قد اضطرت كالحكومات إلى الإمحاء أمام سلطة الجماهير. صحيح أن قوتها ضخمة ولكن فقط لأنها تمثل كلياً انعكاس الآراء الشعبية وتنويعاتها المستمرة. ولما أصبحت الصحافة عبارة عن وكالة للمعلومات فإنها لم تعد تفرض أي فكرة، ولا أي عقيدة. وأصبحت تتبع كل متغيرات الفكر العام، ونلاحظ أن ضرورات المنافسة تجبرها على ذلك وإلا فقدت قراءها. وأما الصحف القديمة والمهينة ذات التأثير والتي كان الجيل السابق يصغي إلى كلامها كالوحي فقد اختفت أو أنها أصبحت أوراقاً

الفصل الرابع : محدودية تغير كل من عقائد الجماهير وآرائها

للمعلومات مؤطرة بوقائع مسلية وبنمائم المجتمع والإعلانات المالية .
وأما اليوم فأين هي الصحيفة الغنية بما فيه الكفاية والتي تسمح لمحريها
بأن يعبروا عن آراء شخصية؟ وما هي المصدقية التي تتمتع بها هذه
الآراء لدى القراء الذين يبحثون فقط عن الإستعلام أو التسلية، والذين
يرون خلف كل توصية وجه المضاربين التجاريين؟ وحتى النقد
الأدبي لم يعد قادراً على الدعاية لكتاب ما أو لقطعة مسرحية . ذلك أن
باستطاعته الإساءة وليس الخدمة . فالصحف من شدة وعيها لعدم جدوى
أي رأي شخصي راحت تحذف صفحات النقد الأدبي . وأصبحت
تكتفي بتسجيل اسم الكتاب مرفقاً بسطر أو سطرين من الإعلان . وربما
حصل نفس الشيء للنقد المسرحي خلال العشرين سنة القادمة .

لقد أصبحت مراقبة الرأي العام اليوم هي الشغل الشاغل للصحافة
والحكومات . أصبحت مشغولة بمعرفة الأثر الذي يحدثه حدث ما أو
برنامج تشريعي ما أو خطاب ما على الرأي العام . وهذا ليس بالأمر
السهل ، ذلك أنه ليس هناك من شيء أسرع تحركاً وتغيراً من فكر
الجماهير . فنحن نراها تستقبل باللغات ما كانت قد صفقت له بالأمس .

وهذا الغياب الكامل لتوجيه الرأي العام ثم انحلال العقائد العامة
في نفس الوقت أديا في نهاية المطاف إلى التفتيت الكامل لكل القناعات
واليقينيات ثم إلى شيوع اللامبالاة المتزايدة لدى الجماهير والأفراد في
آن معاً ، وذلك في كل ما يخص مصالحها المباشرة . إن مسائل العقائد .
كمسألة الاشتراكية مثلاً ، لم تعد تجد مدافعين مقتنعين فعلاً إلا في
الطبقات الأمية من الشعب . نضرب على ذلك مثلاً عمال مناجم الفحم .
وأما البورجوازي الصغير والعامل المتأثر قليلاً بالثقافة والتعليم فقد أصبح
متشككين جداً .

وهذا التطور الذي حصل خلال ثلاثين عاماً فقط مدهش إلى
أبعد حد . ففي الفترة السابقة والقريبة العهد كانت الآراء (آراء الناس)
لا تزال تحظى بتوجيه عام . فقد كانت مشتقة عن تبني بعض العقائد
الإيمانية الأساسية . فبمجرد أن كان الإنسان ملكياً كان يحصره على

مستوى التاريخ والعلوم ببعض الأفكار المسبقة، وإذا كان جمهورياً فإن ذلك يعني تقيده بأفكار مضادة تماماً. فالملكي كان يؤمن بكل يقين أن الإنسان ليس سليل القرد، وأما الجمهوري فكان يؤمن بالعكس. والملكي كان يتحدث عن الثورة بنوع من التقزز والرعب، وأما الجمهوري فكان يتحدث عنها بنوع من التقديس والعبادة. فبعض الأسماء كإسم روبسبير ومارا ينبغي أن تلفظ بكل خشوع، وأخرى كإسم القيصر وأوغيست ونابليون لا يمكن أن تلفظ إلا وهي مرفقة بالشتائم واللعنات. وقد شاعت هذه الطريقة الساذجة في قراءة التاريخ حتى في السوربون.

وأما اليوم فإن كل رأي من هذه الآراء العامة أخذ يفقد هيئته أمام المناقشة والتحليل. فجوانبه تبلى بسرعة. والأفكار التي تلهب حماسنا نادرة. فالإنسان الحديث مصاب باللامبالاة أكثر فأكثر.

ولكن ينبغي ألا نأسف كثيراً بسبب هذا التفتت العام للآراء. فأن يكون ذلك علامة على الانحطاط في حياة شعب ما، فهذا ما لا ينفيه أحد. فالعرافون والرسل والقادة المحركون وبكلمة أخرى كل المؤمنين المقتنعين يمتلكون قوة أخرى غير قوة النفي والسلب والنقد واللامبالاة. ولكن ينبغي ألا ننسى أنه مع القوة الهائلة للجماهير الآن فإنه إذا ما استطاع رأي واحد أن يمتلك الهيبة الكافية لكي يفرض نفسه فإنه سوف يحظى فوراً بقوة طغيانية هائلة إلى درجة أن كل شيء سوف يستسلم أمامها. وعندئذ سوف ينغلق عصر المناقشة الحرة لفترة طويلة. إن الجماهير تمثل أحياناً أسياداً مسالمين كما كان عليه في عصرهما كل من هيليوغابال وتيبر. ولكن للجماهير نزواتها العتيقة أيضاً. فالحضارة الجاهزة للسقوط في أيديها تظل تحت رحمة صدف عديدة جداً إلى حد أنه يشك بديمومة هذه الحضارة لفترة طويلة. وإذا كان هناك شيء ما يمكنه أن يؤخر من ساعة الإنهيار فإن ذلك سيكون بالضبط الحركية الهائلة للآراء واللامبالاة المتزايدة للجماهير تجاه كل العقائد العامة.

الكتاب الثالث

تصنيف الفئات المختلفة
من الجباهير ودراستها

الفصل الأول

تصنيف الجماهير

كنا قد بينّا في هذا الكتاب الخصائص العامة المشتركة للجماهير. وقد بقي علينا أن ندرس الخصائص الخصوصية المترابكة على هذه الخصائص العامة، وذلك تبعاً للفئات المختلفة للجماعات البشرية.

لنقدم أولاً تصنيفاً مختصراً لأنواع الجماهير.

وسوف تكون نقطة انطلاقنا الأولى هي مجرد الكثرة والعدد. وصيغتها الأدنى تتجلى عندما تكون مؤلفة من أعراق أو أجناس مختلفة. ونقطتها المشتركة عندئذ تكون إرادة الزعيم المحترمة قليلاً أو كثيراً. فحولها تتجمع وتتخلق. ويمكننا أن نقدم أمثلة على أنماط هذه الكثرة البرابرة المتوحشين من أنواع شتى، هؤلاء البرابرة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية طيلة قرون عديدة.

وفوق أنواع هذه الكثرة غير المتجانسة تظهر كثرة أخرى انصهرت في بعضها البعض تحت تأثير عوامل مختلفة واكتسبت صفات مشتركة وانتهى بها الأمر إلى تشكيل عرق واحد. وتتجلى فيها، عندما تحين المناسبة، الخصائص الخاصة بالجماهير، ولكنها دائماً مستوعبة من قبل خصائص العرق.

ويمكن تقسيم فئات الجماهير المختلفة التي نستطيع العثور عليها لدى كل شعب على الطريقة التالية:

أ - جماهير غير متجانسة

- ١ - جماهير مُغفلة (كجماهير الشارع مثلاً).
- ٢ - جماهير غير مغفلة (كهيئات المحلفين، والمجالس البرلمانية، إلخ...).

ب - جماهير متجانسة

- ١ - الطوائف (الطوائف السياسية، الطوائف الدينية، إلخ...).
 - ٢ - الزمر (زمرة عسكرية، زمرة كهنوتية، زمرة عمالية، إلخ...).
 - ٣ - الطبقات (الطبقة البورجوازية، الطبقة الفلاحية، إلخ...).
- لنشرح في كلمات قليلة الخصائص التمييزية لفئات الجماهير المختلفة^(١).

١ - الجماهير غير المتجانسة

إن هذه التجمعات هي تلك التي درسنا خصائصها سابقاً. وهي مؤلفة من أفراد لا على التعيين، بغض النظر عن مهنتهم أو ذكائهم.

وكنا قد برهنا في هذا الكتاب على أن نفسية الناس المنخرطين في الجمهور تختلف أساساً عن نفسياتهم الفردية، وإن الذكاء الفردي لا يلعب أي دور في هذا المجال. فدوره يتعطل عندما يصبح الإنسان منخرطاً في الجماعة. وحدها العواطف اللاواعية تلعب دوراً آنذاك.

وهناك عامل أساسي هو العرق، وهو يتيح لنا تقسيم مختلف أنواع الجماهير غير المتجانسة والتمييز بينها.

كنا قد تحدثنا أكثر من مرة عن دوره وبيّنا أنه أكبر عامل قادر على تحديد أعمال البشر وحسمها. وتأثيره يتجلى أيضاً في خصائص الجماهير. فالكثرة المؤلفة من أفراد لا على التعيين ولكن ينتسبون إلى عرق واحد كالإنكليز أو الصينيين تختلف جداً عن الكثرة المؤلفة أيضاً من أفراد لا على التعيين ولكن من أعراق مختلفة: كالروس والفرنسيين والاسبان، إلخ... .

إن الاختلافات العميقة الناتجة عن التركيبة الذهنية الموروثة للبشر فيما يخص طريقة الإحساس والتفكير تتجلى واضحة للعيان ما إن تتوافر بعض الظروف النادرة جداً. أقصد الظروف التي تجمع في نفس الجمهور وينسب متساوية تقريباً أفراداً ينتمون إلى جنسيات مختلفة أياً تكن تماثلية المصالح التي تجمعهم ظاهرياً. والمحاولات التي قام بها الاشتراكيون لكي يصهروا ممثلي الحركات العمالية في كل بلد في مؤتمر كبير واحد باءت دائماً بالفشل وانتهت بظهور التناقضات والاختلافات. فالجمهور اللاتيني أياً تكن درجة ثوريته أو محافظته سوف يلجأ إلى تدخل الدولة من أجل تحقيق مطالبه. فهو دائماً من مؤيدي الوحدة المركزية. كما أنه من مؤيدي الاستبدادية القيصرية بدرجة تقل أو تكثر. وأما الجمهور الإنكليزي أو الأمريكي، فعلى العكس، لا يعترف بالدولة وإنما فقط بالمبادرة الخاصة. والجمهور الفرنسي متعلق بفكرة المساواة بشكل خاص وقبل كل شيء، وأما الجمهور الإنكليزي فيتعلق بالحرية. وهذه الاختلافات العرقية تولد عدداً من الجماهير مساوياً لعدد الأمم تقريباً.

نستنتج من ذلك أن روح العرق تهيمن كلياً على روح الجمهور. إنها الجوهر القوي الذي يحد من التذبذب والتغير. وتكون خصائص الجماهير أقل حدة وبروزاً كلما كانت روح العرق أكثر قوة. وهذا قانون أساسي. إن حالة الجمهور وهيمنة الجماهير تشكلاً نوعاً من الهمجية أو عودة الهمجية. إن العرق يتخلص أكثر فأكثر من القوة المجنونة للجماهير ويخرج من حالة الهمجية عن طريق اكتساب روح مكونة بشكل راسخ.

وفيما عدا عامل العرق فإن التصنيف الوحيد المهم بالنسبة للجماهير غير المنسجمة هو الفصل بين الجماهير المغفلة كجماهير الشارع، والجماهير غير المغفلة كالمجالس البرلمانية وهيئات المحلفين مثلاً. إن الشعور بالمسؤولية معدوم لدى الجماهير الأولى ومتطور لدى الثانية، وهو يفرض على أعمالهم توجهات مختلفة غالباً.

٢ - الجماهير المتجانسة

إن الجماهير المتجانسة تشمل: ١ - الطوائف؛ ٢ - الزمر؛ ٣ - الطبقات.

فالطائفة تشكل المرحلة الأولى من مراحل تشكل الجماهير المتجانسة. فهي تحتوي على أفراد من ثقافات ومهن وأوساط مختلفة جداً أحياناً، وليس بينها من رابطة وحيدة إلا العقيدة والإيمان. نضرب على ذلك مثلاً الطوائف الدينية والسياسية.

وأما الزمرة فتتمثل أعلى درجات التنظيم التي يقدر عليها الجمهور. ففي حين أن الطائفة مشكلة من أفراد ذوي مهن وثقافات وأوساط متنافرة جداً في الغالب ولا يترابطون فيما بينهم إلا بواسطة اشتراكهم في العقائد، فإن الزمرة لا تشمل إلا أفراداً من نفس المهنة وبالتالي ذوي تربية وأوساط متماثلة تقريباً. نضرب على ذلك مثلاً الزمرة العسكرية والكهنوتية.

وأما الطبقة فتتشكل من أفراد ذوي أصول مختلفة وموحدتين ليس عن طريق اشتراكهم في العقائد كأعضاء الطائفة، وليس عن طريق اشتراكهم في الإهتمامات المهنية كأعضاء الزمرة، وإنما عن طريق بعض المصالح وبعض عادات الحياة والتربية المتشابهة. نضرب على ذلك مثلاً الطبقة البورجوازية، والطبقة الزراعية، إلخ . . .

ولما كنت لم أدرس في هذا الكتاب إلا الجماهير المتجانسة فإنني سوف أهتم فقط ببعض فئات تشكيلة الجماهير المختارة كأنماط محددة.

الفصل الثاني

الجماهير المدعوة بالمجرمة

ما إن تسقط الجماهير بعد فترة الهيجان والحماسة في حالة الناس الآلين غير الواعين والمقودين من قبل التحريضات والمحرضات، حتى يصبح صعباً علينا وصفها بالمجرمة في أي حالة من الأحوال. ولكن مع ذلك فقد احتفظت بهذا الوصف الخاطيء لأنه كان قد ترسخ من قبل البحوث النفسية. لا ريب في أن بعض أعمال الجماهير هي مجرمة إذا ما أخذناها بذاتها ولذاتها. ولكنها عندئذ ستكون مجرمة مثلما أن التهام النمر لهندي ما يعتبر عملاً إجرامياً بعد أن كان قد ترك صغاره يمزقونه للتسلي به.

إن جرائم الجماهير ناتجة عموماً عن تحريض ضخم، والأفراد الذين ساهموا فيها يقتنعون فيما بعد بأنهم قد أطاعوا واجبهم. وهذه ليست أبداً حالة المجرم العادي فتاريخ الجرائم التي ارتكبتها الجماهير توضح لنا ما سبق.

ويمكننا أن نستشهد على ذلك بمثال نموذجي هو قتل مدير سجن الباستيل السيد دولوني. فبعد أن تم الإستيلاء على هذا السجن راح المدير يتلقى الضربات واللبطات من كل الجهات من قبل الجماهير. وراح البعض يقترحون شنقه والآخرين يقولون بقطع رأسه أو بربطه بذنب حصان وسحله في الشارع. ولما راح يتخبط بين أيديهم لبط برجله أحد الحضور عن غير قصد. وعندئذ اقترح أحدهم أن يقوم هذا الرجل الذي أصابته اللبطة بقطع رأس المدير بيده.

يقول أحد الشهود راوياً القصة:

«وكان هذا الرجل طباحاً متجولاً ونصف متسكع. وقد ذهب إلى الباستيل لكي يرى ماذا يحصل هناك، ولما رأى أن الجميع متفقون على قيامه بهذه المهمة وأنه يؤدي عملاً وطنياً إذ ينجزها فإنه وافق على الفور. بل واعتقد بأنه يستحق ميدالية تكريم عن طريق قتله لهذا الوحش. وقد أعاروه سيفاً فضرب عنقه. ولكن السيف لم يكن مشحوداً جيداً فلم يفلح في ضربته. وعندئذٍ أخرج من جيبه سكيناً صغيرة بمقبض أسود كان يستخدمها في قطع اللحم كطباخ وأكمل قطع رأسه بنجاح لحسن الحظ».

ونرى هنا مثلاً تطبيقاً حياً على الآلية التي شرحناها سابقاً فيما يخص طريقة عمل الجماهير وردود فعلها. فالقاتل يخضع بكل طاعة للتحريض لأنه صادر عن قوة جماعية وجماهيرية، وهو يشعر بأنه قد قام بعمل مجيد وطبق قناعة طبيعية لأنه حظي بالإستحسان الاجتماعي من قبل مواطنيه. وعمل مشابه لهذا يمكن أن يوصف بالإجرامي من الناحية القانونية ولكن ليس من الناحية النفسية.

إن الخصائص العامة للجماهير المدعوة بالمجرمة هي بالضبط نفس الخصائص التي لاحظناها لدى جميع أنواع الجماهير. هذه الخصائص هي: قابلية التحريض، السذاجة أو سرعة التصديق، الحركية والخفة، المبالغة في العواطف سواء أكانت طيبة أم سيئة، تبدّي بعض أشكال الأخلاقية، إلخ...

ونحن نعثر على كل هذه الخصائص لدى نوع من أنواع الجماهير التي تركت أبشع الذكريات وأكثرها إجراماً في تاريخنا: أقصد جماعة سبتمبر (أو الأيلوليين الذين شاركوا في مذابح أيلول في فرنسا عام ١٧٩٢). وهذا الجمهور يتشابه في نقاط كثيرة مع الجمهور الذي قام بمذابح سانت برتليمي. وأنا أستعير تفاصيل هذه الوقائع من الفيلسوف «تين» الذي استمدّها من ذكريات ذلك الزمن.

لا نعرف من هو الذي أعطى الأوامر بالضبط أو من هو الذي اقترح

الفصل الثاني : الجماهير المدعوة بالمجرفة

تفريغ السجون عن طريق قتل المساجين . وسواء أكان هو دانتون كما يبدو محتملاً أم أنه شخص آخر فإن ذلك لا يهم كثيراً . فالشيء الوحيد المهم بالنسبة لنا هو ذلك الاقتراح التحريضي الجبار الذي تلقاه الجمهور المكلف بعملية المجزرة والقتل .

كان جيش القتلة الذي قام بالمجزرة يضم حوالى الثلاثمائة شخص ويمثل النمط النموذجي على الجمهور غير المتجانس . وما عدا عدد صغير من الأوغاد المحترفين فإن الجمهور كان مكوناً بشكل خاص من أصحاب الدكاكين والحرفيين المختلفين من الاسكافيين والحدادين والحلاقين والبنائين والموظفين والوسطاء التجاريين ، إلخ . . . فهم تحت تأثير الاقتراح التحريضي يندفعون كالطباخ المذكور آنفاً ، وهم مقتنعون بأنهم ينجزون واجباً وطنياً . إنهم يقومون بوظيفة مزدوجة : فهم في آن معاً القضاة والجلادون ولا يعتبرون أنفسهم إطلاقاً كمجرمين .

فبعد أن يمتثلوا حماسة وقناعة بدورهم نجدهم يبتدئون بتشكيل نوع من المحكمة . وفوراً تظهر الروح التبسيطية للجماهير وعدالتها التي لا تقل تبسيطية . ونظراً لضخامة عدد المتهمين فإنهم يقررون بأن النبلاء والكهنة والضباط وخدم الملك أي كل الأفراد الذين تشكل مهنتهم نفسها بحد ذاتها جريمة في نظر الوطني الحقيقي ، سوف يقتلون ككتلة واحدة دون الحاجة لقرار خاص . وما إن يتم إرضاء الوعي البدائي للجماهير بهذه الطريقة فإنها تستطيع بعدئذ أن تقوم بالمجزرة بكل طيبة خاطر وتدشن غرائزها الضارية دون أي وازع أو رادع . وكنت قد بينت في مكان آخر منشأ هذه الغرائز التي تستطيع الكثرة المتجمعة أن تنميها وتزيدها إلى أبعد حد . وهذا لا يعني أنها تمنع الظهور الملازم لعواطف أخرى مضادة كما هي عليه القاعدة بالنسبة للجماهير كالحساسية المتطرفة جداً من نوع الضراوة .

يقول تين : «إن عاطفة الجماهير توسعية وحساسيتها متوثبة كحساسية العامل الباريسي . ففي الدير عندما عرف أحد الفيدراليين أنهم قد تركوا المعتقلين بدون ماء لمدة ست وعشرين ساعة أراد أن

يستأصل الحارس المسؤول الذي أهمل عمله. وكان يمكن أن يفعل ذلك لولا تضرع المعتقلين أنفسهم وتوسلهم له لكيلا يفعل ذلك. وعندما يتم الإفراج عن أحد السجناء بواسطة محكمة ارتجالية فإن الحرس والقتلة وكل العالم يقبلونه بفورة فرح ويصفقون له بنوع من الجنون والبهجة. ثم يعودون لقتل الآخرين. وأثناء القيام بالمجزرة يخيم على الجميع نوع من الفرحة اللطيفة والجميل. فهم يرقصون ويغنون حول الجثث ثم يصفون المقاعد «للسيدات» السعيدات برؤية مقتل الأرستقراطيين. ثم يستمرون في إظهار نوع من العدالة الغريبة جداً. فقد اشتكى أحد القتلة في الدير من أن السيدات الجالسات بعيداً نسبياً لا يرين المشهد بشكل جيد وأن بعض الحاضرين فقط يستمتعون بضرب الأرستقراطيين، وجدناهم يصغون لشكواه ويقررون تمرير الضحايا بشكل بطيء بين صفين من الذباحين الذين لا يستطيعون الضرب إلا بظهر السيف من أجل إطالة مدة التعذيب. ثم عروا جميع الضحايا بالقوة ومزقوهم طيلة نصف ساعة، ثم بعد أن يكون الجميع قد رأوا المشهد فإنهم يجهزون عليهم عن طريق شق بطونهم.

والواقع أن الجزارين كانوا دقيقين وصارمين جداً، كما ويجسدون تلك الأخلاقية الأمنية التي أشرنا إلى وجودها في أوساط الجماهير. فكانوا مثلاً ينقلون إلى طاولة اللجان كل المال والجواهر التي وجدوها في جيوب الضحايا.

وفي كل أعمال الجماهير نجد دائماً هذه الأشكال البدائية والخشنة من المحاكمة العقلية. فهي التي تميز روح الجماهير. فمثلاً بعد أن ذبحوا الإثني عشر ألفاً أو الخمسة عشر ألفاً من أعداء الأمة لفت أحدهم الانتباه إلى أن السجناء الأخرى تحتوي على شحاذين معمرين ومتسكعين وسجناء شباب، أي على أفواه جائعة وغير مفيدة، وبالتالي فمن الأفضل التخلص منهم أيضاً. وقد قبل اقتراحه فوراً. ثم أضاف قائلاً بأن يوجد بينهم أعداء للشعب من أمثال السيدة دولارو، أرملة السمّام. «ومن المتوقع أن تكون غاضبة بسبب سجنها. ولو

استطاعت لأحرقت باريس ومن فيها. ومن المؤكد أنها قالت ذلك. وبالتالي فينبغي توجيه ضربة أخرى لها». وقد بدت محتاجته عين العقل والصواب، فقتلوا الجميع عن بكرة أبيهم بمن فيهم خمسين طفلاً تتراوح أعمارهم بين اثني عشر عاماً وسبعة عشر عاماً. وقال بما أنهم هم أيضاً كانوا سيصبحون أعداء للأمة لو عاشوا وكبروا فإنه ينبغي قتلهم.

وبعد أسبوع كامل من العمل انتهت كل هذه العمليات وذهب الجزائريون للاستراحة. ولما كانوا مقتنعين بأنهم قد استحقوا منة الوطن، فإنهم توجهوا إلى السلطات طلباً للمكافأة، بل وإن أكثرهم حماسة راحوا يطالبون بميدالية.

وإذا ما قرأنا تاريخ كومونة باريس لعام (١٨٧١) وجدنا فيه وقائع عديدة مشابهة. فالتأثير المتزايد للجماهير والإستسلام المتكرر للسلطات أمامها يقدمان لنا بالتأكيد أمثلة أخرى عديدة.

الفصل الثالث

محافو محكمة الجنائيات

لما كنا غير قادرين هنا على دراسة كل فئات المحلفين، فإننا سنكتفي فقط بدراسة الفئة الأكثر أهمية أقصد فئة محكمة الجنائيات. فهي تشكل مثلاً ممتازاً على الجمهور غير المتجانس وغير المغفل. وفيه نعر على الخصائص الأساسية: كالقابلية للتحريض، وهيمنة العواطف اللاواعية، وضعف القدرة على المحاكمة العقلية، وتأثير القادة والمحركين، إلخ... ونحن إذ ندرس هذه الفئة من الجماهير سوف نجد المناسبة اللائقة لملاحظة عينات مهمة من الأخطاء التي قد يرتكبها الأشخاص غير المتدربين على علم نفس التجمعات والجماعات.

إن المحلفين يبرهنون على ضعف أهميتهم فيما يخص المستوى العقلي لمختلف العناصر التي تشكل جمهوراً ما، وذلك من وجهة نظر القرارات المتخذة. كنا قد رأينا فيما يخص المجالس البرلمانية والإستشارية المدعوة لإعطاء رأيها بصدد مسألة ليس لها طابع تقني بحث فقط، أن الذكاء لا يلعب أي دور. ورأينا أيضاً أن مجمع العلماء أو الفنانين لا يصدر حول المواضيع العامة أحكاماً مختلفة جداً عن الأحكام التي تصدرها جمعيات البنائين أو الأميين. ففي فترات مختلفة تختار الإدارة بكل دقة الأشخاص المدعويين لتأليف الهيئة المحلفة وتجندهم من بين صفوف الطبقات المستنيرة كالأساتذة والموظفين والأدباء، إلخ... واليوم نجد أن الهيئة المحلفة مؤلفة بشكل خاص من التجار الصغار وأرباب العمل الصغار والموظفين. ولشد ما كانت دهشة

الكتاب المتخصصين كبيرة عندما اكتشفوا أن الإحصائيات تبين أن القرارات المتخذة متماثلة أياً تكن تركيبة الهيئة المحلفة ومهما اختلفت وتنوعت. وقد اضطر القضاة أنفسهم على الرغم من عدائهم الشديد لتشكيل الهيئة المحلفة إلى الاعتراف بصحة هذا الكلام. وإليكم الآن ما قاله بهذا الصدد في مذكراته رئيس سابق لمحكمة الجنايات هو السيد بيرار دي غلاجو:

«في الواقع أن اختيار الهيئة المحلفة اليوم هو في أيدي أعضاء مجلس البلدية. وهم ينتقون الشخص أو يحذفونه بحسب هواهم وطبقاً للمصالح السياسية والانتخابية الخاصة بوضعهم... وأغلبية المنتخبين مؤلفة من تجار أقل أهمية من أولئك الذين كانوا يختارون في الماضي، ومن موظفي بعض الإدارات... وكل الآراء تبرز بكل المهن في الدور الذي يقوم به القاضي، فالكثيرون يتمتعون بالحماسة التي يتمتع بها المعتقد الجديد للدين. والرجال ذوو النية الطيبة يتلاقون في الحالات الأكثر تواضعاً، ولكن روح لجنة التحكيم لم تتغير: فأحكامها الصادرة بقيت هي هي».

لنحتفظ من هذا المقطع بالخلاصات التي انتهى إليها والتي تبدو لنا صحيحة جداً. ولنطرح جانباً التحليلات والشروحات فهي ضعيفة جداً. وينبغي ألا ندهش لمثل هذا الضعف، وذلك لأنه يبدو أن علم نفس الجماهير، وبالتالي نفسية المحلفين، كان غالباً مجهولاً من قبل المحامين كما من قبل القضاة. وقد وجدت البرهان على ذلك في هذه الواقعة التي نقلها نفس المؤلف. تقول القصة بأن أحد المحامين المشهورين في محكمة الجنايات السيد لاشو كان يستخدم كثيراً حق الطعن تجاه كل الأشخاص الأذكياء الذين يمارسون دورهم كأعضاء في اللجنة. ولكن التجربة، والتجربة وحدها، قد توصلت إلى إفهام الجميع بعدم جدوى الطعن على الإطلاق. وقد تراجعت وزارة الشؤون العامة والمحامون، على الأقل في باريس، عن مثل هذه العملية كلياً اليوم. وكما لاحظ السيد دي غلاجو فإن الأحكام الصادرة لم تتغير. «فهي ليست أفضل ولا أسوأ من ذي قبل».

وككل أنواع الجماهير فإن المحلفين يتأثرون جداً بالعواطف وقليلًا جداً بالمحاكمات العقلية. كتب أحد المحامين يقول: «إنهم لا يستطيعون مقاومة منظر امرأة وهي ترضع ابنها. كما أنهم لا يستطيعون مقاومة منظر موكب اليتامى يمر أمامهم». ويقول السيد دي غلاجو: «يكفي أن تكون امرأة ما لطيفة وأنيقة لكي تكسب تعاطف هيئة المحلفين».

إن المحلفين لا يبدوون أي شفقة أو رحمة تجاه الجرائم التي تنال منهم والتي هي أخطر شيء بالنسبة للمجتمع. ولكنهم يبدوون متسامحين تجاه الجرائم المدعوة بالغرامية أو العاطفية. فهم نادراً ما يكونون متشددين تجاه الأمهات اللواتي يقتلن أطفالهن بمجرد ولادتهم، وكذلك بالنسبة للبنات المهجورة التي تشوه وجه الرجل الذي يريد الإعتداء عليها. فهم أكثر تسامحاً معها. فهم يشعرون بواسطة الغريزة أن هذه الجرائم ليست خطرة جداً بالنسبة للمجتمع. وفي المجتمع الذي لا يحمي البنات المهجورات نجد أن انتقام إحداهن مفيد أكثر مما هو ضار لأنه يردع المعتدين الآخرين بشكل مسبق^(١).

وهيئات المحلفين مسحورة، ككل الجماهير، بمظاهر الهيبة والحظوة الشخصية. ولهذا السبب يلاحظ الرئيس دي غلاجو بكل حق بأن هذه الهيئات الديمقراطية في تشكيلتها تبدو أرستقراطية في عاطفتها وميولها. يقول: «إن اسم المحامي واسم عائلته يشكلان دعماً كبيراً للدفاع عن قضية المتهم. وكذلك الأمر فيما يخص ولادته وثروته وصيته وشهرته، فكلها عوامل مساعدة لنجاح الدفاع».

وأهم شيء بالنسبة للمحامي الناجح هو أن يعرف كيف يؤثر على عواطف المحلفين. فهم ككل أنواع الجماهير لا يحاكمون الأمور عقلاً إلا قليلاً جداً، أو قل إنهم لا يستخدمون إلا الأشكال البدائية من التعقل والمحاكمة العقلية. وقد حل محامي إنكليزي مشهور بمرافعاته الناجحة في محكمة الجنايات هذه المنهجية بشكل جيد. قال:

«كان يراقب بدقة هيئة المحلفين وهو يقوم بمرافعته. وكانت هي

اللحظة المؤاتية. فعن طريق الفطنة والتجربة كان المحامي يقرأ على وجوههم تأثير كل عبارة يقولها وكل كلمة، ويستخلص من ذلك النتائج. وكان يريد قبل كل شيء أن يميز الأعضاء المؤيدين لقضيته عن غيرهم مسبقاً. وبتأشيرة من يده يتوصل إلى طمأننتهم، ثم يتوجه بعدئذٍ إلى أعضاء الهيئة الذين يبدو أن استعداداً لسماع وجهة نظره. ثم يحاول أن يفهم لماذا هم معادون للمتهم الذي يدافع عنه. وهذه هي المرحلة الأشد صعوبة من مهمته لأنه يمكن أن توجد لا نهاية من الأسباب التي تدفعهم لإدانة المتهم ما عدا أسباب العدالة».

إن هذه السطور القليلة تلخص بكل دقة هدف فن الخطابة الذي يتمتع به المحامون عادة، كما وتبين لنا عدم جدوى الخطابات الجاهزة المحضرة سلفاً لأنه ينبغي تعديل الكلمات المستخدمة في كل لحظة وبحسب ردود فعل السامعين.

والخطيب ليس بحاجة لإقناع كل أعضاء الهيئة المحلفة وإنما فقط القادة المحركين الذين يتحكمون بالرأي العام. وكما في كل أنواع الجماهير فإن عدداً صغيراً من الأفراد هم الذين يقودون الآخرين. يقول المحامي الذي استشهدت به قبل قليل: «لقد عرفت من خلال التجربة أنه يكفي في لحظة إطلاق الحكم أن يوجد رجل واحد أو رجلان شيطان لكي يقنعا كل أعضاء اللجنة ويجرّاهم إلى تبني رأيهما». وبالتالي فإن المهمة تكمن في إقناع هذين الرجلين أو الثلاثة بواسطة اقتراحات ذكية. فينبغي أولاً وقبل كل شيء نيل إعجابهم. فعندما نحظى بإعجاب الرجل المنخرط في الجمهور فإننا نكون قد ضمنا إقناعه ويصبح مستعداً لقبول الحجج التي نقدمها له ويعتبرها ممتازة. وقد وجدت في كتاب ممتاز عن السيد لاشو الحكاية التالية:

«نحن نعلم أنه طيلة فترة كل المرافعات التي ألقاها في محكمة الجنايات فإن لاشولم يكن يحول بصره عن اثنين أو ثلاثة محلفين كان يعرف أو يشعر بأنهم نافذون ولكن شرسون. وبشكل عام كان ينجح في إقناع هؤلاء المعاندين. ولكنه على الرغم من ذلك وجد أحدهم في

الفصل الثالث : محلفو محكمة الجنايات

الأقاليم وقد راح يمطره بمحاجاته الأكثر عناداً طيلة ثلاثة أرباع الساعة ولكن دون جدوى. وكان الجالس الأول في الصف الثاني وسابع المحلفين. وقد وصل به الأمر إلى حد اليأس! وفي أثناء مرافعة حماسية ملتهبة توقف لاشو فجأة وتوجه بكلامه إلى رئيس محكمة الجنايات وقال: السيد الرئيس، ألا تستطيع أن تستدل الستارة المواجهة لنا. فالسيد المحلف السابع قد أعمته الشمس. وعندئذٍ احمر وجه هذا المحلف وابتسم وأصبح في صف محامي الدفاع!...

لقد حارب كتاب كبار في الفترة الأخيرة وبشدة وجود هيئة المحلفين، هذا على الرغم من أنها تمثل الحماية الوحيدة ضد الأخطاء التي كثيراً ما ترتكبها زمرة لا رقابة عليها^(٢). فبعض هؤلاء الكتاب يريدون هيئة محلفين مؤلفة فقط من أعضاء ينتمون إلى الطبقات المستنيرة. ولكننا كنا قد برهنا سابقاً على أنه حتى في هذه الحالة فإن الأحكام الصادرة ستكون مماثلة للأحكام الصادرة حالياً. وهناك كتاب آخرون يحتجون بالأخطاء التي ترتكبها هيئات المحلفين ويخلصون إلى القول بضرورة إلغائها وإحلال القضاة محلها. ولكن كيف يمكنهم نسيان أن الأخطاء التي يتهمون المحلفين بها مرتكبة أولاً وبشكل دائم من قبل القضاة أنفسهم؟ وذلك لأن المتهم المحوّل للعدالة (عدالة المحلفين) كان قد اعتبر مذنباً من قبل العديد من القضاة، كقاضي التحقيق، ونائب الجمهورية، ومجلس الاتهام. ثم ألا يرون أنه إذا ما حوكم نهائياً من قبل القضاة بدلاً من المحلفين فإن المتهم يفقد حظه الوحيد في الاعتراف به كبريء؟ إن أخطاء المحلفين كانت دائماً أخطاء القضاة أولاً. وبالتالي فينبغي لوم هؤلاء الآخرين عندما نلاحظ وجود أخطاء قضائية فاحشة فعلاً كتلك الإدانة التي حصلت للدكتور (س)... فقد لاحقه قاضي التحقيق بطريقة عنيدة وغبية فقط لأن فتاة نصف مجنونة اتهمت الدكتور بأنه قد أجهضها مقابل ثلاثين فرنكاً. وكان سيرسل إلى السجن لولا انفجار الغضب العام الذي ساهم في إصدار العفو عنه مباشرة من قبل رئيس الدولة. إن شرف المتهم وبراءته قد أجمع عليهما كل مواطنيه وأثبتا بالتالي فداحة الخطأ

المرتكب بحقه . وقد اعترف بذلك القضاة أنفسهم . ولكن على الرغم من ذلك فإن عصبية الزمرة التي تجمعهم دفعتهم إلى محاولة منع التوقيع على قرار العفو . وفي كل القضايا المشابهة المحاطة بتفاصيل تقنية لا نفهم عنها شيئاً نجد أن هيئة المحلفين تستمع بالطبع لوزارة العموم وتقول بينها وبين نفسها أن القضية لا يمكن أن تكون إلا صحيحة لأنها قد درست من قبل القضاة الخبيرين والعارفين . فأين هم إذن المسؤولون الحقيقيون عن الخطأ؟ هل هم هيئات المحلفين أم القضاة؟ لنحتفظ إذن بهذا الكنز الذي نملكه : هيئة المحلفين . فربما كانت تشكل الفئة الوحيدة من الجماهير التي لا يمكن لأي شخصية فردية أن تحل محلها . فهذه المحلفين هي وحدها القادرة على التخفيف من قساوة القانون الذي بما أنه ينطبق بالتساوي على الجميع ، فإنه لا يعترف بالحالة الخاصة أو الاستثنائية . فالقاضي غير حساس للشفقة ولا يعترف إلا بالنصوص ، وهو بقساوته المهنية يطبق نفس العقوبة على السارق القاتل وعلى البنت الفقيرة التي تضطر إلى قتل طفلها بسبب هجران صاحبها لها وبسبب البؤس والفاقة . هذا في حين أن هيئة المحلفين تشعر بالغريزة أن البنت المغرر بها أقل ذنباً بكثير من صاحبها الذي خدعها . هذا في حين أنه هو الذي ينجو من حكم القانون ! وبالتالي فنحن نعتقد أنها تستحق التسامح والتساهل من قبل القانون .

وبما أنني أعرف نفسية الزمر ونفسية الفئات الأخرى من الجماهير فإنني لا أعرف أي حالة أكون فيها شخصياً متهماً عن خطأ بارتكاب جريمة ما إلا وأفضل أن أحاكم من قبل المحلفين لا من قبل القضاة . فمع الأولين سيكون حظي أكبر من الاعتراف ببراءتي ، وسيكون حظي أقل بكثير مع الآخرين . لنخشى إذن جبروت الجماهير ، ولكن لنخشى أكثر جبروت بعض الزمر وتحكمها فينا . فالبعض قد يمكن إقناعهم وأما الآخرون فلا يحدون عن موقفهم أبداً .

الفصل الرابع

الجماهير الانتخابية

إن الجماهير الانتخابية، أي الجماعات المدعوة لانتخاب المسؤولين عن بعض المراكز والمناصب، تشكل جماهير غير متجانسة. وبما أنها لا تؤثر إلا على نقطة واحدة محددة، أي اختيار شخص من بين مرشحين عديدين، فإننا لا نستطيع أن نجد لديها إلا بعض خصائص الجماهير التي عدناها آنفاً. والصفات الأساسية التي تتجلى لديها هي بشكل خاص: ضعف القابلية للتفكير العقلاني، انعدام الروح النقدية، النزق وسرعة الغضب، السذاجة وسرعة التصديق، التبسيطية. ونعثر أيضاً في قراراتهم على تأثير القادة المحركين وعلى دور العوامل التي عدناها سابقاً: كالتوكيد، والتكرار، والهيبة الشخصية، والعدوى.

لنبحث أولاً عن كيفية إغراء هذه الجماهير. فمن دراسة هذه المجريات والأساليب التي تنجح في إغرائها أكثر يمكننا أن نستخلص نفسياتها بشكل أفضل.

فأول صفة ينبغي أن يمتلكها المرشح للانتخابات هي الهيبة الشخصية. فالهيبة الشخصية لا يمكن أن تعوّض بأي شيء آخر إلا بواسطة الثروة والغنى. ذلك أنه حتى الموهبة والعبقرية لا يمكنهما أن تكونا عنصر نجاح.

إن حاجة المرشح الماسة لأن يكون متجلبباً برداء الهيبة الشخصية وبالتالي في فرض نفسه على الآخرين دون مناقشة هي شيء أساسي

وحاسم. وإذا كان الناخبون المشكلون أساساً من العمال والفلاحين نادراً ما يختارون شخصاً من بينهم لتمثيلهم في مجلس النواب، فذلك لأن الشخصيات الخارجة من أوساطهم ليس لها أي هيبة شخصية. فهم لا ينتخبون رجالاً مساوياً لهم إلا لأسباب ثانوية، كأن يريدوا مثلاً الوقوف في وجه شخصية شهيرة أو رب عمل قوي جداً يقع الناخب تحت سلطته يومياً والذي يتوهم بالتالي أنه سيده.

ولكن امتلاك صفة الهيبة الشخصية لا يكفي لضمان نجاح المرشح. فالناخب يرغب في أن يتملق المرشح رغباته وأطماعه وعجبه وغروره. وينبغي على المرشح أن يغمره بالتزلف والتملق كما وينبغي عليه ألا يتردد في توزيع أكبر الوعود عليه. فأمام جمهور من العمال مثلاً ينبغي عليه شتم أرباب العمل وفضحهم بقدر الإمكان. وأما فيما يخص المرشح المضاد أو المنافس فإنه يحاول سحقه عن طريق تكريس الاتهامات بواسطة التأكيد والتكرار والعدوى، والقول بأنه أحط الأوغاد وأن الجميع يعرفون أنه قد ارتكب جرائم عديدة. وبالطبع فلا داعي للبحث عن أي برهان على هذه الاتهامات. فإذا كان الخصم لا يعرف جيداً نفسية الجماهير فإنه سيحاول تبرير نفسه بواسطة محاجات عقلانية بدلاً من أن يرد بكل بساطة بتأكيدات مضادة ونمائم مضادة أيضاً. وإذا لم يفعل ذلك فلن يكون له آنذاك أي حظ في الانتصار.

والبرنامج المكتوب للمرشح لا ينبغي أن يكون دقيقاً جداً أو قطعياً جداً لأن خصومه يمكنهم أن يواجهوه به فيما بعد. وكذلك برنامج الشفهي لا ينبغي أن يكون متطرفاً أو مبالغاً فيه أكثر مما يجب. بالطبع يمكنه أن يعد ناخبيه بالإصلاحات الضخمة، دون أي خوف من ذلك. فهذه الوعود المبالغ فيها تولد آثاراً ضخمة على الناخبين في لحظتها، وهو ليس مضطراً للالتزام بها بعد نجاحه. فالناخب لا يهتم لاحقاً أبداً بمسألة التحقق فيما إذا كان المرشح قد التزم بتطبيق وعوده أم لا، بل إنه ينسى ذلك تماماً على الرغم من أن الانتخابات تكون قد حسمت على أساس هذه البرامج والوعود.

"نصل الرابع : الجماهير الانتخابية

وهكذا نعر هنا على كل عوامل الإقناع التي درسناها سابقاً. وسوف نلتقي بها أيضاً عندما ندرس تأثير الكلمات والشعارات التي يستخدمها المرشحون. وكنا قد أشرنا أيضاً إلى مدى هيمنتها على نفوس الجماهير. فالخطيب الذي يعرف كيفية استخدامها والتلاعب بها يقود الجماهير كما يشاء ويشتهي. فشعارات من نوع: الرأسمال الكريه، المستغلون الحقيرون، العامل الرائع، التوزيع الاشتراكي للثروات، إلخ... تولد دائماً نفس الآثار الإيجابية على الرغم من أنها قد استهلكت من كثرة الاستخدام. ولكن المرشح الذي يستطيع أن يكتشف شعارات جديدة خالية من أي معنى دقيق أو محدد وبالتالي ف قابلة للإنطباق على الحالات الأكثر اختلافاً وتلبية مختلف الآمال، فإنه يحقق نجاحاً مؤكداً. فالثورة الدموية الإسبانية لعام (١٨٧٣) اندلعت بواسطة إحدى هذه الكلمات السحرية بالمعنى المعقد للكلمة، والتي يمكن لكل شخص أن يفسرها بحسب هواه وآماله. وقد تحدث أحد الكتاب المعاصرين عن منشأ هذه الثورة بكلمات تستحق أن تنقل كما هي :

«كان الراديكاليون قد اكتشفوا أن الجمهورية الوحشية ليست إلا عبارة عن نظام ملكي مقنع. ولكي يؤكدوا لهم ذلك كان الكورتيون قد أعلنوا الجمهورية الفيدرالية بصوت واحد دون أن يستطيع أي واحد من الذين صوتوا أن يقول ماذا فعل بالضبط. ولكن هذه الصيغة قد أعجبت كل العالم، وكان الجو مليئاً بالهذيان والحماسة والاندفاع. فقد دشنوا على سطح الأرض عهد الفضيلة والسعادة. فالجمهوري الذي كان عدوه يرفض أن يصفه بالفيدرالي كان يعتبر ذلك بمثابة إهانة وشتم لا تغتفر. وكانوا يحيون بعضهم البعض في الشوارع قائلين: مرحباً أيها الجمهوري الفيدرالي! وبعدئذ كانوا يرتلون الأناشيد الداعية للعصيان المقدس وللاستقلالية الجندي. ولكن ماذا كانت تلك «الجمهورية الاتحادية»؟ في الواقع أن البعض كان يقصد بها تحرير المحافظات والأقاليم وإقامة مؤسسات مشابهة لتلك الموجودة في الولايات المتحدة حيث توجد اللامركزية الإدارية. وأما البعض الآخر فكانوا يفهمونها على أساس أنها تعني إلغاء لكل سلطة وتدشيناً وشيكاً للثورة

الاجتماعية الكبرى. وأما الإشتراكيون في برشلونة والأندلس فكانوا يدعون إلى السيادة المطلقة لكل البلديات. وكانوا يريدون أن يقدموا لاسبانيا عشرة آلاف بلدية مستقلة لا تتلقى القوانين إلا من ذاتها وتلغي دفعة واحدة كلاً من الجيش والدرك. ثم شهدنا بعدئذٍ بقليل انتشار التمرد والعصيان في أقاليم الجنوب من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية. وما إن تكون بلدية ما قد قامت بعصيانها حتى تلجأ أولاً وقبل كل شيء إلى قطع وسائل الإتصال بكل جاراتها وبالعاصمة مدريد (قطع التلفون وسكك الحديد). ولم تكن توجد أي بلدة صغيرة إلا وتريد تحقيق استقلاليتها الذاتية. وهكذا أدت النزعة الفيدرالية إلى نوع من الأقليمية الضيقة والفجة، الحارقة والمدمرة. وفي كل مكان راحوا يحتفلون بأعياد الخلاعة.

وأما فيما يخص التأثير الذي قد تحدثه المحاجات العقلانية على نفسية الناخبين فإنه ينبغي على المرء ألا يكون قد قرأ أي محضر جلسة عن الاجتماعات الانتخابية لكي لا يفهم شيئاً عن الموضوع. ففيها يتبادلون الآراء القاطعة والتأكيدات الجازمة والشتائم وأحياناً اللطمات العنيفة، ولا يتبادلون أبداً المحاجات العقلانية. وإذا ما حصل أن ران الصمت لحظة واحدة فذلك لأن أحد المشاركين قد طرح سؤالاً محرّجاً على المرشح، وهذا ما يمتع الحضور دائماً. ولكن سرور المعارضين لا يدوم طويلاً لأن صوت المرشح سرعان ما تغطيه صيحات الخصوم. ويمكننا أن نعتبر كمثال نموذجي على الاجتماعات الانتخابية العامة محاضر الجلسات التالية التي أخذناها من بين مئات المحاضر الأخرى. وقد اقتطفتها من الصحافة اليومية. تقول هذه المحاضر:

«وعندما طلب أحد المنظمين من الحضور أن يعينوا رئيساً للاجتماع فإن العاصفة اندلعت. وكان الفوضويون يقفزون على المسرح من أجل انتزاع المكتب بالقوة. وراح الإشتراكيون يدافعون عنه بقوة، وحصل التناطح واللطم، وراحوا ينعتون بعضهم البعض

الفصل الرابع : الجماهير الانتخابية

بالجواسيس والعملاء، إلخ... وانسحب أحد المواطنين وعينه متورمة.

وأخيراً أعادوا مكتب التصويت إلى مكانه وسط الجلبة والضوضاء، وبقيت المنصة للسيد (س)...

وراح الخطيب يصب جام غضبه وحقده على الاشتراكيين الذين قاطعوه قائلين: «أيها القميء! أيها اللص! أيها الوغد!»، إلخ... ورد الخطيب (س) على هذه النعوت باستعراض طويل لنظرية تقول بأن الإشتراكيين هم عبارة عن «حمقى» أو «مهرجين».

... وأما الحزب الأليماني فقد نظم مساء أمس في قاعة التجارة بشارع فوبورغ دو تامبل اجتماعاً كبيراً وتحضيرياً لعيد العمال الواقع في الأول من مايو/أيار. وكان شعاره «الهدوء والطمأنينة».

وقد نعت الرفيق (ج...) الاشتراكيين بأنهم «قميئون» و«هزليون» وبسبب هذه الشتائم المتبادلة بين الخطباء والحضور حصلت اشتباكات بالأيدي بينهم، واستخدمت فيها الكراسي والمقاعد والطاولات، إلخ...».

ينبغي ألا نتوهم أن مثل هذا النوع من المناقشات هو حكر على طبقة معينة من الناحيين دون غيرهم، أو أنها ناتجة عن حالتهم الاجتماعية المتدنية. فالواقع أنه في كل التجمعات المغفلة نلاحظ أن المناقشات تتخذ نفس الطابع ونفس الأسلوب وتستخدم نفس العبارات والكلمات حتى ولو كان التجمع مؤلفاً من المثقفين والمتأدبين. كنت قد برهنت على أن البشر المنخرطين في الجمهور يميلون نحو التساوي من الناحية العقلية والذهنية. وفي كل لحظة نجد البرهان على ذلك. إليكم الآن محضراً عن اجتماع مؤلف من الطلاب فقط:

«راح الصخب يزداد كلما تقدمت السهرة. ولا أعتقد أن أي خطيب استطاع أن يقول جملتين متتاليتين دون أن يقاطعه أحد. وفي كل لحظة كانت الصيحات تنطلق من هذه النقطة أو تلك، أو من كل

الجهات في آن معاً. وكانوا يصفقون ويصفرون. وراحت المناقشات العنيفة تندلع بين مختلف السامعين، وارتفعت العصي في الجو مهددة بالضرب، وراحوا يضربون أرضية القاعة بشكل إيقاعي. وراح المشاغبون يلاحقون المقاطعين صارخين: «أخرجوا!!» «اصعدوا على المنصة!!».

وراح (م. س) يقذف الرابطة بكل أنواع النعوت السلبية: كالغيبة والجبانة والمتوحشة والحقيرة والعميلة والحقودة. ثم صرح بأنه سيدمرها، إلخ... إلخ.

ونحن نتساءل: كيف يمكن ضمن هذه الشروط أن يتشكل رأي الناخب؟ ولكن طرح مثل هذا السؤال يعني أننا نتوهم كثيراً حول درجة الحرية التي تتمتع بها جماعة ما أو جمهور ما. فالواقع أن للجماهير آراء مفروضة عليها، وليست ناتجة أبداً عن جهد ذهني أو محاكمة عقلية. وهذه الآراء بالإضافة إلى أصوات الناخبين تظل بين يدي اللجان الانتخابية التي يقودها المحركون الذين هم في الغالب فئة من تجار الخمور. ولهم تأثير كبير على العمال لأنهم يقرضونهم بعض المال. كتب السيد شيرير أحد كبار المدافعين عن الديمقراطية يقول:

«هل تعرفون ما معنى لجنة انتخابية؟ إنها بكل بساطة مفتاح مؤسساتنا والركن الأساسي في آلتنا السياسية. أن فرنسا اليوم محكومة من قبل اللجان الانتخابية»^(١).

وبالتالي فليس من الصعب جداً التأثير عليها بشرط أن يكون المرشح مقبولا ويمتلك موارد مادية كافية. وبحسب اعترافات الواهبين فإنه قد لزم لإنجاح الجنرال بولانجيه في الانتخابات ثلاثة ملايين فرنك.

هذه هي نفسية الجماهير الانتخابية. إنها مماثلة لنفسية الجماهير الأخرى، لا أحسن ولا أسوأ.

وإذن فإنني لا أستخلص مما سبق أي خلاصة ضد حق التصويت

العام . وإذا كان تقرير مصيره بيدي فإني سأحافظ عليه كما هو لغايات عملية ناتجة بالضبط عن دراستنا لنفسية الجماهير . وسوف أستعرض هذه الغايات بعد أن أكون قد نبهت إلى مساوئ التصويت العام .

بالطبع فإن مساوئ التصويت العام هي واضحة جداً إلى درجة أنه لا يمكن لأحد أن يجهلها . فلا أحد يستطيع أن يجحد أن الحضارات هي من صنع أقلية صغيرة متفوقة تشكل قمة الهرم الإجتماعي . وتتسع طبقات هذه الهرم كلما نزلنا نحو القاعدة ويتوافق ذلك مع تناقص القيمة العقلية لكل طبقة سفلى بالقياس إلى الطبقة العليا حتى نصل إلى القاع . وهذه كلها تشكل الطبقات العميقة لكل أمة . وعظمة حضارة ما لا يمكن أن تعتمد على تصويت العناصر الدنيا من الأمة ، فهذه لا تمثل إلا الكثرة العددية . لا ريب في أن تصويت الجماهير لا يزال خطر حتى الآن . فهو الذي جلب علينا غزوات عديدة . وإذا ما انتصرت الإشتراكية فإن نزوات السيادة الشعبية سوف تكلفنا ثمناً غالياً أيضاً ، بل وأعلى من السابق .

ولكن هذه الاعتراضات التي لا غبار عليها من الناحية النظرية تفقد عملياً كل قوتها إذا ما تذكرنا القوة الجبارة التي لا تقهر للأفكار عندما تتحول إلى عقائد إيمانية . إن عقيدة السيادة الجماهيرية لا يمكن الدفاع عنها من الناحية الفلسفية مثلها في ذلك مثل العقائد الدينية في القرون الوسطى ، ولكنها تسيطر اليوم كلياً . وبالتالي فمن المستحيل مهاجمتها اليوم كما كان مستحيلاً مهاجمة الأفكار الدينية في الماضي البعيد . لنفترض أن مفكراً حراً حديثاً قد انتقل للعيش في القرون الوسطى بواسطة قوة سحرية . فهل تعتقدون أنه كان سيجرؤ على محاربة هذه الأفكار الدينية المسيطرة بكل جبروتها على النفوس ؟ وإذا ما سقط في يدي قاضٍ ما أراد حرقه بتهمة أنه عقد حلفاً مع الشيطان أو أنه تردد على محفله في منتصف الليل ، فهل كان سيجرؤ على نفي وجود الشيطان أو محفله ؟ ولا يمكننا مناقشة عقائد الجماهير كما لا يمكننا مناقشة الإعصار . إن عقيدة حق التصويت العام تمتلك اليوم نفس القوة الجبروتية التي كانت تمتلكها العقائد المسيحية سابقاً .

فالخطباء والكتّاب يتحدثون عنها بكل احترام وخشوع لم يكن يحظى به الملك لويس الرابع عشر. وبالتالي فينبغي أن نتعامل معها كما كانوا يتعاملون مع كل العقائد الدينية. فالزمن وحده قادر على التأثير عليها.

إن محاولة زعزعة هذه العقيدة سوف يكون عديم الجدوى وخصوصاً أن الأسباب الواضحة والجلية تعمل لصالحها. يقول توكفيل بحق:

«في زمن المساواة لا يعود البشر يثقون ببعضهم البعض بسبب تشابههم، ولكن هذا التشابه يعطيهم ثقة لا حدود لها تقريباً في حكم الجمهور العام ورأيه، وذلك لأنهم يجدون من غير الممكن ألا تكون الحقيقة في جهة العدد الأكبر بما أن الجميع يمتلكون نفس العقل».

والآن هل يمكننا أن نفترض أن التصويت ينبغي أن يحصر بعدد محدود من الناس، أي بالنخبة، وبالتالي فيحسن ذلك صوت الجماهير؟ لا أستطيع قبول هذه الاحتمالية لحظة واحدة وذلك للأسباب المشار إليها آنفاً وخصوصاً للسبب التالي: هو الدونية العقلية لكل التجمعات والجماهير بالقياس إلى الفرد الواحد، أيأ تكن نوعية هذه الجماهير وتركيباتها. ففي الجمهور، ولأكرر ذلك مرة أخرى، يتساوى البشر كلهم دائماً. ورأي أربعين عالم من الأكاديمية الفرنسية بخصوص القضايا العامة لا يختلف إطلاقاً عن رأي أربعين سقاء (أو ناقل مياه). ولا أعتقد أن الانتخابات التي طالما عابوها على التصويت العام واعتبروها سلبية في نتائجها (كإعادة النظام الإمبراطوري إلى فرنسا مثلاً) كانت ستختلف لو أن التصويت انحصر فقط بالعلماء والأدباء. فأن يكون المرء عارفاً باللغة اليونانية أو بالرياضيات، أو أن يكون مهندساً معمارياً أو طبيباً بيطرياً أو طبيباً عاماً أو محامياً لا يعني أنه مزود فيما يخص مسائل العاطفة باستنارة خاصة تميزه عن الإنسان الأمي أو العادي. وكل خبراءنا في الإقتصاد هم أناس مثقفون، كلهم أساتذة وأكاديميون في معظمهم. فهل استطاعوا أن يجمعوا على مسألة عامة واحدة كمسألة الحماية الإقتصادية مثلاً؟ فأمام المشاكل الإجتماعية

الفصل الرابع : الجماهير الانتخابية

المليئة بالمجاهيل العديدة والمُسيطر عليها من قبل المنطق الصوفي أو المنطق العاطفي كل الجهلة يتساوون.

وبالتالي فإذا كان الناحبون كلهم أناساً مليئين بالعلم فإن نتائج التصويت لن تكون أفضل مما هي عليه الآن. فستقودهم حتماً عواطفهم وروح الحزب الذي ينتمون إليه. ولن تنقص مشاكلنا عندئذٍ أبداً، بل على العكس ستزداد عن طريق الطغيان الثقيل للزمر ومصالحها.

وسواء أكان التصويت العام محصوراً بفئة ضيقة أم عاماً يشمل الجميع، وسواء أطبق في بلد ملكي أم في فرنسا أم في بلجيكا أم في اليونان أم في البرتغال أم في إسبانيا فإن تصويت الجماهير سوف يظل هو هو ويعبر غالباً عن آمال العرق وحاجياته اللاواعية. ومتوسط المنتخبين بالاقتراع العام يمثل بالنسبة لكل أمة الروح المتوسطة لعرقها. فهذا المتوسط نجده تقريباً هو ذاته من جيل إلى جيل.

وهكذا نجد أنفسنا وقد وقعنا مرة أخرى على مفهوم العرق الحاسم هذا. وكنا قد التقينا به في الماضي غالباً. كما ونجد أنفسنا محكومين بحقيقة أخرى مشتقة منه وهي أن المؤسسات والحكومات تلعب دوراً ضعيفاً جداً في حياة الشعوب. فهذه الشعوب مقودة بشكل خاص من قبل روح عرقها، أي من قبل بقايا الأسلاف العتيقة التي تشكل هذه الروح خلاصتها. إن العرق ودوامه الحاجيات اليومية هما السيدان السريان اللذان يتحكمان بمصائرنا.

الفصل الخامس

المجالس النيابية

إن المجالس النيابية تشكل جماهير غير متجانسة وغير مغفلة (أي معروفة أسماء أعضائها، فهم نواب). وعلى الرغم من اختلاف طرائق انتخابها طبقاً للعصور والشعوب فإنها تتشابه كثيراً بصفاتها وخصائصها. إن تأثير العرق يفعل فيها لكي يخفف من هذه الصفات أو يضخمها ولكن ليس من أجل منع ظهور هذه الخصائص. والمجالس النيابية للأقطار الأكثر اختلافاً كالإيونان وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا وفرنسا وأمريكا تبدي من خلال مناقشاتها وأصواتها تشابهاً كبيراً وتطرح على حكومات هذه البلدان نفس الصعوبات والمشاكل.

إن النظام البرلماني يلخص في الواقع المثال الأعلى لكل الشعوب المتحضرة الحديثة، إنه يجسد تلك الفكرة الخاطئة من الناحية النفسية ولكن المقبولة بشكل عام وشامل. تقول هذه الفكرة بأن تجمع العدد الكبير من الناس يكون أكثر قدرة من العدد الصغير على اتخاذ قرار حكيم ومستقل بخصوص موضوع محدد.

إننا نعثر في المجالس النيابية على الخصائص العامة للجماهير: كالتبسيطية في الأفكار، والنزق وسرعة الغضب، والقابلية للتحريض، والمبالغة في العواطف، والتأثير الكاسح للمحركين والقادة. ولكن بسبب من تركيبها الخاصة فإن الجماهير البرلمانية تبدي بعض الخصائص المختلفة عن بقية الجماهير. وسوف نتحدث عنها بعد قليل.

إن التبسيطية في الآراء هي إحدى خصائصها الأكثر وضوحاً

وجلاء. فنحن نجد لدى كل الأحزاب، ولدى كل الشعوب اللاتينية أساساً، ميلاً دائماً لحل المشاكل الاجتماعية الأكثر تعقيداً بواسطة المبادئ التجريدية الأكثر بساطة وبواسطة القوانين العامة المطبقة على كل الأوضاع والحالات. بالطبع فإن المبادئ تختلف من حزب إلى آخر، ولكن بمجرد أن ينخرط الأفراد في جمهور ما فإنهم يميلون دائماً إلى تضخيم قيمة هذه المبادئ وإلى الدفع بها حتى نهاياتها. وهكذا يمكن القول بأن المجالس النيابية تمثل آراءً متطرفة.

والنموذج الأكثر جلاء على تبسيطة المجالس النيابية تحقق على يد اليعاقبة أثناء ثورتنا الكبرى. فقد كانوا كلهم دوغمائيين ومنطقيين، وكان دماغهم مليئاً بالعموميات الغامضة. وكانوا حريصين على المبادئ الثابتة دون أي اهتمام بالأحداث والوقائع الحية. ويمكننا أن نقول بهذا الصدد أنهم قد اجتازوا الثورة دون أن يروها.

فبواسطة بعض العقائد الدوغمائية القليلة كانوا يتوهمون بأنهم يعيدون صنع المجتمع من جديد، وإنهم يعيدون الحضارة المهذبة والرقية إلى مرحلة سابقة جداً من التطور الاجتماعي. والوسائل التي استخدموها لتحقيق هذا الحلم كانت أيضاً مطبوعة تبسيطة مطلقة. فلم يتورعوا في الواقع عن تدمير كل العقبات التي تعترض طريقهم بعنف. وكانوا جميعاً من جيرونديين وجبليين وتيرميدوريين، إلخ... مشبعين بنفس الروح.

إن الجماهير البرلمانية شديدة القابلية للتحريض والعدوى. وكما هي العادة دائماً فإن التحريض يصدر عن محرّكين أو قادة محاطين بهالة الهيبة الشخصية. ولكن قابلية التحريض والعدوى تظل محدودة في المجالس النيابية، وذلك للأسباب التالية.

فيما يخص كل المسائل ذات الأهمية المحلية نجد أن كل نائب يمتلك آراء ثابتة وراسخة لا يمكن لأي مناقشة عقلانية أن تزعزعها. فكل موهبة ديموستين لا يمكن أن تتوصل إلى تغيير صوت نائب ما بخصوص مسائل من نوع الحماية الاقتصادية أو امتيازات صانعي

المشروبات الكحولية الذين يمثلون مطالب الناخبين النافذين . والاقتراح التحريضي السابق لهؤلاء الناخبين غالب ومهيمن إلى الحد الذي يلغي فيه كل الاقتراحات الأخرى ويحافظ على ثبوتية مطلقة للآراء^(١) .

وفيما يخص المسائل العامة كقلب وزارة أو فرض ضريبة ما ، إلخ . . . نجد أن ثبوتية الرأي تختفي ، ويمكن عندئذٍ للاقتراحات التحريضية للمحركين والقادة أن تفعل فعلها ، ولكن ليس تماماً كما يحصل في جمهور عادي . ولكل حزب محركه وقادته الذين يمارسون أحياناً نفوذاً متساوياً . وبالتالي فإن النائب يجد نفسه مُتَنَازِعاً بين عدة اقتراحات تحريضية متناقضة ويصبح بالضرورة شديد التردد . هكذا نجده غالباً يغير رأيه في التصويت قبل ربع ساعة فقط ، ويصوت بطريقة مغايرة لما كان قد أعلنه سابقاً ، أو يضيف إلى قانون ما مادة تلغيه : كأن يحرم الصناعيين مثلاً من حق اختيار عمالهم أو طردهم ثم يقدم بعدئذٍ تعديلاً على القانون يؤدي إلى إلغاء مفعوله تقريباً .

ولهذا السبب نجد في كل دورة نيابية أن البرلمان يبدي آراء ثبوتية جداً وأخرى ملتبسة جداً . وفي نهاية المطاف لما كانت المسائل العامة هي الأكثر عدداً فإن الالتباس هو الذي يتغلب . وهذا الالتباس يغذيه الخوف المستمر من الناخب ، والاقتراح التحريضي المضمّر لهذا الخوف يتوصل دائماً إلى موازنة تأثير القادة المحركين .

وهؤلاء الأخيرون هم في نهاية المطاف الأسياد الحقيقيون للمناقشات التي لا يكون للنواب آراء مسبقة أو ثابتة تجاهها .

إن الحاجة للقادة المحركين شيء لا جدال فيه لأننا نجدهم في كل البلدان تحت اسم رؤساء المجموعات النيابية . إنهم الملوك الحقيقيون للمجالس النيابية . والناس المنخرطون في الجمهور لا يمكنهم الاستغناء عن زعيم أو سيد ، ولهذا السبب فإن التصويت الجاري في مجلس نيابي ما لا يعبر عموماً إلا عن رأي أقلية صغيرة .

إن القادة المحركين ، ولنكرر ذلك مرة أخرى ، يتحركون قليلاً جداً بواسطة العقل والمحاكمة العقلية ، وكثيراً جداً بواسطة هيبتهم

الشخصية. وإذا ما عرّتهم منها حالة ظرفية ما فإنهم يفقدون كل تأثير ونفوذ.

وهذه الهيبة التي يتمتع بها القادة المحركون فردية ولا علاقة لها لا بالإسم ولا بالشهرة. كان السيد جول سيمون قد عرف البرلمان كنائب وتحدث عن رجاله العظام عام (١٨٤٨)، وقدم لنا أمثلة مدهشة وغريبة فعلاً. يقول:

«لم يكن لويس نابليون شيئاً يذكر قبل شهرين فقط من تحوله إلى شخص جبار».

ثم صعد فيكتور هيغو إلى المنصة، ولم ينجح في مهمته. وقد استمعوا إليه كما يستمعون لفيلكس بيات، ولكنهم لم يصفقوا له بنفس القدر. قال لي فولابيل وهو يتحدث عن فيلكس بيات: «لا أحب أفكاره، ولكنه أحد كبار كتّاب فرنسا وخطبائها». أما إدغار كينيه، ذلك الرجل النادر والعظيم فلم يكن له أي شأن. فقد عرف شعبية كبيرة للحظة ما قبل افتتاح المجلس النيابي، ولكنه لم يكن يحظى داخل المجلس بأي شعبية.

إن المجالس النيابية السياسية هي آخر محل في الأرض يمكن للعبقرية أن تشع فيه. فلا أهمية فيه إلا للفصاحة الخطابية المتناسبة مع الزمان والمكان، وللخدمات المقدمة للأحزاب السياسية لا للوطن. أما الجمهور العادي فيتلقى هيبة القائد المحرك ولا يدخل في سلوكه أي مصلحة شخصية ولا ينتظر جزاء ولا شكوراً.

إن محرك الجماهير المزود بهيبة كافية يمتلك سلطة مطلقة تقريباً. ونحن نعرف حجم النفوذ الهائل الذي يتمتع به نائب مشهور طيلة سنوات عديدة بفضل هيئته الشخصية التي تضيع فيما بعد مؤقتاً بسبب بعض الأحداث والمشاكل المالية. فقد كان قادراً بمجرد إشارة من قبله أن يقلب وزراء عديدين. وقد سجل أحد الكتّاب في السطور التالية بشكل واضح أهمية عمله:

«نحن مدينون للسيد (م. س) . . . بأننا اشترينا جزيرة التونكان بسعر أعلى بثلاث مرات مما كان ينبغي أن يكلفنا، وبأننا لم نرسّخ أقدامنا في مدغشقر، وبأننا حرّمنا أنفسنا من إمبراطورية كاملة على حوض النيجر، وبأننا خسّرنا وضعنا المهيمن الذي كنا نحتله في مصر. هكذا نجد أن نظريات (م. س) . . . قد كلفتنا من خسارة الأراضي أكثر مما كلفتنا مغامرات نابليون الأول وكوارثه».

ولا ينبغي أن نلوم كثيراً هذا المحرك القائد المعني بالكلام السابق. بالطبع فقد كلفنا غالياً جداً، ولكن قسماً كبيراً من تأثيره عائد إلى أنه كان يتبع رغبات الرأي العام الذي كانت آرائه بخصوص المسائل الاستعمارية مختلفة عما أصبحت عليه اليوم. إن المحرك نادراً ما يسبق الرأي العام، بل هو يجهد في الغالب الأعم في تبني أخطائه.

والوسائل الإقناعية التي يستخدمها المحركون بعد الهيبة الشخصية هي العوامل التي كنا قد عدناها مرات عديدة. ولكي يتصرف بها بذكاء ينبغي على المحرك أن يفهم أعماق نفسية الجماهير على الأقل بطريقة لا واعية. وينبغي أن يعرف كيف يتحدث إليها، وكيف يعرف بشكل خاص أن يستخدم التأثير السحري للكلمات والشعارات والصور الإيحائية. وينبغي عليه أن يمتلك فصاحة خاصة تستخدم طريقة التأكيدات القاطعة والوثيقة من نفسها، كما وتستخدم الصور الانطباعية المؤثرة والمحاطة بمحاكمات عقلية مبتسرة ومختزلة. ويمكننا أن نجد هذا النوع من الفصاحة البلاغية في كل المجالس النيابية بما فيها البرلمان الإنكليزي على الرغم من أنه أكثرها اتزاناً ورزاقاً. يقول الفيلسوف الإنكليزي «مين» :

«يمكننا أن نقرأ دائماً مناقشات مجلس العموم حيث نجدها تقتصر على تبادل العموميات الضعيفة التي تقوم بها شخصيات عنيفة بما فيه الكفاية. وهذا النوع من العبارات العمومية يمارس تأثيراً هائلاً على مخيلة الناس في الديمقراطيات الحقيقية. فمن السهل دائماً أن نجعل جمهوراً ما يقبل المزاعم الأكثر عمومية والمعروضة بلغة مؤثرة، هذا

على الرغم من أنها غير محققة وربما كان من المستحيل التحقق من صحتها».

إن أهمية «اللغة المؤثرة» المذكورة في هذا المقطع ليست بحاجة إلى برهان، ومهما ألححنا عليها فلن نبالغ في ذلك. كنا قد ألححنا أكثر من مرة على مدى القوة والتأثير الخاص للكلمات والشعارات أو العبارات المختارة بطريقة تثير صوراً إيحائية وحية جداً. إن العبارة التالية التي استعرتها من خطاب أحد المحركين في المجالس النيابية تقدم لنا عينة ممتازة على ما نقول:

«في اليوم الذي تحمل فيه نفس السفينة نحو الأرض المضطربة للنفي والتغريب ذلك السياسي الفاسد والفوضوي القاتل في آن معاً، أقول في ذلك اليوم يمكنهما أن يتناقشا مع بعضهما البعض ويبدوان لبعضهما البعض كوجهين متكاملين لنفس النظام الاجتماعي».

فالصورة المثارة هنا واضحة، جلية، مؤثرة. وكل خصوم هذا النائب الخطيب يشعرون بأنهم مهددون من قبلها، فهم يرون دفعة واحدة البلدان المضطربة الهائجة، والسفينة التي قد تحملهم. أفلا يمكن القول إذن بأنهم يشكلون جزءاً من تلك الفئة المحدودة جداً من السياسيين المهددين؟ ويشعرون عندئذٍ بذلك الخوف الصامت الذي أحس به أتباع الجمعية الوطنية المهددين بشفرة المقصلة من قبل الخطابات الغامضة لروبسبير. وكان هذا الخوف يجرحهم دائماً إلى الخضوع.

ومن مصلحة المحركين أن يبالغوا في الأمور ويضخموها إلى أبعد حد. فالخطيب الذي استشهدت بعبارة له قبل قليل استطاع أن يؤكد بدون أن يشير كبير احتجاج بأن أصحاب المصارف والكهنة يستأجرون قاذفي القنابل للعمل لصالحهم!، وبأن مديري الشركات المالية الكبرى يستحقون نفس العقوبات كما الفوضويين. إن مثل هذه الأساليب تؤثر دائماً على الجماهير. فمهما يكن التأكيد مبالغاً فيه لا يكون غاضباً بما فيه الكفاية، ولا الخطابة مهددة بما فيه الكفاية. ينبغي دائماً تقديم المزيد

الفصل الخامس : المجالس النيابية

منهما. ولم يعد هناك أي شيء يخيف السامعين. فهم إذا ما احتجوا خافوا من اتهامهم بالخيانة أو التواطؤ.

وهذه الفصاحة الخطابية الخاصة هيمنت كما قلت قبل قليل على كل المجالس النيابية. وفي الفترات الحرجة تزداد حدتها. إن قراءة الخطب التي ألقاها الخطباء الكبار للثورة الفرنسية ممتعة جداً وعظيمة الدلالة من وجهة النظر هذه. فقد كانوا يعتقدون أنهم مضطرون لقطع خطابهم في كل لحظة من أجل فضح الجريمة وتمجيد الفضيلة، ثم ينفجرون باللعنات ضد الطغاة، ويقسمون بأنهم سيعيشون أحراراً أو يموتون. وكان الحضور ينهضون ويصفقون لهم بكل هيجان ثم يعودون للجلوس بعد أن يهدأوا.

ويمكن للقائد المحرك أن يكون أحياناً ذكياً ومثقفاً. ولكن ذلك يضره عموماً أكثر مما ينفعه. إن الذكاء إذ يبين تعقد الأشياء ويتيح تفسيرها وشرحها يجعل المرء أكثر تسامحاً ويضعف بالتالي إلى حد بعيد من حدة القناعات وعنفها. وهذه القناعات ضرورية للرسول والمبشرين كما هو معروف. إن القادة المحركين في كل العصور، وخصوصاً أولئك الذين برزوا أثناء الثورة الفرنسية، كانوا محدودي العقل جداً، ومع ذلك فقد مارسوا تأثيراً كبيراً.

إن خطابات أشهر واحد فيهم، أي روبسبير، مذهلة في الغالب من حيث تناقضاتها وعدم تماسكها. وعندما نقرأها لا نجد فيها أي تفسير معقول للدور الضخم الذي لعبه الديكتاتور الكبير. قيل عنها:

«إنها أشياء مبتذلة وملئية بالتكرار الخاص بالفصاحة التربوية والثقافة اللاتينية الموضوعة في خدمة روح تبدو صبيانية أكثر مما هي مسطحة. وهي تحصر نفسها في الهجوم كما في الدفاع بتلك العبارة الخاصة بتلاميذ المدرسة: «هلموا إذن!». ليس فيها أي فكرة جديدة ولا لفظة ولا ميزة خصوصية. إنها تمثل الضجر في الإعصار. وعندما نخرج من هذه القراءة الكثيبة نشعر بالحاجة لأن نصرخ: أوف! كما كان يفعل الرجل اللطيف كامي ديمولان».

إنه لمن المرعب أن نفكر ولو للحظة واحدة بتلك السلطة التي يخلعها الاقتناع القوي على رجل محاط بهالة الهيبة الشخصية إذا ما اقترن هذا الاقتناع بضيق العقل والنظر. إنها لسلطة هائلة. ولكن هذين الشرطين (أي الاقتناع القوي وضيق النظر أو عدم التفكير بالعواقب) ضروريان لمن يريد أن يقتحم ويجهل العقبات. والجماهير تعرف هؤلاء القادة بالغريزة وترى فيهم السيد المطاع والرجل ذا التصميم العنيد الذي يلزمها.

ونلاحظ فيما يخص المجالس النيابية أن نجاح خطاب ما يعتمد تقريباً بشكل كلي على الهيبة الشخصية للخطيب، وليس أبداً على الحجج أو المقترحات التي يحتويها.

فالخطيب المجهول يصل إلى البرلمان بخطاب مليء بالحجج العقلانية والمقترحات الجيدة ولكن ليس له أي حظ في أن يُستمع إليه إذا ما اكتفى بذلك.

وقد كتب نائب سابق هو السيد ديكوب السطور التالية وقدم لنا صورة عن الخطيب الذي لا يتمتع بهيبة شخصية. قال:

«عندما جلس على المنصة أخرج من حقيبته إضبارة ونشرها بتؤدة أمامه وابتدأ الكلام بكل ثقة.

وشعر بالزهو لأنه نقل إلى نفوس السامعين تلك القناعة التي تعمر صدره. ثم درس حججه وأعاد دراسته مراراً وتكراراً، وكانت مليئة بالأرقام الدقيقة والبراهين. وكان واثقاً من أنه على حق. وكل اعتراض على البراهين التي يقدمها راح يبدو عبثياً لا معنى له. وابتدأ كلامه وكله ثقة بأحقية موقفه وبمقاصد زملائه أيضاً، هؤلاء الزملاء الذين ينتظرون شيئاً واحداً هو: الانحناء أمام الحقيقة.

وراح يتكلم ويتكلم، ولكنه دهش فجأة لصدور حركة عن القاعة وشعر بالإنزعاج لهذه الضوضاء الصادرة.

راح يتساءل: لماذا لا يستتب الصمت؟ لم هذه اللامبالاة

العامة تجاه خطابي؟ بم يفكر إذن أولئك النواب الذين يتحدثون فيما بينهم؟ ما الباعث الملح إلى مثل هذا الحد والذي يجعل النائب الفلاني يترك مكانه؟

وهكذا خيم القلق على جبينه، وقطب حاجبيه وسكت. ثم شجعه الرئيس فانطلق من جديد ورفع صوته. ولكن إصغاءهم له انخفض أكثر. فشدد لهجته وراح يهيج ويثور، ولم ينفع ذلك في شيء فقد ازدادت الضجة حوله. ولم يعد يسمع حتى نفسه فتوقف من جديد. ولكنه خشي من أن يؤدي صمته إلى إثارة الصرخة المشهورة: أقفلت الجلسة! فانطلق بقوة من جديد، ولكن الضوضاء أصبحت لا تحتمل.

إن المجالس النيابية إذا ما وصلت إلى درجة معينة من الهيجان تصبح مشابهة للجماهير العادية غير المتجانسة، وبالتالي فإن عواطفها تتميز دائماً بالتطرف. فنحن نجدها أحياناً تنجز أفعالاً بطولية، وأحياناً أخرى ترتكب أبشع الأعمال. فالفرد يبطل عندئذ أن يكون ذاته ويصوت على القرارات الأكثر تعارضاً مع مصالحه الشخصية.

إن تاريخ الثورة الفرنسية يبين لنا إلى أي مدى يمكن للمجالس النيابية أن تفقد وعيها وتتبنى المقترحات المعارضة لمصالحها. فتخلي طبقة النبلاء الفرنسيين عن امتيازاتها كان يشكل تضحية هائلة، وعلى الرغم من ذلك فقد قامت بهذه الخطوة دون أي تردد في تلك الليلة الشهيرة للجمعية التأسيسية الفرنسية. وكان تراجع أعضاء الجمعية التأسيسية عن حصانتهم البرلمانية يشكل خطراً دائماً بالموت بالنسبة لهم، ومع ذلك فقد قاموا بذلك ولم يتورعوا عن تصفية بعضهم البعض وهم يعرفون جيداً أن منصة الإعدام التي يرسلون زملاءهم إليها اليوم سوف تكون من حظهم غداً. ولكن بعد أن وصلوا إلى تلك المرحلة من فقدان الإرادة الكاملة التي وصفتها، فإنهم لم يعودوا يستطيعون منع أنفسهم من الإنصياع للمقترحات التي تنوّمهم مغناطيسياً. إن المقطع التالي من مذكرات أحدهم «بيلوفارين» يشكل نموذجاً صارخاً فيما يخص هذه النقطة. يقول: «إن القرارات التي طالما لامونا عليها لم

نكن نريدها غالباً قبل يومين أو حتى يوم واحد من التصويت. فقد كانت الأزمة وحدها هي التي تثيرها». وليس هناك أكثر صحة من هذا الكلام.

ونفس ظواهر فقدان الوعي تجلت طيلة كل الجلسات العاصفة للجمعية التأسيسية. يقول «تين» بهذا الصدد ما يلي:

«كانوا يوافقون على القرارات ويصدرون القرارات الخاصة بكل ما يزعجهم ويخيفهم. لم يكونوا يوافقون فقط على الحماقات والجنون وإنما على الجرائم أيضاً وعلى قتل البريئين وقتل أصدقائهم. فقد تحالف اليسار مع اليمين وأرسل بالإجماع وتحت التصفيق دانتون إلى خشبة المقصلة، هذا على الرغم من أنه الزعيم الطبيعي للثورة وقائدها الكبير. وبإجماع اليمين واليسار وتحت التصفيق راحوا يصوتون على أسوأ قرارات الحكومة الثورية. وبالإجماع وبصرخات الإعجاب والحماسة المرفقة بشهادات التعاطف القوي تجاه «كولو ديربوا» وتجاه «كوتون» و«روبسبير» راحت الجمعية التأسيسية تحافظ على حكومة القتل والإجرام عن طريق إعادة الانتخاب العفوي والمتكرر لها. هذا على الرغم من احتقار لابلين لها لأنها قاتلة ومجرمة، وعلى الرغم من احتقار جماعة لامونتانييه لها لأنها تريد استئصالهم. وقد اتفق لابلين ومونتانييه، أي الأكثرية والأقلية، في نهاية المطاف على مساعدة هذه الحكومة على انتحارهم الجماعي. وبتاريخ (٢٢) أيار وافقت الجمعية التأسيسية كلها على مدّ عنقها للمقصلة. ثم في (٨) تموز وأثناء ربع الساعة الذي تلا خطاب روبسبير مدت عنقها مرة أخرى».

قد تبدو هذه اللوحة التي يقدمها تين سوداء. ولكنها صحيحة على الرغم من ذلك. فالمجالس النيابية المستثارة بما فيه الكفاية والمنومة مغناطيسياً تبرز نفس الخصائص كبقية الجماهير. فهي تصبح عبارة عن قطع غنم متحرك يخضع لكل الدوافع الغرائزية. والوصف التالي للمجلس النيابي السائد عام (١٨٤٨) يقدم مثلاً نمطياً ونموذجياً على ذلك. وقد قدمه لنا نائب لا يشك بإيمانه بالديمقراطية هو السيد سبولير، وسوف أثبتته هنا نقلاً عن المجلة الأدبية. ففيه نجد كل العواطف

الفصل الخامس: المجالس النيابية

المتضخمة والمبالغ فيها والتي استخلصتها سابقاً من دراسة الجماهير. وهذه الحركية الزائدة تتيح لنا المرور من لحظة إلى أخرى بكل سلم العواطف الأكثر تناقضاً. يقول النائب المذكور:

«إن انقسامات الحزب الجمهوري وشيوع الغيرة والارتباب في صفوفه بالإضافة إلى تناوب الثقة العمياء والآمال اللامحدودة على صفوفه قد أودت به في نهاية المطاف. ولم يكن يساوي سذاجته وبراءته إلا عدم ثقته العامة والكونية. لم يكن لديه أي حس بالشرعية القانونية، ولا أي فهم للنظام الداخلي. فاخرقته أنواع الإرهاب والأوهام التي لا حد لها. وكان الفلاح والطفل يلتقيان في هذه النقطة. وكان هدوؤهم يعادل نفاد صبرهم. وكانت وحشيتهم معادلة لوداعتهم. وهذه صفات الطبع غير الناضج والتربية المعدومة. فلا شيء يدهشهم، وكل شيء يزعجهم. فقد كانوا خائفين، مرتجفين، وكانوا شجعاناً، وأبطالاً في ذات الوقت. كانوا مستعدين لإلقاء أنفسهم في لهب النيران، وللتراجع خوفاً أمام شبح ما.

ولم يكونوا يعرفون الآثار الناتجة عن فعل ما أو العلاقات الكائنة بين الأشياء. وكانوا مستعدين بنفس الدرجة للإحباط كاستعدادهم للحماسة والإستشارة. وكانوا عرضة لكل أنواع الذعر، ودائماً أما في الأعلى جداً، وأما في الأسفل جداً. ولم يكونوا أبداً متوازنين أو حيث ينبغي أن يكونوا. كانوا أكثر سيلاً من الماء، ويعكسون كل الألوان ويتخذون كل الأشكال. فأى قاعدة حكومة يمكن أن تركز عليهم؟».

لحسن الحظ فإن كل الخصائص التي انتهينا من ذكرها فيما يخص المجالس البرلمانية لم تكن تظهر باستمرار فيها. فالواقع يفرض علينا القول بأن المجالس النيابية ليست جماهيراً بالمعنى الإصطلاحي للكلمة إلا في بعض الأوقات. والأفراد الذين يشكلونها يتوصلون إلى المحافظة على فردانيتهم في حالات عديدة جداً، ولهذا السبب يمكن للمجالس النيابية أن تصوغ قوانين تقنية ممتازة. صحيح أن «ال» القوانين يتم تحضيرها مسبقاً من قبل الاختصاصي في الد... ».

للمكاتب الوزارية أو البرلمانية. والواقع أن القانون المصوّت عليه هو من صنع فرد واحد، لا مجلس نيابي بأكمله. وهذه القوانين هي الأفضل بالطبع. ولا تصبح مدمّرة أو سيئة إلا إذا لحقتها سلسلة من التعديلات التعيسة التي تجعلها جماعية. فعمل الجمهور أقل مستوى من عمل الفرد الواحد في كل مكان ودائماً. ووحدهم كبار الاختصاصيين في القانون هم الذين ينقذون المجالس النيابية من اتخاذ التدابير المضطربة والإرتجالية، وهم عندئذٍ يصبحون قادة ومحركين مؤقتين. فالمجلس النيابي لا يؤثر عليهم وإنما هم الذين يؤثرون عليه.

وعلى الرغم من كل صعوبات تسييرها، فإن المجالس النيابية تمثل أفضل طريقة وجدتها الشعوب حتى الآن من أجل حكم ذاتها، ثم بشكل أخص من أجل التخلص إلى أبعد حد ممكن من نير الإستبداد والطغيان الشخصي. ولا ريب في أنها تشكل المثال الأعلى للحكومة والحكم على الأقل بالنسبة للفلاسفة والمفكرين والكتاب والفنانين والعلماء، أي باختصار بالنسبة لكل أولئك الذين يشكلون ذروة حضارة ما.

ولا يهددها إلا خطران جديان هما: التبذير الاجباري للميزانية، والتقييد التدريجي على الحريات الفردية.

وأول هذين الخطرين هو نتيجة إجبارية لمطالب الجماهير الانتخابية وعمى بصيرتها. فعندما يقترح نائب ما مشروع قرار يرضي المشاعر والأفكار الديمقراطية كأن يقترح مثلاً تقديم التقاعد لكل العمال، أو زيادة رواتب عمال الطرقات أو المعلمين، إلخ... فإن النواب الآخرين لا يستطيعون إلا الموافقة على الاقتراح خوفاً من أن يُتهموا بعدم المبالاة بمصالح ناخبهم. ولكنهم يعلمون أن اعتماد القرار سوف يسيء كثيراً إلى ميزانية الدولة ويتطلب فرض ضرائب جديدة. ومع ذلك فمن المستحيل عليهم أن يترددوا في التصويت عليه. وذلك لأن النتائج المترتبة على زيادة المصروفات بعيدة بالنسبة لهم ولا تسيء لمصالحهم الشخصية، هذا في حين أن عدم تصويتهم على القرار المذكور يجعلهم يدفعون الثمن باهظاً في أقرب انتخابات مقبلة.

الفصل الخامس : المجالس النيابية

وبالإضافة إلى هذا السبب الأول الخاص بزيادة المصاريف هناك سبب آخر لا يقل إكراهاً وإلزاماً : هو الموافقة على كل المصاريف ذات المصلحة المحلية الصرفة . فلا يمكن لأي نائب أن يعترض عليها . وذلك لأنها تمثل مطالب الناخبين أيضاً ، ولا يمكن لأي نائب أن يحصل على ما يحتاجه بالنسبة لدائرته الانتخابية إلا إذا وافق على المطالب المشابهة لزملائه النواب الآخرين بالنسبة لدوائرهم^(٢) .

أما الخطر الثاني المذكور آنفاً والمتعلق بتقييد الحريات الفردية فهو غير ظاهر للعيان كالسابق ولكنه موجود بالفعل . فهو ناتج عن القوانين العديدة جداً والتي هي دائماً حصرية تقيد الحرية . والمجالس النيابية لا ترى انعكاساتها ونتائجها بسبب روحها التبسيطية ، وبالتالي فهي تعتقد أن من واجبها التصويت عليها .

وهذا الخطر محتوم ولا مفر منه لأن انكلترا نفسها حيث يوجد أفضل نموذج للنظام البرلماني وحيث أن النائب هو الأكثر استقلالية بالقياس إلى ناخبه ، أقول إن إنكلترا نفسها لم تستطع أن تتخلص منه . كان هيربرت سبنسر قد بين في كتاب قديم أن زيادة الحرية الظاهرية يعني التنقيص من الحرية الحقيقية . ثم استعاد نفس الأطروحة في كتابه «الفرد ضد الدولة» ، وعبر عن رأيه تجاه البرلمان الإنكليزي على النحو التالي :

«راح التشريع منذ ذلك الوقت يتبع المسار الذي أشرت إليه . وراحت القرارات الديكتاتورية تتزايد بسرعة وقد مالت إلى التضييق على الحريات الفردية باستمرار ، وذلك بطريقتين : أولاً طريقة التنظيم واتخاذ القرارات . ففي كل سنة كانت تتخذ القرارات بعدد أكبر وتفرض إكراهات قسرية على المواطن حيث كانت أعماله حرة تماماً سابقاً . ثم تجبره على إنجاز أعمال كان يمكنه سابقاً أن ينجزها أولاً ينجزها بمحض إرادته . وفي نفس الوقت راحت المسؤوليات العامة الثقيلة أكثر فأكثر ، وبخاصة المحلية ، تقلص من حريته أكثر عن طريق التقليل من حصة الفائدة التي يمكنه أن يصرفها كما يشاء ويشتهي ، ...»

زيادة الحصص التي سلبت منه لكي تصرف طبقاً لأهواء موظفي الدولة».

وهذا التقليل المتدرج للحريات يتجلى بالنسبة لكل البلدان على هيئة خاصة لم يشر إليها هيربرت سبنسر: نقصد سنّ عدد هائل من القوانين التشريعية، وكلها تنحوي باتجاه التقليل والتقييد عموماً، وهذا ما يؤدي بالضرورة إلى زيادة عدد الموظفين المكلفين بتطبيقها وزيادة سلطتهم ونفوذهم. وهم يميلون بذلك إلى أن يصبحوا السادة الحقيقيين للبلدان المتحضرة. فسلطتهم قوية باستمرار لأن الحكومات تتغير وهم لا يتغيرون. ويحظون باللامسؤولية والغفلة والديمومة. ونحن نعلم أنه من بين كل أنواع الاستبداد فليس أكثر طغياناً من تلك التي تتحلى بهذه الصفات الثلاث.

إن سن القوانين باستمرار ودون توقف، وكذلك سن التشريعات المقيدة التي تغلف أصغر عمل من أعمال الحياة بعبارات بيزنطية معقدة، يؤدي في نهاية المطاف إلى التقليل التدريجي للدائرة التي يمكن للمواطنين أن يتحركوا داخلها بحرية. فالشعوب تقع ضحية ذلك الوهم القائل بأنه كلما زدنا من عدد القوانين فإن المساواة والحرية تصبحان مضمونتين بشكل أفضل. وهكذا تقبل في كل يوم بفرض إكراهات قسرية جديدة.

وقبولهم لها لا يمر بدون عقاب. فبما أنهم اعتادوا على احتمال كل العبوديات، فإن الأمر ينتهي بهم أخيراً إلى البحث عنها وفقدان كل عفوية وكل طاقة. ولا يعودون عندئذٍ إلا عبارة عن أشباح لا جدوى منها، وعن آلات ميكانيكية سلبية، بدون إرادة وبدون مقاومة وبدون قوة.

ولكن الطاقات والخواطر التي لم يعد الإنسان يجدها في نفسه تجبره على أن يبحث عنها في مكان آخر. وبسبب لا مبالاة المواطنين وعجزهم المتزايد فإن دور الحكومات سوف يكبر بالضرورة. وينبغي على هذه الأخيرة أن تمتلك روح المبادرة والقيام بالمشاريع وقيادة الأعمال والشؤون بعد أن فقد كل ذلك لدى الأفراد المستقلين. فالدولة

الفصل الخامس : المجالس النيابية

أصبحت مسؤولة عن كل شيء وحماية كل شيء . وتصبح الدولة عندئذٍ إلهاً جباراً . ولكن التجربة تعلمنا أن سلطة آلهة كهذه لم تكن أبداً دائمة ولا قوية جداً .

إن التقليل التدريجي لكل الحريات لدى بعض الشعوب يبدو أنه ناتج عن شيخوختها بقدر ما هو ناتج عن النظام السياسي . نقول ذلك على الرغم من مظاهر التحلل والإباحية التي قد توهم هذه الشعوب بامتلاك الحرية . وهذا التقليل يشكل أحد الأعراض المندرة بمجيء مرحلة الانحطاط التي لم تستطع أي حضارة في العالم أن تنجو منها حتى الآن .

وإذا ما تأملنا بدروس الماضي وعبره، ونظرنا إلى الأعراض البادية حولنا من كل الجهات فإننا نرى أن الكثير من حضاراتنا الحديثة قد وصلت إلى مرحلة الشيخوخة القصوى التي تسبق مباشرة الانحطاط . وبعض التحولات تبدو قاتلة بالنسبة لكل الشعوب لأننا نراها تتكرر غالباً جداً في التاريخ .

ومن السهل أن ندرس باختصار مراحل هذه التحولات والمجريات التاريخية . وسوف نختم كتابنا بتقديم لمحة موجزة عنها .

إذا ما درسنا منشأ عظمة وانحطاط الحضارات التي سبقت حضارتنا بخطوطها العريضة فماذا نرى؟

نرى في بداية هذه الحضارات قلة من الرجال المتمين إلى أصول متنوعة وقد اجتمعوا بحسب هوى الهجرات والغزوات والفتوحات . فهم من دماء مختلفة ولغات وعقائد مختلفة، وليس بينهم أي رابط مشترك إلا قانون الزعيم المعترف به نصفياً فقط . وفي هذا الخليط المتجمع نجد الصفات النفسية للجماهير في أعلى درجاتها . فهذه الجماهير تمتلك التماسك المؤقت والبطولات وأنواع الضعف والنواقص والغرائز الإندفاعية والعنف . فلا شيء ثابت فيها، إنهم برابرة .

ثم يمر الزمن ويكمل عمله . فتماثلية البيئة وتكرر التصالب

والتقاطع بين الجماعات وحاجيات الحياة المشتركة، كل ذلك يتضافر لكي يفعل فعله ببطء. وعندئذٍ تبتدىء هذه الوحدات غير المتجانسة في الإنصهار ببعضها البعض لكي تشكل عرقاً واحداً، أي ركاماً يمتلك خصائص وعواطف مشتركة تحددها عوامل الوراثة بالتدريج. هكذا يصبح الجمهور شعباً، وهذا الشعب سوف يستطيع الخروج من حالة البربرية.

ولكنه لن يخرج منها كلياً إلا بعد بذل جهود طويلة وصراعات عديدة ومحاولات لا تعد ولا تحصى تؤدي به في نهاية المطاف إلى اكتساب مثل أعلى يهتدي به. وليس مهماً طبيعة هذا المثل الأعلى. فسواء أكان عبادة روما أو قوة أثينا أو انتصار الله (أي الإسلام) فإنه يكفي لصهر كل الأفراد في العرق الذي هو في طور التشكل وجمعهم في وحدة العاطفة والفكر.

وعندئذٍ يمكن أن تولد حضارة جديدة بكل مؤسساتها وعقائدها وفنونها. وفي زخم الحلم يستطيع العرق المعني أن يكتسب على التوالي كل ما يعطي الشهرة والقوة والعظمة. وسوف يظل جمهوراً في بعض النواحي والأوقات بدون شك، ولكن وراء الخصائص المتحركة والمتغيرة للجماهير يوجد ذلك الجوهر الصلب والدائم، أقصد روح العرق الذي يحد بقوة من تذبذب شعب ما ويتحكم بعامل الصدفة والمفاجأة.

ولكن بعد أن يكون قد مارس عمله الخلاق فإن الزمن يبتدىء بعمله الآخر: أي التدمير. هذا التدمير الذي لا تنجو منه لا الآلهة ولا البشر. فبعد أن تصل الحضارة إلى مستوى معين من القوة والتعقيد، فإنها تتوقف عن النمو والكبر. وما إن تتوقف عن الكبر حتى تصبح مدانة بالانحطاط السريع. وعندئذٍ تدق ساعة الشيخوخة دون إبطاء.

ومن صفات هذه الساعة المحتومة وهنّ يصيب المثل الأعلى الذي كان يدعم روح العرق البشري الصانع لهذه الحضارة. فكلما راح

الفصل الخامس : المجالس النيابية

هذا المثال يشحب ويضعف، فإن كل المؤسسات الدينية والسياسية والاجتماعية التي كان يلهمها تبتدىء بالتزعزع.

ومع الاضمحلال التدريجي لمثاله الأعلى، فإن العرق يفقد أكثر فأكثر كل ما كان يصنع تماسكه ووحدته وقوته. ويمكن للفرد عندئذ أن ينمو في شخصيته وذكائه، ولكن يحل في ذات الوقت محل الأنانية الجماعية للعرق نمو زائد جداً للأنانية الفردية مصحوبة بوهن الطبع والشخصية وبضعف في القابلية على الممارسة والانخراط. وما كان يشكل شعباً ووحدة وكتلة مترابطة يصبح في نهاية المطاف عبارة عن ركام من الأفراد الذين لا رابط بينهم، ولكن يتم الحفاظ على وحدتهم الشكلية بطريقة اصطناعية لفترة أخرى من الزمن عن طريق التقاليد والمؤسسات. ثم يصبح الناس منقسمين من حيث المصالح والمطامح ولا يعودون يعرفون كيف يحكمون أنفسهم. وعندئذ يطلبون بأن يقادوا ويحكموا في كل شاردة وواردة من أعمالهم، ويطلبون من الدولة أن تمارس عليهم تأثيرها المهيمن.

ومع فقدان النهائي للمثال الأعلى القديم، فإن الأمر ينتهي بالعرق في نهاية المطاف إلى فقدان روحه. إنه لا يعود إلا ذرات متناثرة من الأفراد المعزولين، أي يعود إلى ما كان عليه في البداية: أي جمهوراً. إنه يمثل عندئذ كل خصائص الجمهور العابرة واللامتماسكة التي سرعان ما تتلاشى. ولا يعود للحضارة عندئذ أي ثبات فتسقط تحت رحمة كل الصدف والحوادث الطارئة. فالعامة أو الدهماء لا تمثل شيئاً، والبرابرة يتقدمون. ويمكن أن تبدو الحضارة لامعة لفترة أخرى أيضاً لأنها تحافظ على الواجهة الخارجية المصنوعة من قبل ماضٍ طويل، ولكنها في الواقع لم تعد إلا صرحاً منخوراً لم يعد أي شيء يدعمه، وبالتالي فهو قابل للسقوط بمجرد هبوب أول عاصفة.

وهذه هي دورة الحياة الخاصة بشعب ما: أي الانتقال من حالة البربرية إلى حالة الحضارة عن طريق ملاحقة حلم ما، ثم الدخول في مرحلة الإنحطاط والموت ما إن يفقد هذا الحلم قوته.

الحواشي

مراجع المقدمة

- ينبغي أن أشير منذ البداية إلى مدى استفادتي من كتاب سيرج موسكوفتشي عن «عصر الجماهير» حيث يكرس عدة فصول لغوستاف لوبون وكتابه «نفسية الجماهير».
- Serge Moscovici: *L'Age des foules*, Fayard Paris 1981.
- وموسكوفتشي هو مدير دراسات في مدرسة الدراسات العليا في ساحة العلوم الاجتماعية، وأحد أهم الاختصاصيين في مجال علم النفس الاجتماعي في فرنسا.
- كما واستفدت من آخر أطروحة جامعية مكرسة للوبون، وقد نشرت مؤخراً من قبل المطبوعات الجامعية الفرنسية. وهي للسيدة كاترين روفيه، أستاذة العلوم الاجتماعية في كلية الحقوق والاقتصاد والعلوم الاجتماعية بباريس.
- Catherine Rouvier: *Les idées politiques de Gustave Le Bon*, P.U.F, 1986.
- هذا بالإضافة إلى كتاب «علم النفس الجماعي» الصادر عن المطبوعات الجامعية الفرنسية.
- Pierre Mannoni: *La Psychologie Collective*, P.U.F, 1985.

هوامش المقدمة

- (١) انظر روبرت ماندرو، الانسيلكوبيديا الكونية الفرنسية، مادة «تاريخ العقليات»، استشهد منقول من فرويد.
- Robert Mandrou, *L'Encyclopédie Universalis*, Article: histoire des mentalités.
- (٢) انظر ب. أديلمان، إنسان الجماهير، باريس، ١٩٨١، ص ٧.
- B. E delman, *L'homme des foules*.
- (٣) سيغموند فرويد، مقالات في التحليل النفسي، منشورات بايو، ١٩٧٢، باريس ص ٨٩.
- S. Freud: *Essais de Psychanalyse*, Payot, Paris, 1972.
- (٤) انظر فرانسوا فورييه، التفكير بالثورة الفرنسية، غاليمار، ١٩٧٨، ص ١٦.
- François Furet: *Penser la Révolution française*, Gallimard, Paris, 1978, p. 16.
- (٥) انظر سيرج موسكوفتشي، عصر الجماهير، مصدر مذكور سابقاً، الصفحة ٧٩ والصفحة ٨١.

- (٦) انظر هوركهايمر وأدورنو، جوانب من علم الاجتماعي، منشورات هاينمان، لندن، ١٩٧٣، ص ٧٥.
M. Horkheimer et T. Adorno, *Aspects of Sociology*, Heinemann, London.
- (٧) انظر ز. ستيرنهيل، مورييس باريس والقومية الفرنسية، منشورات أرمان كولان، باريس، ١٩٧٢.
Z. Sternhell, Maurice Barrés et le nationalisme français.
- (٨) انظر غوستاف لوبون، علم النفس السياسي، باريس، ١٩١٠، ص ٥.
G. Lebon: *La Psychologie Politique*, Paris, 1910, p. 5.
- (٩) مقطع استشهاد به سيرج موسكوفتشي في كتابه المذكور آنفاً، ص ٨٨.
- (١٠) انظر جوزيف شومبيتر، الرأسمالية، الاشتراكية، الديمقراطية، بايو، باريس، ١٩٦١، ص ٣٨٦.
J. Schumpeter: *Capitalisme, Socialisme et démocratie*, Paris, Payot, 1961, p. 386.
- (١١) انظر كتاب سيرج موسكوفتشي المذكور سابقاً، ص ١٠١ - ١٠٢.
- (١٢) مقطع استشهدت به كاترين روفيه في كتابها الأفكار السياسية لغوستاف لوبون، ص ٧٦ (مصدر مذكور سابقاً).
Catherine Rouvier: *Les idées politiques de Gustave le Bon*, P.U.F, 1986.
- (١٣) انظر غوستاف لوبون، الآراء والعقائد، ص ١٦٩.
G. Le Bon: *Les opinions et les croyances*, p. 169.
- (١٤) انظر غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ١٤.
G. Le Bon: *La civilisation des Arabes*, p. 14.
- (١٥) انظر سيرج موسكوفتشي، مصدر مذكور سابقاً، ص ١١٦ - ١١٧.

هوامش المقدمة عصر الجماهير

(١) في الواقع أن مستشاريه الفطنين لم يكونوا يفهمونها أكثر منه. فقد كتب له تاليران مرة يقول: «بأن اسبانيا سوف تستقبل جنوده كمحررين ومخلصين لها». ونحن نعلم أنها استقبلتهم كالحيوانات المتوحشة. ولو كان هناك عالم نفس خبير بالغرائز الوراثة للعرق الاسباني لتنبأ بما سيحصل لجنود نابليون هناك بسهولة.

(٢) إن المؤلفين النادرين الذين اهتموا بالدراسة النفسية للجماهير قد درسوها كما قلت آنفاً فقط من وجهة نظر الجرائم التي قد ترتكبها. ولما كنت لم أخصص لهذا الموضوع الأخير إلا فصلاً قصيراً، فإني أحيل القارئ إلى دراسات السيد تارد وإلى كتيب السيد سيغيل: «الجماهير المجرمة». ولكن هذا البحث الأخير لا يحتوي على أي فكرة شخصية، وإنما هو تجميع للوقائع والأخبار الثمينة والمفيدة بالنسبة للعلماء النفسانيين الذين يمكنهم أن يستخدموها في التحليل. وعلى أي حال فإن النتائج التي توصلت إليها بخصوص جرائم الجماهير وأخلاقيتها معاكسة تماماً لأراء هذين الكاتبين المذكورين.

ويمكن للقارئ أن يجد في كتيبي الأخرى وخصوصاً في كتاب «سيكولوجيا الإشرافية» بعض النتائج المستخلصة من القوانين التي تتحكم بنفسية الجماهير. ويمكن استخدامها بخصوص الموضوعات الأكثر تنوعاً. وقد وجد السيد م. أ. جيفاريه مدير المعهد الملكي في بروكسيل تطبيقاً عملياً رائعاً للقوانين التي استخلصناها وذلك من خلال دراسة له عن الموسيقى التي يصفها بحق بأنها «فن الجماهير». وكتب لي هذا الأستاذ الكبير يقول: «إن كتابك الإثنين هما اللذان قدما لي حل مشكلة كنت أعتقد أنها مستعصية على الحل ألا وهي: القابلية المدهشة التي يتمتع بها كل جمهور على تذوق أي عمل موسيقي حديثاً كان أم قديماً، محلياً أم أجنبياً، بسيطاً أم معقداً بشرط أن ينفذ بدقة ومن قبل عازف متحمس». ويبين لنا السيد جيفاريه بكل روعة كيف «أن العمل الموسيقي الذي يستعصي على فهم كبار الاختصاصيين الذين يقرأون التوليفات في عزلة مكاتبهم قد يفهم فوراً من قبل الجمهور الغريب على كل ثقافة موسيقية». وهو يفسر لنا أيضاً لماذا أن هذه الانطباعات الجمالية لا تترك أي أثر.

هوامش الكتاب الأول

الفصل الثاني

(١) إن الأشخاص الذين شهدوا حصار باريس رأوا بأم أعينهم أمثلة عديدة على سذاجة الجماهير وسرعة تصديقها لأي شيء، بل وحتى للأشياء الأكثر غرابة. فمجرد إشعال شمعة في الطابق العلوي لأحد البيوت كان يعتبر مباشرة بمثابة علامة موجهة للجيش المحاصرة. ولو أنهم فكروا لحظتين فقط لعرفوا أنه يستحيل عليهم أن يشاهدوا ضوء هذه الشمعة عن مسافة أبعد نسبياً. فكيف يمكن إذن للجيش المحاصرة البعيدة جداً أن تراها؟

(٢) عن جريدة (إيكليير) بتاريخ ٢١ نيسان ١٨٩٥.

(٣) هل نعلم كيف جرت معركة حربية ما بشكل دقيق؟ إنني أشك في ذلك. نحن نعلم من هم الغالبون والمغلوبون ولكن ربما لا نعرف شيئاً أكثر من ذلك. وما ينقله السيد داركور عن معركة سولفرينو كشاهد وكمشارك فيها يمكنه أن ينطبق على كل المعارك. يقول: «إن الجنرالات الذين تلقوا المعلومات بالطبع من قبل مئات الشهود ينقلون تقاريرهم الرسمية، والضباط المكلفون بنقل الأوامر يعدلون من هذه الوثائق ويكتبون المشروع النهائي. ثم ينقذه رئيس الأركان ويعيد كتابته من جديد. ثم ينقلونه إلى المارشال فيصرخ قائلاً: «أنتم مخطئون بشكل كامل!». ثم يطلب كتابة المشروع مرة أخرى. وهكذا لا يبقى تقريباً أي شيء من التقرير الأولي». والسيد داركور ينقل هذه الواقعة لكي يبرهن على استحالة معرفة الحقيقة عن حدث يحصل أمام أعيننا.

(٤) وهذا ما يتيح لنا أن نفهم لماذا تحظى بعض المسرحيات بنجاح هائل بعد أن كانت قد رفضت من قبل كل مديري المسارح، وذلك عندما يتاح لها أن تمثل عن طريق الصدفة. ونحن نعلم بهذا الصدد مدى نجاح مسرحية السيد كوبي «من أجل التاج»، وكانت قد رفضت طيلة عشر سنوات من قبل المسارح الأولى على الرغم من شهرة اسم مؤلفها. وأما مسرحية «إشبينة شارلي» التي مثلت على نفقة سمسار الأوراق المالية فقد مثلت مائتي مرة في فرنسا وأكثر من ألف مرة في إنكلترا بعد أن كانت قد قوبلت بالرفض مرات عديدة من قبل المسارح ومديريها. ولا يمكن تفسير ذلك إلا باستحالة حلول مديري المسارح محل الجماهير من حيث العقلية والنفسية. ولا يمكن فهم ارتكاب مثل هذه الأخطاء في الحكم من قبل شخصيات ذات كفاءات عالية كمديري المسارح إلا بهذا الشكل.

الفصل الثالث

(١) منطقة الفاندي (La vendée) هي منطقة ريفية كاثوليكية جداً تقع جنوب غرب فرنسا وكانت معادية للثورة الفرنسية، ولذلك وقعت فيها مجازر مرعبة بعد الثورة (المترجم).

الفصل الرابع

(١) نسبة إلى الجنرال بولانجيه، وهو جنرال ورجل دولة فرنسي (١٨٣٧ - ١٨٩١). كان صديقاً لغامبيتا وكليمنصو. استطاع تجميع الجماهير الشعبية حوله من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. وقد شكل ثياراً شعبياً في فرنسا أواخر القرن التاسع عشر (المترجم).

(٢) هذه هي أشهر مجزرة جرت للبروتستانت في فرنسا أثناء حروب الأديان الشهيرة. وقد جرت عام (١٥٧٢) في ظل الملك شارل التاسع وبلغت الذروة في فظاعتها ورعبها. فلم يتورع الكاثوليك عن استخدام كل الوسائل لتصفية البروتستانت الذين يمثلون «الهرطقة» داخل المسيحية في رأيهم. وقد عانت أوروبا كثيراً من حروب الأديان، ولم تنج منها إلا بعد انتصار الوعي العلمي التاريخي وحلول العاطفة الدينية الحديثة والمتسامحة محل العاطفة الدينية القروسطية (المترجم).

هوامش الكتاب الثاني

الفصل الأول

(١) بما أن هذه الفكرة لا تزال جديدة جداً حتى الآن، وبما أن التاريخ يظل غير مفهوم بدونها، فلإني كرسيت فصولاً عديدة من كتابي «القوانين النفسية لتطور الشعوب» للبرهنة عليها. وسيرى القارئ فيه أنه على الرغم من المظاهر الخادعة فإنه لا اللغة، ولا الدين، ولا الفنون، ولا أي عنصر من عناصر الحضارة بقادر على البقاء كما هو إذا ما انتقل من شعب إلى آخر.

(٢) إن التقرير الذي قدمه عضو الجمعية التأسيسية بعد الثورة الفرنسية السيد فوكروا والذي استشهد به «تين» بليغ جداً بخصوص وجهة النظر هذه. يقول: «إن ما نراه في كل مكان من الاحتفال بيوم الأحد والتردد على الكنائس يعني أن غالبية الفرنسيين تريد العودة إلى العادات القديمة ولم يعد الوقت مناسباً لمقاومة مثل هذا الميل القومي...» ثم يردف قائلاً: «إن الأغلبية الكبرى من البشر بحاجة إلى الدين والشعائر والكهنة. وقد جُرَّ بعض الفلاسفة المحدثين وجررت أنا شخصياً إلى نفس الخطأ عندما اعتقدنا بأن نشر التعليم في أوساط جماهير الشعب سوف يؤدي إلى تدمير الأحكام المسبقة الدينية. فالواقع أن هذه الأحكام المسبقة والعقائد تشكل بالنسبة للعدد الكبير من البؤساء مصدراً للعزاء...»

وبالتالي فينبغي أن نترك لجماهير الشعب كهنتها وهياكلها وطقوسها.

(٣) هو جبل في فرنسا (المترجم).

(٤) هذا ما يعترف به في الولايات المتحدة حتى الجمهوريون الأكثر تقدماً. وقد عبرت الصحيفة الأمريكية (فوروم) عن هذا الرأي القاطع بالكلمات التي سأستشهد بها هنا اعتماداً على «مجلة المجلات» لشهر ديسمبر من عام (١٨٩٤): «ينبغي ألا ننسى أبداً حتى لدى ألد أعداء الأرستقراطية أن إنكلترا هي اليوم أكثر بلدان العالم ديمقراطية. فهي البلد الذي تحظى فيه حقوق الفرد بأكثر قدر من الاحترام، وهي البلد الذي يمتلك فيه الأفراد أكبر قدر من الحرية».

(٥) إذا ما قارنا بين الإنشقاكات الدينية والسياسية العميقة التي تفصل بين مختلف أجزاء فرنسا والتي تعود بشكل خاص إلى اختلاف العرق، بالاتجاهات الانفصالية التي ظهرت أثناء فترة الثورة وعادت للظهور من جديد في نهاية الحرب الفرنسية - الألمانية، فإننا نلاحظ جيداً أن الأعراق المختلفة المتبقية على أرضنا لا تزال بعيدة عن الانصهار ببعضها البعض حتى الآن. لا ريب في أن السياسة المركزية النشطة التي اتبعتها الثورة وخلق محافظات اصطناعية من أجل خلط الأقاليم القديمة ببعضها البعض قد فعلا فعلهما النافع جداً. وإذا ما نجحت سياسة اللامركزية التي يدعو إليها بعض قصيري النظر اليوم فإنها ستؤدي حتماً إلى اندلاع الاضطرابات الدموية. والجهل بهذه الحقيقة يعني الجهل المطبق بكل تاريخنا.

(٦) انظر: التحليل النفسي للاشتراكية (أو نفسية الاشتراكية). الطبعة السابعة. ثم التحليل النفسي للتربية والتعليم، الطبعة الرابعة عشرة.

(٧) ولكن هذه ليست ظاهرة خاصة بالشعوب اللاتينية، فنحن نجد أيضاً في الصين، البلد المحكوم من قبل مراتبية هرمية قومية من الموظفين، وحيث نجد أن الحصول على الوظائف الكبيرة يتم أيضاً عن طريق المسابقات. والامتحان الوحيد لهذه المسابقات يتركز على حفظ الكتب المدرسية السميكة عن ظهر قلب. فجيء المتعلمين بدون وظيفة يعتبر اليوم في الصين بمثابة الكارثة القومية. وكذلك الأمر فيما يخص الهند. فمند أن كان الإنكليز قد فتحوا فيها المدارس ليس من أجل التثقيف كما هو عليه الحال في إنكلترا، وإنما فقط من أجل تعليم السكان المحليين، فإنه قد تشكلت طبقة اجتماعية من المتعلمين المدعويين (بالبابو). وهؤلاء عندما لا يستطيعون الحصول على وظيفة فإنهم يصبحون أعداء ألداء للإنكليز. ونلاحظ لدى البابو الموظفين وغير الموظفين أن أول أثر من آثار التعليم عليهم هو انخفاض مستوى أخلاقيتهم. وكنت قد ألححت طويلاً على هذه النقطة في كتابي «حضارات الهند». وكل المفكرين الذين زاروا الهند لاحظوا نفس الظاهرة.

(٨) انظر: تين. «النظام الحديث»، الجزء الثاني، طبعة (١٨٩٤). هذه الصفحات هي تقريباً آخر ما كتبه تين. وهي تلخص بشكل رائع نتائج تجربته الطويلة. فالتربية والتعليم هما وسيلتنا الوحيدتان للتأثير قليلاً على روح الشعب. وإنه لمن المحزن بعمق ألا يوجد في فرنسا أي شخص تقريباً قادر على فهم حجم الانحطاط الناتج عن تعليمنا الحالي. فبدلاً من أن يرتفع بالشبيبة إلى مستوى أعلى إذا به ينخفض بها ويفسدها.

الفصل الثاني

(١) في كتابي «القوانين النفسية لتطور الشعوب» ألححت مطولاً على الاختلاف الذي يفرق بين المثال الديمقراطي اللاتيني، والمثال الديمقراطي الأنغلوساكسوني.

(٢) كان الرأي العام الفرنسي واقعاً آنذاك تحت تأثير الروابط البشعة بين أشياء متنافرة. وقد درست آنفاً آلية هذه الروابط. فحرسنا الوطني آنذاك كان مشكلاً من أصحاب الدكاكين المسالمين الذين لا يعرفون أي شيء في النظام العسكري، ولا أحد يحملهم على محمل الجد. وكل جيش يحمل نفس الاسم كان يثير نفس الصور وبالتالي فقد كان يعتبر مسالماً وغير هجومي. وكان خطأ الجماهير مشتركاً آنذاك كما يحصل غالباً للرأي العام في كل البلدان، أقصد كان قادتها ومحركوها يشاطرونها نفس الرأي. ففي الخطاب الذي ألقاه السيد تيير في مجلس النواب بتاريخ (٣١) ديسمبر عام (١٨٦٧) راح يكرر القول بأن بروسيا لا تملك ما عدا جيشها النظام المعادل لجيشنا إلا حرساً وطنياً يشبه حرسنا، وبالتالي فلا أهمية له. ومن المعروف أن السيد تيير هو رجل دولة طالما اتبع رأي الجماهير. وهذا الرأي لا نصيب له من الصحة، مثله في ذلك مثل رأيه الآخر حول سكك الحديد وأن لا مستقبل لها...

(٣) إن ملاحظاتي العملية الأولى عن فن التأثير على الجماهير وعجز قواعد المنطق عن فعل ذلك أو تفسيره تعود إلى فترة حصار باريس . إنها تعود إلى ذلك اليوم الذي شاهدتهم فيه يقودون المارشال (ف) إلى مقر الحكومة الذي كان في اللوفر آنذاك... وشاهدت جمهوراً غاضباً يزعم أنه قد باغت المارشال وهو ينزع مخطط التحصين لكي يبيعه إلى البروسيين (أي الألمان). وشاهدت أحد أعضاء الحكومة (ج. ب) وقد خرج لكي يخطب في الجماهير التي تطالب بإعدام السجين مباشرة. وكنت أتوقع أن يبرهن الوزير على حماقة هذه التهمة بالقول إن المارشال المتهم كان هو بالضبط أحد بناء هذه التحصينات التي تباع مخططاتها في الواقع في كل المكتبات. وكنت شاباً صغيراً آنذاك، وقد دهشت أيما دهشة لأن خطاب الوزير كان شيئاً آخر مختلفاً تماماً. فقد رأيت أنه يتقدم نحو السجين وهو يقول: سوف نطبق حكم العدالة، وستكون لا رحمة فيها ولا شفقة. اتركوا حكومة الدفاع الوطني تنهي تحقيقها. ويانتظار ذلك سوف نسجن المتهم». وقد هدأ الجمهور بعد هذا الكلام وتفرق خلال ربع ساعة بعد أن أراضاه كلام الوزير. ثم عاد المارشال إلى بيته. وكان سيقطع إرباً إرباً لو أن محاميه (أي الوزير) قد استخدم المحاجات المنطقية والعقلانية عندما خطب في الجمهور الغاضب، هذا على الرغم من أن هذه المحاجات كان ستقنعني، أنا الصغير السن جداً...

الفصل الثالث

- (١) Murat - Ney : مورا: هو جواشيم مورا مارشال فرنسا وملك نابلي (١٧٦٧ - ١٨١٥).
 - ني: هو مارشال فرنسا أيضاً (١٧٦٩ - ١٨١٥) (المترجم).
 - (٢) انظر بهذا الصدد كتيبي الأخيرة: علم النفس السياسي، والآراء والعقائد، والثورة الفرنسية.
 - (٣) انظر: غوستاف لوبون، الإنسان والمجتمعات، الجزء الثاني، ص ١١٦، طبعة ١٨٨١.
 - (٤) نلاحظ تأثير الألقاب والنياشين والألبسة العسكرية في كل البلدان على الجماهير حتى لو كان حس الاستقلالية الشخصية متطوراً جداً فيها. سوف أستشهد هنا بمقطع غريب من كتاب لأحد الرحالة حول هبة بعض الشخصيات في إنكلترا.
- «لاحظت في مناسبات عديدة مدى تأثير الإنكليز الأكثر عقلانية لرؤية أحد اللوردات. وإذا كانت شخصيته في مستوى مرتبة فإنهم يحبونه مسبقاً ويقبلون كل ما يصدر عنه بكل افتتان وإعجاب. وهم يسكرون فرحاً لمجرد الإقتراب منه، وإذا ما تحدث إليهم فإن الفرح الذي يشعرون به يزيد من هذا السكر ويجعل عيونهم تشرق بلمعان غريب. إن حبهم لأعضاء مجلس اللوردات يغلي في دمهم إذا جاز التعبير، كما أن الرقص موجود في دم الاسباني، وكما أن الموسيقى موجودة في دم الألماني والثورة في دم الفرنسي. وأما حماسهم لخيول شكسبير فأقل عنفاً، وفرحهم برؤيتها أو افتخارهم بها أقل أهمية. وأما كتاب النبالة فله أهمية كبرى، وحيثما ذهبنا وجدناه كالكتاب المقدس في كل الأيدي».

(٥) لما كان الإمبراطور واعياً بحجم هيئته فإنه كان يزيد منها عن طريق معاملة الشخصيات الكبرى المحيطة به بشكل أقل مما يعامل السائس. وكان من بينهم بعض أهم شخصيات الثورة الفرنسية المرهوبين في كل أوروبا. وحكايات ذلك الزمن مليئة بالوقائع الدالة فيما يخص هذه النقطة. فيحكي أن نابليون قد وبخ في أحد الأيام وفي عز مجلس الدولة الوزير بيغنو وعامله كخادم غبي. وبعد أن أخذ التوبيخ مفعوله اقترب نابليون منه وقال له: «والآن، أيها الأبله الكبير! هل عاد إليك رشذك؟». وكان بيغنو طويلاً جداً وكبير الحجم فأنحنى أمام الإمبراطور الصغير الذي أمسكه من أذنه وعاقبه. وقد اعتبر بيغنو ذلك علامة على المحبة الهائلة والحظوة لدى السيد الذي اقترب من إنسانيته». إن أمثلة كهذه تبين لنا حجم البلادة والسطحية التي قد تثيرها الهيبة والعظمة. وهي تفهمنا مدى الاحتقار الهائل الذي يعامل به المستبد الكبير رجال حاشيته.

(٦) كانت جريدة أجنبية من فيينا هي «نيو فري بريس» قد قدمت التأملات النفسية التالية بخصوص فردينان دي ليسبس، وهي على قدر كبير من الدقة والذكاء، ولهذا السبب فسوف أوردتها هنا:

«بعد إدانة فردينان دي ليسبس لم يعد من حقنا أن ندهش للنهاية الحزينة التي لقيها كريستوف كولومبس. فإذا كان فردينان دي ليسبس عبارة عن نصاب، فإن كل وهم نبيل هو عبارة عن جريمة. ولو أنه عاش في العصور القديمة اليونانية أو الرومانية لكُلِّت ذكراه بأكاليل المجد، ولشربت كأس الرحيق على شرفه وسط الأولمبيا. ذلك أنه غير وجه الأرض وأنجز أعمالاً تكمل بدعة الخلق. إن رئيس محكمة الاستئناف إذ أدان فردينان دي ليسبس قد خلّد نفسه، وذلك لأن الشعوب تطلب دائماً اسم الرجل الذي لا يتورع عن الخط من قدر قرنه وعصره عندما يحكم بالأحكام الشاقة على رجل عجوز كانت حياته تمثل مجداً لمعاصريه. وإذن فترجو أن يكفوا الحديث عن العدالة الصارمة عندما لا يكون هناك إلا الحقد البيروقراطي ضد المنجزات الكبرى الجريئة. فالأهم بحاجة إلى هؤلاء الرجال المقدامين المؤمنين بأنفسهم والذين يجتازون كل العقبات دون المبالاة بمصالحهم الشخصية. فالعبقرية لا يمكنها أن تكون حذرة، والحذر لا يمكنه أبداً أن يوسع من دائرة الفعالية البشرية. (...) لقد عرف فردينان دي ليسبس نشوة الإنتصار ومرارة الخيبات في السويس وباناما على التوالي. وهنا نجد القلب يثور ضد أخلاقية النجاح. فعندما نجح دي ليسبس في الوصل بين بحرین فإن الملوك والأمم حيّوا مجده وشرفه. وأما اليوم فقد فشل أمام صخور كورديير، فلم يعد إلا نصاباً حقيراً... أننا نجد هنا حرباً طبقية للمجتمع، ونقمة البيروقراطيين والموظفين الذين يتقمون بواسطة القانون المجرم ضد أولئك الذين ينبغي أن يرتفعوا فوق مستوى الآخرين... فالمشرعون المحدثون يجدون أنفسهم محرجين أمام هذه الأفكار الكبرى للعبقرية البشرية. والجمهور أكثر غباء من القضاة. وبالتالي فمن السهل على المحامي العام أن يبرهن على أن ستانلي هو قاتل، وأن دي ليسبس ليس إلا نصاباً وغشاشاً».

الفصل الرابع

(١) أقصد برابرة بالمعنى الفلسفي للكلمة. ولكنها خلقت من الناحية العملية حضارة جديدة كلياً وجعلت الإنسان يحلم لقرون طويلة بتلك الجنات البهيجة المشكلة من الحلم والأمل والتي لن يعرفها بعد اليوم.

- المقصود بأساطير مولوك: (Moloch): تدعى في اللغة العبرية ميليك. يعتقد بأنها آلهة كنعانية قديمة مذكورة في التوراة على أساس أنها ذات علاقة مع التضحية بالأطفال. ويعتقد الآن بأن الأمر يتعلق بضحية بشرية يتم تقديمها كقربان للآلهة بواسطة النار (المترجم).

(٢) Tibère: هو يوليوس قيصر تيبيريوس الإمبراطور الروماني الذي حكم في الفترة الممتدة بين (١٤ - ٣٧) بعد الميلاد (المترجم).

هوامش الكتاب الثالث

الفصل الأول

(١) يمكن للقارئ أن يجد التفاصيل حول مختلف فئات الجماهير في كتيبي الأخيرة: (علم النفس السياسي، الآراء والعقائد، علم نفس الثورة).

الفصل الثالث

(١) لنلاحظ هنا مروراً أن هذا التقسيم أو التمييز الذي يقوم به المحلفون غرائزياً بين الجرائم الخطرة اجتماعياً والجرائم الأخرى ليس عارياً عن الصحة. فهدف القوانين المجرمة ينبغي أن يكون حماية المجتمع ضد المجرمين وليس الانتقام له. ولكننا نلاحظ أن قوانيننا ثم بشكل أخص الروح التي تسير قضائنا لا تزال متأثرة بروح الانتقام الخاصة بالقانون البدائي العتيق. فلا يزال مصطلح الانتقام مستخدماً يومياً حتى الآن. ولدينا البرهان على وجود هذا الاتجاه لدى القضاة في رفض الكثيرين منهم تطبيق قانون بيرانجيه الممتاز الذي يسمح للمدان بتجنب المعاقبة إلا إذا كرر الجرم. هذا مع العلم أنه لا يمكن لأي قاضٍ أن يجهل أن تطبيق العقوبة الأولى يؤدي بشكل شبه محتوم إلى تكرار الجرم. والإحصاءات تثبت ذلك. فالقضاة الذين يطلقون سراح مذنب ما يتوهمون أنهم لم ينتقموا للمجتمع ولم يقتصوا لعدالته. فبدلاً من الانتقام له يفضلون أن ينتجوا مذنباً خطيراً.

(٢) إن مؤسسة القضاء تمثل في الواقع الإدارة الوحيدة التي لا تتعرض أعمالها لأي مراقبة أو ضبط. وكل ثورات فرنسا الديمقراطية لم تستطع أن تفرض عليها قانون الأمر بالمثول الذي تفتخر به إنكلترا كثيراً. (المقصود أمر قضائي بالتحقيق في قانونية سجن شخص معتقل). لقد أسقطنا الطغاة، ولكننا نجد في كل مدينة قاضياً يتحكم على هواه بشرف المواطنين وحريتهم. فأصغر قاضي تحقيق خارج لتوه من مدرسة الحقوق يمتلك السلطة المجحفة في إرسال أكبر المواطنين إلى السجن بناء على مجرد الافتراض بالذنب، دون أن يحتاج إلى استشارة أحد أو يقدم أي تبرير لأحد. ويمكنه أن يبقوهم ستة أشهر في السجن أو حتى سنة كاملة بحجة التحقيق، ثم يخرجهم بعد ذلك دون أن يقدم لهم أي تعويض أو اعتذار بعد التأكد من براءتهم. إن أمر الإحضار يساوي الأمر التعسفي بالنفي أو بالسجن مع فارق واحد هو أن هذا الأخير الذي طالما عابوه على النظام الملكي لم يكن يستخدم إلا من قبل كبار الشخصيات، هذا في حين أنه قد أصبح اليوم في متناول أيدي طبقة كاملة من المواطنين. ولا يمكن اعتبارها إطلاقاً الطبقة الأكثر استنارة واستقلالية.

الفصل الرابع

(١) إن اللجان المذكورة أياً يكن اسمها: نوادي، نقابات، إلخ... تشكل أحد أكبر الأخطار الناتجة عن قوة الجماهير وجبروتها. فهي تمثل، في الواقع، الصيغة الأكثر غُفلاً وإبهاماً (أي لا شخصية) وبالتالي الأكثر قمعاً وطغياناً. وبما أنه يفترض في القادة المحركين للجان أنهم يتحدثون ويفعلون باسم الجماعة فإنهم يتملصون من كل مسؤولية شخصية ويستطيعون أن يفعلوا أي شيء. والطاغية الأكثر عنفاً لم يجروا أبداً على أن يحلم بتطبيق أوامر الحظر والمنع التي تمارسها اللجان الثورية. فكما قال باراس لقد ألغوا الجمعية التأسيسية وفرضوا عليها الخوة. وكان روبسبير حاكماً مطلق الصلاحية ما دام يتحدث باسم هذه اللجان. وفي اليوم الذي انفصل فيه الديكتاتور المرعب عنها لأسباب تتعلق بالكرامة الشخصية فإنه قد وقّع وثيقة موته. إن حكم الجماهير هو حكم اللجان وبالتالي حكم القادة المحركين. ولا يمكننا أن نتخيل استبداداً أرهب من ذلك.

الفصل الخامس

(١) لا ريب في أن العبارة التالية لأحد البرلمانيين الإنكليز تنطبق على هذه الآراء المثبتة سابقاً والتي أصبحت غير قابلة للمناقشة بسبب ضرورات المرحلة الانتخابية: «منذ خمسين سنة وأنا نائب في البرلمان (وستمنستر) وقد سمعت آلاف الخطابات، والقليل منها أدى إلى تغيير رأيي، ولكن أياً منها لم يؤد إلى تغيير صوتي».

(٢) كشفت جريدة الإيكونوميست في عددها الصادر بتاريخ (٦) نيسان (١٨٩٥) عما يمكن أن تكلفه هذه المصاريف ذات المصلحة الانتخابية خلال سنة واحدة، وخصوصاً المصاريف المتعلقة بسكك الحديد. فلكي يربطوا بين «لانغيز» (مدينة تعد ثلاثة آلاف شخص فقط) ومعلقة على سفح جبل بمدينة «بي» صوتوا على قرار مد سكة حديد تكاليفها خمسة عشر مليون فرنك. ولكي يربطوا بين «بومون» (ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص) بكاستيل سارازان بلغت تكاليف الخط سبعة ملايين. ولكي يربطوا بين قرية أوس (خمسمائة وثلاثة وعشرين شخصاً) وقرية سيكس (ألف ومائتي شخص) بلغت تكاليف الخط سبعة ملايين. ولكي يربطوا بين براديس وقرية أوليت (سبعمائة وسبعة وأربعين شخصاً) بلغت تكاليف الخط ستة ملايين، إلخ... وقد خصصوا بالنسبة لعام ١٨٩٥ فقط تسعون مليوناً لبناء سكك حديدية لا ضرورة لها. وخصصت مصاريف أخرى مشابهة لأغراض انتخابية محضة. والقانون الخاص بتقاعد العمال سوف يكلف لاحقاً مائة وخمسة وستين مليوناً سنوياً على الأقل. هذا ما قاله وزير المالية. ولكن بحسب عضو الأكاديمية لوروا بوالو فإنه سيكلف ثمانمائة مليون. وتزايد هذه المصاريف سوف يؤدي إلى الإفلاس حتماً. وهذا ما وصلت إليه بلدان كثيرة في

أوروبا كالبرتغال واليونان واسبانيا وتركيا. وسوف تصل إليه بلدان أخرى لاحقاً. ولكن هل ينبغي أن نقلق كثيراً لذلك إذا ما عرفنا أن الجمهور قد قبل تباعاً تخفيض قسائم الدفع بنسبة أربعة أخماس في بلدان عديدة. وهذه الإفلاسات الماهرة تتيح عندئذٍ إعادة التوازن إلى هذه الميزانيات المعطوبة. فالواقع أن الحروب والإشتركية والصراعات الاقتصادية تحضر لنا كوارث أخرى أيضاً. وفي فترة التفكك الكوني التي دخلناها ينبغي أن نقبل بالحياة يوماً ليوم دون الاهتمام بالغد الذي لا نستطيع التحكم به أبداً.

المحتويات

- مقدمة إلى علم النفس الاجتماعي وفكر غوستاف لوبون. بقلم	
هاشم صالح	٥
- توطئة: بقلم أوتو كلينبيرج	٣٥
- الإهداء	٣٩
- تمهيد	٤١
- المقدمة: عصر الجماهير	٤٣

تطور العصر الحالي - المتغيرات الكبرى للحضارة ناتجة عن المتغيرات الطارئة على فكر الشعوب - الاعتقاد الحديث بقوة الجماهير - إنه يغيّر السياسة التقليدية للدول - كيف يحصل مجيء عهد الطبقات الشعبية وكيف تمارس سلطتها وجبروتها - النقابات - الانعكاسات الضرورية لقوة الجماهير - لا يمكنها أن تمارس إلا دوراً هاماً - وعن طريقها يكتمل انحلال الحضارات التي أصبحت عتيقة جداً - الجهل العام بنفسية الجماهير - أهمية دراسة الجماهير بالنسبة للمشرعين ورجال الدولة.

الكتاب الأول: روح الجماهير

الفصل الأول: الخصائص العامة للجماهير. القانون النفسي

لوحتها الذهنية	٥٣
----------------------	----

العناصر التي تشكل الجمهور من وجهة النظر النفسية -
تجمهر عدد كبير من الأفراد لا على التعيين لا يكفي
لتشكيل جمهور - الصفات الخاصة للجماهير النفسية -
التوجه الثبوتي لأفكار وعواطف الأفراد الذين يشكلونهم
وذوبان شخصيتهم فيها - اللاوعي يهيمن دائماً على
الجمهور - إمحاء الحياة الدماغية أو العقلية وهيمنة الحياة
النخاعية - انخفاض مستوى الذكاء والتحول الكامل في
العواطف - العواطف المتحولة يمكنها أن تكون أفضل أو
أسوأ من عواطف الأفراد الذين يشكلون الجمهور -
الجمهور يمكنه أن يكون بطولياً أو مجرماً.

الفصل الثاني : عواطف الجماهير وأخلاقيتها ٦٣

- ١ - سرعة انفعال الجماهير وخفتها ونزقها - الجمهور هو
ألوبة لكل المحرضات التي يعكس تقلباتها المستمرة -
الدوافع التي يخضع لها هي القوة والهيمنة بحيث أن
المصلحة الشخصية للفرد تمحي أمامها - لا شيء متعمد
قصداً لدى الجماهير - تأثير العرق.
- ٢ - سرعة تأثر الجماهير وسذاجتها وتصديقها لأي شيء -
خضوعها للمحرضات - الصور المثارة في ذهنها معتبرة
كحقائق واقعة بالنسبة لها - لماذا تكون هذه الصور واحدة
بالنسبة للأفراد الذين يشكلون جمهوراً معيناً - تساوي
العالم والجاهل في الجمهور - أمثلة مختلفة على الأوهام
التي يخضع لها كل أفراد جمهور ما - استحالة إعطاء أي
مصادقية لشهادات الجماهير - إجماع الشهود العديدين
يمثل أسوأ برهان على التأكد من صحة واقعة ما - القيمة
الضعيفة لكتب التاريخ.
- ٣ - تضخيم عواطف الجماهير وتبسيطها - الجماهير
لا تعرف الشك أو عدم اليقين، وهي دائماً تذهب إلى
الحدود القصوى - عواطفها دائماً متطرفة.

٤ - تعصب الجماهير واستبداديتها ونزعتها المحافظة - أسباب هذه العواطف أو المشاعر - عبودية الجماهير أمام السلطة القوية - الغرائز الثورية المؤقتة للجماهير لا تمنعها من أن تكون محافظة جداً جداً - فهي بالغريزة معادية للتغير والتقدم .

٥ - أخلاقية الجماهير - يمكن لأخلاقية الجماهير، طبقاً لأنواع التحريضات، أن تكون أكثر انخفاضاً أو أكثر علواً من أخلاقية الأفراد الذين يشكلونها مأخوذون على حدة - شرح ذلك وأمثلة عليه - نادراً ما تكون المصلحة هي التي تقود الجماهير، هذا في حين أنها تشكل غالباً الدافع الكلي للفرد المعزول - الدور التهذيبي للجماهير.

الفصل الثالث : أفكار، محاجات عقلية، مخيلة الجماهير ٨١

١ - أفكار الجماهير - الأفكار الأساسية والأفكار الثانوية - كيف يمكن للأفكار المتناقضة أن تتواجد بشكل متزامن في الجماهير - التحويلات التي ينبغي أن تتعرض لها الأفكار العليا لكي تصبح في متناول الجماهير - الدور الاجتماعي للأفكار مستقل عن جانب الحقيقة التي يمكن أن تحتوي عليه .

٢ - المحاجات العقلية للجماهير - لا يمكن التأثير على الجماهير عن طريق المحاجات العقلية - المحاجات العقلية للجماهير هي دائماً من مستوى أدنى - الأفكار التي تربط بينها ليست مترابطة فعلياً وإنما هي ذات مظهر يدل على التشابه أو التابع .

٣ - مخيلة الجماهير - قوة مخيلة الجماهير - الجماهير تفكر بواسطة الصور، وهذه الصور تتلاحق بدون أي رابطة - الجماهير تتأثر بشكل خاص بالجانب العجيب والساحر للأشياء - العجيب الساحر والخرافي هما الدعامتان الحقيقيتان للحضارات البشرية - المخيلة

الشعبية كانت دائماً هي أساس قوة رجالات الدولة - كيف تتجلى الوقائع القادرة على التأثير على مخيلة الجماهير .

الفصل الرابع : الأشكال الدينية التي تتلبسها كل قناعات الجماهير ٩١

ما يشكل العاطفة الدينية - إنها مستقلة عن عبادة آلهة معينة - خصائصها - قوة القناعات التي تتخذ الصيغة الدينية - أمثلة متنوعة - الآلهة الشعبية لم تختف أبداً - الأشكال الجديدة التي تولد عليها - الأشكال الدينية للإلحاد - أهمية هذه المفاهيم من وجهة نظر تاريخية - الإصلاح الديني ، مجزرة سان بارتيليمي ، فترة الارهاب أثناء الثورة الفرنسية وكل الأحداث المشابهة ناتجة عن العواطف الدينية للجماهير وليس عن إرادة الأفراد المعزولين . .

الكتاب الثاني : آراء الجماهير وعقائدها

الفصل الأول : العوامل البعيدة لعقائد الجماهير وآرائها ٩٩

العوامل التحضيرية لعقائد الجماهير - تفتح عقائد الجماهير هو نتيجة لعمل بطيء ونضج سابق - دراسة العوامل المختلفة لهذه العقائد .

١ - العرق - التأثير المهيمن الذي يمارسه - إنه يمثل الاقتراحات التحريضية للأسلاف .

٢ - التقاليد والأعراف - إنها تجسد خلاصة روح العرق - الأهمية الاجتماعية للتقاليد - كيف انها تصبح ضارة بعد أن كانت ضرورية - الجماهير هي القوى المحافظة الأكثر عناداً على الأفكار التقليدية .

٣ - الزمن - إنه يقوم بالتهيئة لترسيخ العقائد في الأذهان ، ثم تدميرها على التوالي - وبفضله يمكن للنظام أن يخرج من رحم الفوضى .

٤ - المؤسسات السياسية والاجتماعية - فكرة خاطئة عن دورها - تأثيرها ضعيف جداً - إنها آثار ناتجة، ولكنها ليست أسباباً - الشعوب لا تعرف أن تختار المؤسسات التي تبدو لها الأفضل - المؤسسات هي عبارة عن اتيكيت تجمع أشياء مختلفة جداً تحت نفس العنوان - كيف يمكن خلق الدساتير - حاجة بعض الشعوب لبعض المؤسسات السيئة نظرياً، كحكم المركزية مثلاً.

٥ - التعليم والتربية - خطأ الأفكار الحالية حول تأثير التعليم على الجماهير - معلومات إحصائية - الدور المشبّط للتعليم والتربية الخاصة بالعرق اللاتيني - الدور الذي قد يمارسه التعليم - الأمثلة التي تقدمها الشعوب المختلفة.

الفصل الثاني: العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل

آراء الجماهير ١١٥

١ - الصور والكلمات والعبارات (أو الشعارات) - القوة السحرية للكلمات والعبارات - قوة الكلمات مرتبطة بالصور التي تثيرها ومستقلة عن معناها الحقيقي - هذه الصور تختلف من عصر إلى عصر ومن عرق إلى عرق - تلف الكلمات أو استهلاكها - أمثلة على المتغيرات الكبيرة التي تصيب معنى بعض الكلمات المستخدمة كثيراً - الفائدة السياسية لتعميد أشياء قديمة بأسماء جديدة عندما تكون الكلمات القديمة التي نسميها بها تولد انطباعاً سيئاً على نفوس الجماهير - تنوع معنى الكلمات بحسب العرق - المعنى المختلف لكلمة ديمقراطية في أوروبا وأمريكا.

٢ - الأوهام - أهميتها - نحن نجدها في قاعدة كل الحضارات - الحاجة الاجتماعية للأوهام - الجماهير تفضلها دائماً على الحقيقة.

٣ - التجربة - التجربة وحدها يمكنها أن ترسخ في روح

الجماهير حقائق أصبحت ضرورية، وتدمر الأوهام التي أصبحت خطرة - التجربة لا تفعل فعلها إلا بشرط أن تتكرر كثيراً - ما تكلفه التجارب الضرورية من أجل إقناع الجماهير.

٤ - العقل - انعدام تأثيره على الجماهير - لا يمكن التأثير على الجماهير إلا إذا أثرنا على عواطفها اللاواعية - دور المنطق في التاريخ - الأسباب السرية للأحداث التي لا تكاد تصدق.

الفصل الثالث: محركو الجماهير ووسائل الاقناع التي يمتلكونها . ١٢٧

١ - محركو الجماهير - الحاجة الغرائزية لكل الكائنات المنخرطة في الجمهور لأن تخضع لأحد القادة المحركين - نفسية المحركين - وحدهم هم القادرون على خلق الإيمان وتأسيس منظمة ما للجماهير - الاستبداد الاجباري للمحركين - تصنيف أنواع المحركين - دور الارادة .

٢ - وسائل العمل التي يستخدمها المحركون أو القادة: التأكيد، التكرار، العدوى - دور هذه العوامل الثلاثة - كيف يمكن للعدوى أن تنتشر من الطبقات الدنيا وترتفع نحو الطبقات العليا في المجتمع - كيف يصبح الرأي الشعبي رأياً عاماً بسرعة.

٣ - الهوية الشخصية - تحديد الهوية الشخصية وتصنيفها - الهوية المكتسبة والهوية الذاتية أو الشخصية - أمثلة متنوعة على ذلك - كيف تموت الهوية الشخصية.

الفصل الرابع: محدودية تغير كل من عقائد الجماهير وآرائها ١٤٥

١ - العقائد الثابتة - عدم تغير بعض العقائد العامة - إنها تمثل الدليل الهادي للحضارة - صعوبة اقتلاعها بعد انغراسها - ما هي ميزة التعصب التي تجعل منه فضيلة

بالنسبة للشعوب - العبثية الفلسفية لعقيدة إيمانية عامة لا تؤثر على انتشارها وتوسعها.

٢ - الآراء المتحركة للجماهير - الحركية الهائلة للآراء التي ليست متفرعة عن العقائد الإيمانية العامة - التغير الظاهري للأفكار والعقائد في أقل من قرن - التخوم الحقيقية لهذه المتغيرات - العناصر التي أثر عليها التغير - الاختفاء الحالي للعقائد الإيمانية العامة والانتشار الهائل للصحافة يجعلان الآراء كثيرة التغير والتحرك في أيامنا هذه - كيف أن آراء الجماهير تميل إلى اللامبالاة بخصوص معظم المواضيع - عجز الحكومات عن قيادة الجمهور كما كانت تفعل في السابق - التفتت الحالي للآراء يمنع استبداديتها وطغيانها.

الكتاب الثالث : تصنيف الفئات المختلفة من الجماهير ودراستها

الفصل الأول : تصنيف الجماهير ١٥٧

التقسيم العام للجماهير - تصنيفها:

١ - الجماهير غير المتجانسة - كيف تتمايز وتختلف - تأثير العرق - تكون روح الجمهور أضعف كلما كانت روح العرق أقوى - روح العرق تمثل حالة الحضارة وروح الجمهور حالة البربرية.

٢ - الجماهير المتجانسة - تقسيم الجماهير المتجانسة - الطوائف والزمر والطبقات.

الفصل الثاني : الجماهير المدعوة بالمجرفة ١٦١

الجماهير المدعوة بالمجرفة - يمكن لجمهور ما أن يكون مجرمًا من الناحية القانونية وليس من الناحية النفسية - اللاوعي الكامل لأعمال الجماهير - أمثلة متنوعة - تحليل نفسية الأيلوليين (إحدى جماعات الثورة الفرنسية -

محااجاتهم العقلية وحساسيتهم وضراوتهم وأخلاقيتهم.

الفصل الثالث : محلفو محكمة الجنائيات ١٦٧

محلفو محكمة الجنائيات - الخصائص العامة للمحلفين -
الاحصائيات تبين أن قراراتهم مستقلة عن تركيبتهم - كيف
يمكن التأثير على المحلفين - التأثير الضعيف للحاجة
العقلية عليهم - أساليب الاقناع التي يستخدمها المحامون
الشهيرون - طبيعة الجرائم التي يتسامح تجاهها المحلفون
أو يتشددون - فائدة وجود هيئة المحلفين والخطر الكبير إذا
ما استبدلت بالقضاة.

الفصل الرابع : الجماهير الانتخابية ١٧٣

الخصائص العامة للجماهير الانتخابية - كيف يتم إقناعها -
الخاصية التي ينبغي أن يتحلى بها المرشح - ضرورة وجود
الهيئة الشخصية - لماذا لا يختار العمال والفلاحون
مرشحهم من بين صفوفهم إلا نادراً - مدى تأثير الكلمات
والصياغات التعبيرية على الناخب - فكرة عامة عن
المناقشات الانتخابية - كيف تتشكل آراء الناخب - قوة
اللجان وجبروتها - إنها تمثل الصيغة الأكثر إرهاباً من
الطغيان - لجان الثورة الفرنسية - على الرغم من قيمته
النفسية الضعيفة فإنه لا يمكن التخلي عن حق التصويت
العام - لماذا يظل التصويت متماثلاً حتى لو قلصنا حق
التصويت وحصرناه بعدد محدود من المواطنين - ما يعبر
عنه حق التصويت العام في كل البلدان.

الفصل الخامس : المجالس البرلمانية ١٨٣

الجماهير البرلمانية تجسد معظم الخصائص المشتركة
لدى الجماهير المغفلة غير المتجانسة - تبسيطة الآراء -
قابلية التحريض وحدود هذه القابلية - الآراء الثابتة النهائية

والآراء المتحركة أو المتغيرة - لماذا يهيمن التردد
واللايقين - دور المحركين أو القادة - سبب هيبته
الشخصية - إنهم السادة الحقيقيون للمجلس النيابي
وبالتالي فإن الأصوات محصورة بأقلية - القدرة المطلقة
التي يمارسونها - عناصر فنها الخطابي - الكلمات
والصور - ينبغي أن يتحلَّى المحركون من الناحية النفسية
بالاقتناع الكامل والعناد - لا يمكن للخطيب الذي
لا يتحلَّى بالهبة الشخصية أن يقنع الآخرين بآرائه -
المبالغة سمة العواطف السائدة في المجالس النيابية سواء
أكانت طيبة أم شريرة - الإرادة المشلولة التي تصل إليها في
بعض اللحظات - جلسات الجمعية الوطنية أثناء الثورة
الفرنسية - الحالات الخاصة التي تفقد فيها المجالس
النيابية خصائص الجمهور - تأثير الاختصاصيين على
المسائل التقنية - ميزات النظام البرلماني وأخطاره في كل
البلدان - إنه يتلاءم مع الحاجيات الحديثة، ولكنه يؤدي
إلى تبذير أموال الميزانية والتقليص التدريجي لكل
الحريات - خاتمة.

الحواشي ٢٠١

يرى غوستاف لو بون أن الجماهير لا تعقل، فهي ترفض الأفكار أو تقبلها كلاً واحداً، من دون أن تتحمل نقاشها أو مناقشتها. فما يقوله لها الزعماء يغزو عقلها سريعاً فتتجه إلى أن تحوله حركة وعملاً، وما يوحى به للجماهير ترفعه إلى مصاف المثال ثم تندفع به، في صورة إرادية، إلى التضحية بالنفس.

إنها لا تعرف غير العنف الحاد شعوراً، فتعاطفها لا يلبث أن يصير عبادة، ولا تكاد تنفر من أمر ما حتى تسارع إلى كرهه.

وفي الحالة الجماهيرية تنخفض الطاقة على التفكير، ويذوب المغاير في المتجانس، بينما تطفئ الخصائص التي تصدر عن اللاوعي.

وحتى لو كانت الجماهير علمانية، تبقى لديها ردود فعل دينية، تفضي بها إلى عبادة الزعيم، وإلى الخوف من بأسه، وإلى الإذعان الأعمى لمشيتته، فيصبح كلامه دوغماً لا تناقش، وتنشأ الرغبة إلى تعميم هذه الدوغما. أما الذين لا يشاطرون الجماهير إعجابها بكلام الزعيم فيصبحون هم الأعداء.

لا توجد الجماهير من دون قائد. والعكس صحيح أيضاً، إذ لا يوجد قائد من دون جماهير، كما كتب لو بون قبل قرن من الزمن.

هذه الآراء راهنة اليوم، كما في الأمس، خصوصاً في العالم العربي حيث لا تزال الجماهير حائلاً دون ظهور العقل العاقل وطرده الفرائز.

ISBN 1 85516 815 4



DAR AL SAQI

26 Westbourne Grove, London W2 5RH

دار
الساقية